ذكريات
مرابع الصبا والشباب
(١٩٥٢ - ١٩٦٧)



أحمد جبريل علي مرعي

نبذة عن المؤلف



أحمد جبريل علي مرعي

من مواليد عام ١٩٤٧م

- درس في مدرسة المجلد الأولية أ (الغربية)، ومدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى، ومدرسة خورطقت الثانوية
- تخرج من كلية الآداب جامعة الخرطوم عام ١٩٧٢
- عمل في وزارة الثقافة والإعلام في مسرح الفنون الشعبية من عام ١٩٧٢ إلى ١٩٧٦
- خلال العمل في مسرح الفنون الشعبية كلف بالإشراف على فرقة الأكروبات الصينية الدفعة الأولى
- عمل في القسم الإنجليزي بوكالة السودان للأنباء من عام ١٩٧٦ إلى ١٩٧٩
- التحق بوزارة الدفاع والطيران والمفتشية العامة السعودية بالرياض في وظيفة مترجم في إدارة المساعدات العسكرية الخارجية وهيئة عمليات القوات المسلحة السعودية في الفترة من أواخر عام ١٩٧٩ إلى ١٩٩٠.
- عمل ضمن البعثة العسكرية السعودية في الجمهورية العربية اليمنية مترجما شفهيا وتحريريا لمدة ستة (٦) شهور خلال عام ١٩٨٠.
- عمل في إدارة البحوث والتطوير بوزارة الدفاع والطيران والمفتشية العامة السعودية في الفترة من عام ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٠
- عمل في وظيفة مترجم صحفي بمؤسسة روناء للإعلام المتخصص في الفترة من عام ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٧
- ترجم الكتب التالية:
  ١. منظور القرية من نهر النيل (إلى العربية)
  ٢. النوبة – شمال السودان (إلى العربية)
  ٣. سوق الكمر (إلى الإنجليزية)
  ٤. الأسطورة في الشعر الحديث (إلى الإنجليزية)
  ٥. كتاب عن أحد أقطاب العمل السعودي المميزين (لم يرد النور بعد)
- **له مؤلفان في طريقهما إلى النشر هما:**
  ١. ذكريات جامعة الخرطوم
  ٢. ذكريات الهروب العظيم والغربة المفتوحة.
- عضو جمعية الصحفيين السودانيين بالرياض، المملكة العربية السعودية
- عضو جمعية المترجمين السودانيين بالرياض، المملكة العربية السعودية

الطبعة

بسم الله الرحمن الرحيم

ح احمد جبريل مرعي،١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

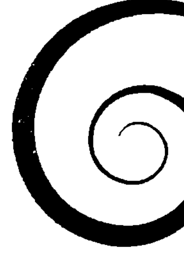
مرعي ، احمد جبريل
ذكريات مرابع الصبا والشباب (١٩٥٢ ـ ١٩٦٧) . /احمد جبريل
مرعي . ـ الرياض ، ١٤٣٣هـ
٣٢٢ص ، .... سم
ردمك : ٦ـ٩٦٧٥ـ٠٠ـ٦٠٣ـ٩٧٨

١ـ مرعي ، أحمد جبريل علي ـ مذكرات ٢ـ المذكرات ٣ـ الادب
العربي ـ السودان أ. العنوان
ديوي ٨١٨,٠٣٩٦٢٤ ١٤٣٣/٣١٤٣

رقم الايداع: ١٤٣٣/٣١٤٣
ردمك : ٦ـ٩٦٧٥ـ٠٠ـ٦٠٣ـ٩٧٨

ذكريات
مرابع الصِّبا والشباب
١٩٥٢ - ١٩٦٧

أحمد جبريل علي مرعي



شكر و امتنان

أتقدم بوافر الشكر والامتنان للإخوة الأستاذ علي جماع عبد الله، والدكتور عبد الكريم جبريل القوني، والأستاذ محمود جبريل القوني، والدكتور حسن حماد، والدكتور دفيعة عوض جابر، والأستاذ أحمد العمار، والأستاذ بشير يوسف، والأستاذ أحمد الأمين أحمد، والأستاذ إسماعيل يحي، والأستاذ عبدالوهاب طه محمد الذي قام بالتصحيح اللغوي، والأستاذ الفنان المخرج سيد محمد سيد ، ومنسق النصوص الاستاذ عبدالرحمن مستورأسماعيل، على جهودهم المقدرة ومساعدتهم الكريمة بالتوجيه والتعليق في سبيل أن يرى هذا السفر النور.

الإهــداء

إلى زوجتي الغالية هدى (أم راشد) الهدية، الرضية، التقية التي صاحبتني في درب الحياة، ووقفت بجانبي وآزرتني.

وإلى أبنائي وبناتي الأعزاء (راشد وشيماء ودلال ووضاح وعمرو ورميساء) الذين وضعوا نصب أعينهم مصالح الأسرة ولم يتخاذلوا في ساعات العسرة، وساند بعضهم بعضاً بقيادة الدكتور راشد والمهندسة شيماء زوجة الأستاذ الفاضل/ الصادق جاد الله الطاهر مخير.

إليهم وإلى أحفادي الحلوين (وعد ووجد وواصل ووافي (مواليد باكستان) ونور (مولودة روسيا)) أهدي هذه الذكريات والانطباعات، علها تضيء لهم ماضياً لم يطلوا عليه، وآمل أن يستنبطوا منه ما ينفعهم في مقبل الأيام.

وإلى إخواني وأخواتي وأصدقائي وزملائي الأعزاء – ذلك الجيل الذي قلّ أن تجد له مثيلاً في الإخاء والوفاء والود والتضحية والإيثار – داخل السودان وخارجه أهدي هذه الباقة من الذكريات التي عشناها سوياً ولونت حياتنا بأزهى الألوان وأضفت عليها رونقاً وجمالاً وألقاً وسعادة.

وأخيراً إلى أرواح تلك الثلة من الأمهات والآباء الكرام الذين رعونا صغاراً فأحسنوا الرعاية، وتعهدونا كباراً فأجزلوا العناية. نسأل الله أن يتغمدهم برحمته الواسعة ويسكنهم فسيح جناته.



توطئة

لما كانت الأحداث اليومية للمرء مع غيره من البشر تشكل حصيلة المجتمع من التجارب، وحصيلة المجتمع مع غيره من المجتمعات تشكل حصيلة الأمة من التجارب، وحصيلة الأمة مع غيرها من الأمم تشكل حصيلة البشرية من التجارب، فإن رصد تجارب المرء مهما كانت صغيرة، ضروري لتشكيل التاريخ البشري الذي هو حق مشاع لكل البشر.

ثم إن «**ذكريات مرابع الصبا والشباب**» في ذلك الجزء من الوطن الحبيب تعدّ رافداً من روافد أدب الأمة السودانية، إذ إنها تعكس أنماط سلوك البشر والتجارب المتنوعة التي قد تكون مماثلة لتجارب في أماكن أخرى من الوطن الحبيب أو التاريخ البشري ولكنها تختلف عنها في اللغة والأسلوب والبيئة فقط.

وهي محاولة لاسترجاع الذكريات الجميلة في تلك الأماكن والتأمل فيها علّ ذلك يضفي جمالا على حياتنا ويزيدنا ثقة في ذواتنا، ما يشجعنا على الاستمرار قدماً في استنباط الحكم الإلهية من حياة الفرد ويوسع فهمنا القاصر لأسرار الدنيا وزخرفها وقصر ساعاتها مهما طال الزمن.

لقد اقتضت بعض المواقف إخراجاً أدبياً ولم تكن الأمور حقيقة، بتلك بالصورة لأسباب عديدة احتفظ بها لنفسي وأستميحكم العذر في ذلك.

وهذه الذكريات، هي في حقيقة الأمر، محاولة لبيان ما كانت عليه تلك الأماكن وما آلت إليه الآن. وقد يجد

القارئ الكريم خلالها - أي الذكريات - ما يثيره ويرسم البسمة على ثغره، الشئ الذي يعدّ مطمحاً لعكس نمط الحياة في تلك المناطق وتحفيزاً للتأمل أكثر فأكثر. وقد يلمح القارئ بعض القواسم المشتركة بين تلك الأماكن رغم تباينها.

هذا، وفي خريف العمر عادة ما يلجأ الإنسان إلى التأمل في مسيرة حياته ويعمد إلى جرد حساباته قبل الصعود إلى قطار الرحلة الأخيرة.

المؤلف

الرياض - المملكة العربية السعودية

الخميس ٠٧/ديسمبر/٢٠٠٩م

الموافق ٢٠ من ذي الحجة/١٤٣٠هـ

الفصل الأول
ذكريات الطفولة



الفصل الأول
ذكريات الطفولة

دخول المدرسة الأولية

في صباح يوم مطير، اقتادنا أخونا الأكبر (محمد) إلى مدرسة المجلد الأولية (أ)، والتي سميت (الغربية) أيضاً بعد تشييد مدرسة (الشرقية) أو المجلد الأولية (ب) التي كانت كالقلعة العتيدة تطل من تل رملي أبيض على المدينة أسفلها حيث انتشرت الغدران وبرك المياه والخضرة على مد البصر.

على هذا البساط الأخضر الذي يعج بالطيور من كل لون وجنس وباختلاف درجات صوتها وأشكال تغريدها، تناثرت الأبقار والأغنام والخيل والحمير ترعى في هناء وسعادة، ومن فوقها سماء المدينة المتلبدة دائماً بالغيوم والمزن المثقلات. والدخان المتصاعد من المنازل والحيشان ينبئ عن طهي (العصيدة) – وجبتنا الوحيدة – أو بغية طرد الذباب والهوام من الماشية المتجمعة في الزرائب داخل الحيشان الكبيرة.

محمد أمامنا ونحن ننساب من ورائه. فتارة نمشي بجواره وتارة أخرى نهرول من خلفه ونحن على عجلة من أمرنا. كلٌّ منا يفكر في المدرسة وفي هذا اليوم الذي ظل يحلم به، وقد تلوثت أحذيتنا الباتا سمك (أحذية من القماش مع نعل مطاطي) الجديدة بالطين، وبللتها قطرات الندى ونحن نثب على الحشائش ونحاول تنظيفها.


الأمير محمد جبريل القوني (النذير)

اجتزنا جسوراً صنعت من جذوع الأشجار لتمرير المياه من تحتها، ورذاذ مطر «الرشاش» يزداد حيناً ويقل حيناً آخر. ابتلت جلابيبنا والطواقي الجديدة بماء المطر. كان شعوراً جميلاً ممزوجاً بالرهبة

وفرحة المدرسة والملابس الجديدة.



خامرنا شعور غريب ذلك اليوم هو أنه يوم عيد من نوع آخر، وقد ظل هذا الشعور ماثلاً في أذهاننا دهراً. وظلت تلك الصورة الطفولية منحوتة في أذهاننا إلى هذا اليوم، حيث نراها بوضوح كأنما كانت بالأمس القريب.

دخلنا المدرسة وسط هرج التلاميذ ومرجهم الصباحي.
دق جرس الطابور الذي كان يوضع، في العادة، على مسطبة (دكة) دائرية وسط المدرسة، والذي يتسابق إليه التلاميذ عندما يؤمرون بدقه. ويسعد كثيراً من يصل إليه أولاً من التلاميذ إذ كانوا يعدّون ذلك السبق بمثابة الجائزة الكبرى.

ازدادت رهبتنا وبدأت دقات قلوبنا الصغيرة في التسارع ونحن تحت شجرة (اللبخ) الضخمة التي كانت تقف بشموخ أمام فصلي أولى وثانية.

تم استيعابنا في المدرسة المذكورة، وعدنا فرحين بهذه التجربة الغريبة أيما فرح. وكانت سعادتنا أكبر بمشاهدة الناظر (حامد ضوالبيت) الذي كنا نسمع عنه وعن أخيه (إبراهيم ضوالبيت) الذي رسم لوحة (أصدقاؤنا في الخارج) لفصول السنة الرابعة في كل السودان.

الجدير بالذكر أن الأستاذ الروائي السوداني الشهير عبد الله خليل صاحب سفر (إنهم بشر) كان ناظراً على مدرسة المجلد الشرقية.

وسعدنا كذلك برؤية الشيخ مكي شميلة والشيخ بابو أم بردب والشيخ رمضان مخرز والشيخ إبراهيم محمد زين والشيخ صالح وغيرهم.

كما يجدر بالذكر أن المعلم في المدرسة الأولية كان يطلق عليه اسم (الشيخ) وفي المدرسة المتوسطة اسم (الأفندي) وفي المدرسة الثانوية (الأستاذ).

وقديماً قيل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومن هنا فقد أدركت بوضوح تام شوق ابني (وضاح) لدخول المدرسة مع إخوته ولما يكمل الخامسة من عمره. وعرفت معنى تلك العجلة وإحساسه الدائم بأنه كبير وأنه ليس أقل شأناً من إخوته الذين يذهبون إلى المدرسة كل صباح، فقد كان يصرُّ على اقتناء كل شيء نأتي به لإخوته. ويصحو كل يوم معهم ويرتدي ملابسه مثلهم تماما ويصرُّ على الخروج معي إلى السيارة وتوديع والدته التي كانت- كما يعتقد - تسلبه حرية الخروج. فهو دائم الشد والجذب والصراخ معها لبعض الوقت بعد خروجنا ثم يهدأ بعد حين.

أكملنا السنة الأولى وبدأنا نكتب قليلاً. وكانت تلك مناسبة كبيرة، فنحن الآن في السنة الثانية ويقصدنا البدو لكتابة (مكاتيب) لذويهم في مدن السودان المتعددة. كنا نشعر بزهو ونحن نكتب تلك المكاتيب - كما يسميها البدو الذين ينفحوننا أحياناً تعريفة أو أكثر وهو مبلغ كبير آنذاك. فقد كانت التعريفة تساوي خمس مليمات فيما كان للمليم قدرته الشرائية. وأحيانا أخرى يكتفون بالثناء علينا بقولهم إن (ابن فلان كاتب) وهذا يعدُّ لديهم قمة المدح.

كنا نعرف أن الشيخ مصطفى النعيم - رحمه الله - صاحب الشيخ مكي شميلة. وكان الشيخ مصطفى النعيم يعمل في المدرسة الشرقية، وقد ذاع صيته بأنه يجلد جلداً مبرحاً، وأنه قد يضربك بيده فيقتلك. حتى أن أحد أصدقائي – وهو حالياً الدكتور عبد الله عبد الكريم – الذي كان مردوفاً على الحصان مع أخيه العريس في (السيرة) قفز من ظهر الحصان إلى الأرض وأطلق ساقيه للريح عند رؤيته الشيخ مصطفى النعيم بين الحاضرين عرس أخيه.

تشوقنا لليوم الذي (سيصرفون) لنا فيه ألواح الإردواز. فلقد كان ذلك حلماً كبيراً بالنسبة إلينا. كنا نخرج قبل ذلك أمام الفصل في شكل دائري ونحن جلوس على الأرض، نقلد الحروف التي كانت مكتوبة بالصمغ على ورق ذُرَّ عليه التراب. وكان الشيخ أحياناً يضغط أصابعنا الصغيرة على الأرض لنكتب الحرف بشكل صحيح عندما نكتبه خطأ، فيحدث الضغط احتكاكاً بالأرض يؤلمنا كثيراً.

طال انتظارنا لحلم آخر أكبر وهو (كتاب الأطفال)، إذ يوجد بهذا الكتاب حرف ألف (أ) وبجانبه الأسد فنقول (آ أسد) وننطق الواو قائلين (و ولد) و(ل لمس) والولد لمس الأسد. وصورة الولد الذي لمس الأسد. وهل يستطيع أحد أن يلمس الأسد بهذه السهولة!!! لقد كانت الأسود كثيرة في منطقتنا وتكتنفها كثير من الأساطير.

وكنا نشاهد أيضاً في الكتاب (حسن ولد الحبش) الذي نسمع به ولم نره. وطه القرشي (المريض) الذي مرض دهراً. ويبدو أنه قد شفي من مرضه إلا أنه لا يزال مريضا في ذاكرتنا. وكذلك العنزة كريت (التي وجدت المرعى الطيب وأبت الرجوع إلى البيت). والضبع الأكبر والأوسط والأصغر وأصواتهم (قرنتش – قرنتش –

قرنتش) والتي كنا ننطقها حسب كبر الضبع - بضم القاف حيناً وفتحها وكسرها حيناً آخر.

وكان لرؤية صورة طائر الهدهد الميمون على صفحة الكتاب الأولى- شعار معهد بخت الرضا – مفعول سحري علينا. لقد شكلت بخت الرضا بختاً ورضاءً على حياتنا. وكان لا يعجبنا كتاب ليس به هذا الشعار حيث كنا نبحث عن هذا الشعار في كل الكتب المدرسية وغيرها وكان - أي الشعار - كافياً للشعور بالرضا عند مشاهدته. لقد كان معهد بخت الرضا معهداً تربوياً عظيماً. ألا نضر الله وجه من أسعدنا في تلك السن المبكرة.

ومن أحلامنا أيضاً كانت (حقيبة القماش) التي يتوشحها التلاميذ الأكبر سناً على جنوبهم وقد كتب عليها (مدرسة المجلد الأولية أ) و(اسم الفصل الدراسي) و(اسم التلميذ). وأصبح ملازماً لها بقعة من أثر انسكاب الحبر عليها من المحبرة التي تكون بداخلها. تلك البقعة تكاد لا تخطئ أي حقيبة قماش في المدرسة.

مضت بنا الأيام حلوة سعيدة وخالية مما يعكر صفوها. نقضي سحابة النهار في المدرسة ونتناول اللقيمات (الزلابية) من إحدى العمات التي تجلس عند باب المدرسة والحمد لله لم نسمع بصحة البيئة ولا غيرها!! وآخر اليوم ترانا إما في السوق أو في البيت وأحياناً في البوطة (غدير الماء الراكد)، نسبح في مساحات صغيرة لكننا نفخر بها وكأننا عبرنا بحر (المانش)، فقد كانت السباحة من الأمور المحرمة مدرسياً حتى في الإجازات وكذلك ركوب الدراجات الهوائية رغم قلتها. وكان البنات يغنين في الدلوكة (طبل نسائي فخاري تستخدمه البنات في المناسبات السعيدة) أغاني للعجلة (الدراجة الهوائية) التي ظهرت لتوها كتقنية جديدة:

قمت الصباح بدري	بفكر في أمـري
جاني صغير قدري	راكب له في عجلة
لما العجـل لـــفّ	قلبي التقيل خفّ
دقلاش يادقلاش	دقلاش وليد الناس

راودتني وأخي عبد الله يوماً فكرة ركوب شاحنة، على الرغم من أن أخانا عثمان -رحمه الله- كان يملك شاحنة (فورد) كتب عليها (مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم). فما كان منا إلا أن طلبنا من أحد السائقين الذين ينقلون الطوب الأحمر من البواط (غدران الماء) أن نعمل معه مجاناً في شحن الطوب الأحمر وإنزاله، على أن يسمح لنا في مقابل ذلك بركوب الشاحنة من البوطة (غدير الماء) إلى مكان إنزال الطوب، وبقينا على هذه الحال حتى احمرت ملابسنا وأجسامنا من الطوب. وكانت النهاية أن أخذنا علقة (جلدة) ساخنة من يد أخينا

الأكبر آدم لم ولن ننساها أبداً.

كنا نقضي معظم الوقت في اصطياد الطيور بالشراك والأحابيل. ونذهب للزرع أحياناً أخرى حيث كانت لمعظم ساكني المجلد مزارع في العتامير (كثبان الرمل) المحيطة بالمجلد، ونبحث عن الأبقار والأغنام التي تعود إلى البيت في المساء من الغابات القريبة من الحي التي تكثر بها الأرانب والغزلان ودجاج الوادي وطيور الإوز البرية (مثل: الوزينة الصغيرة الحجم التي تسمى (أم كر)، والوزينة الكبيرة الحجم التي نطلق عليها الوزينة (أم قرن)). كان بعض الإوز يثير اهتمامنا بسبب الحلقات الحديدية التي تحيط بأرجله وقد كتب كلام بلغات لا نعرفها. علمنا فيما بعد أنه يقدم إلينا من شمال الكرة الأرضية من السويد والنرويج وروسيا، وأن هذه الحلقات من صنع علماء هجرة الطيور في تلك البلدان.

كنا ننعم بالسباحة – رغم تحريمها مدرسياً - في البواط (غدران الماء) التي تحيط بها أشجار (أم قاتو) وتسلق شجر (الجوغان) لقطف ثماره الحلوة.

ومما أذكره جيداً أن أحد إخوتي (ياسين) وكنا نطلق عليه أحياناً اسم (الياس) و(عطية) و(بنك) – وكثرة الأسماء تدلّ على أهمية المرء - تاه يوماً في بحثه عن الأبقار التي ضلت طريقها إلى الحوش عند المساء. فخرج الناس رجالاً ونساءً شيباً وشباباً وأطفالاً، يضربون الطبول ويصيحون ليهتدي (عطية) إليهم وسط بكاء النساء خوفاً من أن يأتي الليل فتفتك به الذئاب الضارية، والله وحده أعلم بما في ليل المجلد من ذئاب وحيوانات مفترسة أخرى اعتاد الناس على وجودها بكثرة حتى إنك لتجد أحياناً بعض الضباع في الليل داخل الحيشان.

وذات مرة زأر أسد بالقرب من المجلد في ليلة من ليالي عام ١٩٥٢م ويومها خلنا أن زلزالاً أنشب أظافره في أديم الأرض. فقد كاد زئيره يقتلع القطاطي (مساكن مخروطية الشكل تبنى من الطين وتسقف بالقش). وطفقت الكلاب في تلك الليلة تعدو إلى داخل البيوت رافضة الخروج، وتبول كل حيوان، وناحت الأبقار على صغارها، ولم تكتف بذلك، بل كسرت الزرائب لتجتمع بصغارها. واستعد الآباء بالحراب الكبيرة والأسلحة النارية المرخصة وغير المرخصة لما قد تتمخض عنه تلك الليلة من خطر ماحق. وعشنا لحظات عصيبة في هرج ومرج، إلا أن الأمر انقضى ليلتها بسلام وطلع الصباح فتنفس الناس الصعداء.

وأذكر أن الناظر علي نمر -رحمه الله - قتل أسداً في طريق أبيي- المجلد وحمله في اللوري (الشاحنة) إلى

المجلد وأنزله في المركز، فخرجنا من المدرسة قاصدين (المركز) لمشاهدة هذا الحدث العظيم، وتجمهرنا حول الأسد المقتول. وكنوع من المزاح كان يُطلب منا بعد عصب أعيننا القفز من فوقه. وكانت تلك تجربة قاسية لم ينجح فيها إلا قلة. وبينما نحن مأخوذون بالمشهد، رفع أحدهم إحدى قوائم الأسد الخلفية (الكراع). فإذا بالأسد يزأر وكأنه حي. فتفرق جمعنا ركضاً وصياحاً في كل اتجاه. ولم نعد أبداً على الرغم من كل الإغراءات. وعلمنا فيما بعد أن خروج الهواء من جوف الأسد مروراً بأوتار صوته هو ما أحدث الزئير الذي أفزعنا كثيراً وأذهب صوابنا.

ومن الظواهر الطبيعية التي تركت أثراً قوياً في نفوسنا، كسوف الشمس الذي حدث عام ١٩٥٢. حيث خرج الناس من منازلهم وهم يضربون على الصفائح (علب الصفيح المعدنية) الفارغة وعلى كؤوس القرع (اليقطين/ كارجقل) وهي منكفئة على الماء. وأشعل البعض نيراناً هائلة وأضرموا مشاعل. وهلل وكبر البعض الآخر، بينما اتجه الكبار لأداء صلاة الكسوف. وحقاً شهدنا ضروباً من الاعتقادات وطقوساً متباينة في بلد سواده الأعظم من المسلمين.

وفي المدرسة درسنا في حصة الطبيعة الطيور والحيوانات المختلفة، وسعدنا بذلك؛ لأنها كانت جزءاً من محيطنا وبيئتنا. لم تزد على ما نعرفه كثيراً، لكننا مع ذلك كنا سعداء بحصتها. وكانت الحصة (قصة) من أحلى الحصص حيث نجلس منتبهين وفي صمت تام وكأن على رؤوسنا الطير وكلنا آذان صاغية.

أراد الناظر بابو نمر – رحمه الله – أن يخوض تجربة إدخال بنات عرب البقارة المدرسة الأولية، فذهب إلى بعض فرقان البدو وأتى بمجموعة منهن بعد أن بذل جهداً في إقناع آبائهن بضرورة تعليمهن، ولكن يبدو أن المسألة كلها كانت تصوراً ضبابياً عند البدويات إذ لم تتبلور صورة المدرسة ومنافعها لديهن.

أدخلت البدويات مدرسة المجلد الأولية للبنات، ويبدو أنه كان يوجد أيضاً بينهن من كان (ديدها يخنق الكلب) أي كبيرات بعض الشيء. مكث هؤلاء البدويات يومين وفي اليوم الثالث بدأت أصوات حلقات لعب العجكو تتناهى إلى آذانهن في المساء، فتسللن خلسة من المدرسة وقصدن الدورية (حلقة العجكو) واستمتعن باللعب (الرقص) ثم انتظرن حتى يوم الخميس حيث يفد العربان إلى سوق المجلد فاستأذن لملاقاة عوائلهن وكان ذلك آخر عهدهن بالمدرسة!!

من غرائب الأمور أيضاً أن أخانا الرفاعي مهدي الرفاعي (ننو) - رغم صغر سنه كان له (حارس شخصي) كلف بمهمة توصيله إلى المدرسة والعودة به عند نهاية الحصص. وقد كنا نراهما (ننو وحارسه) أحياناً يسيران جنباً إلى جنب أو يتسابقان فرحين، وأحياناً أخرى يعتلي (ننو) ظهر حارسه الشخصي بما يمثل نوعاً من الارستقراطية لم نعهده في المنطقة!!

ومن الحصص التي كان ينتابنا فيها شعور غريب حصة (التاريخ)، حيث كانوا يعطوننا دروساً حول كل ما يتعلق بحياة المشاهير من الأوروبيين لم نكن نعلم عنهم شيئاً. فكان هناك (وليام تيل) بسهمه الذي لا يخطئ وكيف أنه أصاب التفاحة التي كانت على رأس الولد. و(الفريد ورجال الشمال). ولكننا لم نر الفريد ولا رجال الشمال في المجلد، وإنما كان يوجد في المجلد عرب البقارة والدينكا والفلاتة (اليوروبا والهوسا وأم بررو) والجلابة وعمنا (الخواجي) عيدو جورج وغيرهم. فأين (الفريد) وأين (رجال الشمال) من هؤلاء؟! وكذلك الفارس (رولاند) ونحن لا نعرف سوى فرسان عرب البقارة. وهنا أقول: إنما كانت أمثال هذه الدروس أشياء أراد بها المستعمر أن يغسل أدمغتنا الصغيرة!

انتقلنا إلى السنة الثالثة وكنا سعداء جداً بهذه المرحلة، فقد غرست لكل اثنين منا شتلة صغيرة لشجرة كان علينا رعايتها سقيا ونظافة كل يوم بالتناوب. وكان علينا كذلك أن ننظف الفصول يومياً حسب الجدول الموضوع، فلقد علمونا استشعار المسؤولية في تلك السن الصغيرة. نعم لقد كانت المدارس أمكنة للتربية التعليم الحقيقي.

تم إدراجنا كذلك ضمن قائمة فريق كرة القدم المدرسي. وصرفت لنا (الفنايل) الموشحة إما بخط أزرق أو أحمر وقد سعدنا كثيراً كثيراً بذلك التطور النوعي.

ثم أننا عشنا تجربة (الكنز المفقود) وتتمثل في علبة حلوى مدفونة في مكان ما نصل إليها دائماً عن طريق خارطة تذهب بنا في مشاوير طويلة، ولكننا في النهاية نصل إلى الكنز المفقود ونسعد جميعاً بهذه الجائزة.

بعد ذلك بدأنا نؤجر العجلات - الدراجات الهوائية — منطلقين في (سهرة ليلية) بمبلغ خمسة قروش. ولا ننام تلك الليلة إلا يسيراً. نظل نطوف حول الحيشان ليلاً، لنستغل كل قرش دفعناه أجراً لها حتى يبلغ بنا الإعياء مبلغا ثم نأوي أخيراً إلى الفراش. وقد كانت العجلات آنذاك نوعين: الدبل (العريض الإطار)، والرالي (الرقيق الإطار). وكنا ندلف خلسة للسباحة في البواط لإحساسنا بأننا كبار، وقد انتقلنا إلى السنة الرابعة. ولكننا كنا

في كثير من الأحيان نلقى جزاء ما اقترفنا (علقة ساخنة) من أحد الإخوة الكبار **أو المدرسين وذلك بوشاية من أحد الطلاب.**

درسنا في حصة الجغرافيا صديقنا (أحمد) في مصر و(سانشو) في الارجنتين و**(هو) في الصين وغيرهم، وبدأنا نعي ما حولنا من العالم الخارجي،** وفي المساء كنا نعود للمذاكرة الليلية استعداداً **للامتحانات النهائية وامتحان (اللجنة) والدخول إلى المدرسة الوسطى.**



راس النيفة:

ذات مساء ونحن عائدون من المذاكرة المسائية قصدنا الفرن الوحيد - فرن (يوسف الفران) – لنشتري (الغريبة)، راقت في عين أحد إخوتنا فكرة سرقة واحد من رؤوس النيفة المعروضة في طشت (طست). وفي لحظة خاطفة استقر رأس النيفة في حقيبة القماش (المصنوعة من قماش الدمورية)، وواصلنا مسيرنا إلى البيت. ثم نزلنا إلى المنخفض الذي كان أمام (الجزارة) وخرجنا منه فرحين ونحن نتناول (الغريبة).

وعندما أوشكنا على الوصول إلى البيت، سمعنا جلبة فنظرنا وراءنا. ويا للهول!!! فقد كان أولاد يوسف الفران يركضون سريعاً وراءنا، وقد أخافنا ركضهم رغم أننا لم نكن ندري سبب مطاردتهم إيانا إلا أن أخانا الذي عمل عملته السوداء والذي أطلق ساقيه للريح أغرانا بالعدو وزاد من خوفنا، فانتظمنا جمعياً في سباق غير متكافئ؛ فقد كان معظم أولاد الفران أكبر منا. وعلى مقربة من التبلدية التي كانت في بداية الحوش تمكن أولاد الفران من اللحاق بنا وإيقافنا. وتم تفتيشنا فرداً فرداً. ولسوء الحظ أطلَّ رأس النيفة (الباسم) من حقيبة أخينا مبتسماً!!!



السفر إلى النهود:

ركبنا (اللوري) الذي أعدّ لسفرنا إلى (النهود) ليتم تسنيننا (استخراج شهادة الميلاد عن طريق تقدير طبيب ماهر)، وبالفعل، فقد قام الدكتور عبد العزيز مالك – رحمه الله - في مستشفى النهود بهذه المهمة حيث كان معظمنا لا يملك شهادة ميلاد أصلية، فقد كان بالمجلد قابلتان (دايتان) فقط: الداية فاطمة بنت حسين، والداية خديجة بنت بابو فاتح (رحمهما الله). وكانتا تقطنان بعيداً عن حلة الفكي جبريل القوني، حيث كانت إحداهن تسكن في حلة أركويت. وكنا نكره إرسالنا إليهن في الليل وسط نباح الكلاب وعواء الضباع وفحيح الأفاعي، ونلعن نساء حينا اللاتي لا يلدن إلا بالليل أو قريباً من الصباح!!

كانت تجربة السفر إلى مدينة (النهود) تجربة رائعة جداً. فلأول مرة نسافر خارج المجلد، وبشاحنة وشنط حديدية صناعة محلية كمان (أيه الهنا اللي نحن فيه ده) كما يقول إخواننا المصريون!!!

ومن الطرائف أن أحد إخوتنا الفصحاء البلغاء عيَّر أحد زملائنا بأن عيونه تشبه درادم الشنطة (تكويرات تكون على ظهر الشنطة الحديدية كزخرفة). فيا له من تشبيه!!

وصلنا النهود مروراً برهد (غدير) السباق. وكان من ضمن برامجنا في النهود دخول السينما، وهي المرة الأولى التي نشاهد فيها داراً للسينما خلاف السينما المتجولة. وكانت استعداداتنا من حمام وانتقاء الجلابية المناسبة وحذاء الباتا على قدم وساق لهذه التجربة الفريدة.

دخلنا (سينما النهود)، وبدأ ما يسمى (بالمناظر) وهو عرض متنوع يبدأ قبل العرض الرئيس. كان الفيلم من

أفلام رعاة البقر (الكاوبوي) الذين ننتمي إليهم مهنياً، وقد فاجأنا المخرج باللقطة الأولى والخيل في سباق محموم، وعليها رعاة البقر بقبعاتهم وبنادقهم ومسدساتهم ووجوههم المكفهرة وأصوات الرصاص والأبقار والهرج والمرج. كنا جلوساً قريبين من شاشة السينما، وقد أيقنا أن هذه الخيل المسرعة لا محال ستصل إلينا. وبحركة لا إرادية وجدنا أنفسنا جميعاً تحت المقاعد تفادياً لهذه الهجمة البربرية. لقد كانت تجربة، وأي تجربة!!!!

ومن أشهر خريجي مدرسة المجلد (أ) الغربية الناظر بابو نمر (ناظر عموم المسيرية)، والناظر علي نمر (ناظر العجايرة)، والأمير محمد جبريل القوني «النذير»، والأمير مختار بابو نمر، وغيرهم من رجالات الإدارة الأهلية.

كما تخرج فيها الدكتور فرانسيس دينج مجوك (وزير الدولة في الخارجية في حكومة مايو)، ودينج اللور (وزير الخارجية في حكومة الوحدة الوطنية)، والفريق مهدي بابو نمر رئيس الأركان الأسبق ووزير الصحة في حكومة الوحدة الوطنية، والدكتور جلال يوسف الدقير (وزير الصناعة ثم التعاون الدولي في حكومة الوحدة الوطنية)، والأستاذ القوني جبريل القوني، والأستاذ حسين جبريل القوني، والأستاذ علي جماع عبد الله، والأستاذ مكرم عيدو جورج، والأستاذ نبيل عيدو جورج، والأستاذ عياد عيدو جورج، والأستاذ عبد اللطيف الترماي، والأستاذ موسى بابو نمر، والأستاذ نمر علي نمر، والأستاذ بكر علي نمر، والأستاذ الحاج حمدون، والأستاذ عمر الشوين، والأستاذ أحمد محمد الأمين، والأستاذ محمود محمد الأمين، والأستاذ آدم سبيل أبكر، والأستاذ أحمد صالح الطاهر، والأستاذ محمد الحسن عمر حامد، والأستاذ علي أبو شعير، والأستاذ عباس أحمد حامد القاضي، والأستاذ علي منصور حميدة، والأستاذ ميرغني شميلة والأستاذ محمود شميلة، والأستاذ صلاح الدين محمود علي الجلة، والأستاذ سليمان محمود علي الجلة، والأستاذ الفاضل حرقاص، والأستاذ أحمد كبيرة والأستاذ نمر حمدان عبد الله، والأستاذ عامر الدرديري نمر، والأستاذ التجاني عثمان الأسيوطي، والأستاذ علي عثمان الأسيوطي، والأستاذ كامل بابو نمر، والدكتور عاصم بابو نمر، والأستاذ الصادق بابو نمر، والأستاذ حسن دينج مجوك، والدكتور عبد الله عبد الكريم جبريل، والدكتور عبد الكريم جبريل القوني، والدكتور مدني محمد مدني، والمهندس عمر يوسف الدقير وغيرهم على سبيل المثال لا الحصر. فرحم الله من مات منهم رحمة واسعة وأطال في عمر من بقي منهم.



ليالي رمضان:

يتجمهر الناس في الحوش لرؤية هلال رمضان كما يفعلون في سائر الشهور ويتفاءلون برؤية الهلال. وعندما تثبت رؤيته يبارك بعضهم لبعض هذا الشهر الفضيل.

وتسبق رمضان عادة استعدادات من نوع فريد. حيث تجهز النساء الآبري ((الحلو مر) كما يطلق عليه وهو رقائق حمراء من الذرة العسلة المعالجة ببهارات). وهو مشروب أساسي (يقطع العطش) في المائدة الرمضانية. وكذلك الرقاق (رقائق بيضاء تصنع من الذرة أيضاً وهي أشبه ما تكون (بالكورن فليكس) إلا أنها أرق) الذي



يضاف إليه الحليب من أجل السحور. وهناك التمر (المبلول) الذي يقدم للفطور والسحور معاً.

وعادة ما يتألف فطور رمضان من الطبق الأساسي (العصيدة) بمختلف الأدام (الملاحات). فهناك التقلية والنعيمية والروب وأم بق بق وغيرها. وكذلك اللحم وطبخات أخرى بجانب الطبق الأساسي. ثم المشروبات التي تتألف من الآبري وشراب الليمون والكركدي والمديدة (النشا) والقضيم وغيرها في الكوريات (السلطانيات) المكتوب عليها (رمضان كريم). فلم تكن موائدنا غنية بالمأكولات والمشروبات التي يشهدها عالم اليوم. ولم يعهد الناس في المنطقة هذه المجموعات الجديدة من الأطعمة التي نشاهدها اليوم في موائد رمضان.

تنقل أقداح العصيدة والصحون (الأطباق) الكبيرة إلى الديوان أو الضرا (الذرا) حيث يتجمع الرجال انتظاراً لسماع نقارة (طبل) الإفطار وهو البديل لمدفع الإفطار في المدن الكبيرة. وهنا تحضرني طرفة من إبداعات عقل أخي محمد التي لا تنقطع، حيث يقول بأنه أمام منزل الزعيم الأزهري في أم درمان بعد أن تقطع الشارع المؤدي إلى كبري شمبات (أم درمان – الخرطوم بحري)، اعتاد الشباب لعب كرة القدم في فضاء عريض على الناحية الأخرى أيام شهر رمضان. وكان المدفع الذي يسمى بمدفع الدلاقين (أي الخرق) ينصب على مقربة من هذا الميدان. يقول محمد إن المدفعجي لم يجد خرقا كافية لإطلاق المدفع. فلجأ لاستخدام ملابس لاعبي كرة القدم المتجمعة في هذا الميدان وحشا مدفعه بها. لم يجد اللاعبون ملابسهم وهم على وشك مغادرة الميدان للإفطار.وعندما انطلق المدفع كانت ملابس اللاعبين تتطاير في الهواء واللاعبون منطلقون وراءها ركضاً.!!

في كل شهر رمضان يختار الكبار في الحوش أحد الشبان ممن بلغ مرحلة الرجال وخشن صوته ليؤذن لصلاة العشاء ثم يقيم ويبقى على هذه الحال حتى انقضاء شهر رمضان. وكانت صلاة التراويح بالنسبة لنا في تلك السن مزيجاً من العبادة والمزاح في أثناء الصلاة.

ومما أذكره أن الطفلة المرحومة عفاف (بنت أختي فاطمة القوني) فاجأتنا ونحن في صلاة التراويح وهي تنادي بأعلى صوتها على جدتها المرحومة (عائشة أم الدقل) قائلة:
حبوبة (الجدة) الكلاب صغيرات وكبيرات أكلن الملاح (الأدام).
وهنا لم يتمالك كثير من المصلين أنفسهم من الضحك! وأوشكت (حبوبتها) أن تقطع صلاتها لتنقذ ما يمكن إنقاذه!!!

استضاف أخي آدم القوني (تور أندوشه البلقاه كله بهوشه) ضيفاً من البدو في رمضان. وبعد الإفطار وصلاتي المغرب والعشاء بدأنا صلاة التراويح التي كان يحضرها أغلب سكان حي الفكي جبريل القوني ويؤمهم فيها



مناسبة العيد:

اعتادت عماتنا داخل الحوش تنظيم مسابقات في الأعياد لمن تجيد طهي العصيدة (سواطتها) وتقديمها للضيوف في ذلك اليوم السعيد. فكن يطبخن العصيدة ويضعن داخل القدح الخشبي أو الصحن الكبير عدداً من الفناجين الممتلئة بالسمن البلدي. ويظل الضيوف يأكلون حتى يعثر أحدهم مصادفة على الفنجان فيسكبه في العصيدة أو يشربه.وهنا عليه واجب التنويه بهذه المرأة الشيخة الفنجرية فيرفع عقيرته صائحاً:

- بت فلان كملتنا (أي بنت فلان وفَّت وزادت)!!

وهنا تضج الساحة الداخلية لـ(النساء) بالزغاريد وساحة الرجال الخارجية التي نسميها الضراء (الذرا) بالأصوات المادحة والهمهمات بشكر (بت فلان) التي أجادت العصيدة صنعاً وتقديماً.

الجدير بالذكر أن عمتنا سعيدة حامدين طه بقادي - رحمها الله - كانت في أكثر الأوقات (ميرم العوين) التي تكسب الجائزة الكبرى.

وغالباً ما كان أخونا حسن (الشوال) محمد عيسي أبودقن - رحمه الله - هو الذي يبادر برفع عقيرته مسمعاً الحضور هذا النبأ السار. فتأتينا الزغاريد من داخل الحوش دفقة واحدة فرحا بهذا النبأ.

كانت أقداح العيد ذات الحجم الكبير تصنع من خشب أشجار (الحُمِّيض) وعليها غطاء، فهي كالحافظات الحديثة التي تحفظ الطعام ساخناً. لذا فإن العصيدة تبقى ساخنة لساعات طويلة ولا يحتاج الضيف سوى

تغيير كوريات (سلطانيات) الملاح (الآدام) التي كان يكتب عليها عبارة (رمضان كريم) - وكانت الكوريات من الأواني المشهورة والسمات البارزة لتقديم الأطعمة في رمضان - المحتوية على أنواع من الملاح. فكان الطعام (للغاشي والماشي) كما يقولون. وحقا كانوا (يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً). فقد كانت هذه الأقداح طوال اليوم في (الديوان) لكل ضيف يقصدها فينال منها قدر حاجته ثم يغلق الغطاء للضيف القادم وينصرف في حال سبيله.

كان حسن (الشوال) هو المسؤول عن تزويد (الحوش) بالماء من الدونكي (المضخة المائية) بواسطة (الخُرج). وكان شابا فكهاً ظريفاً يتميز بطاقة كبيرة، فهو لا يكلّ ولا يملّ ولا يعكر مزاجه إلا نادراً.

حدث ذات يوم أن أخذ حسن الشوال القدح وحده من داخل الحوش ليخرجه للضيوف. وهذا ليس بالأمر اليسير لأن هذه الأقداح لا يستطيع شخص واحد حملها. فكان غالباً ما يقوم عليها شخصان أو ثلاثة أو أربعة، ويحملون القدح من خرسه (ممسكه) وتسمع لأقدامهم رزّم (وقعٌ) على الأرض من ثقل المحمول.

ولما كان حسن الشوال يعاني قلة الإبصار، فقد رفع رجله من فوق شيء أمامه ليتخطاه، ولسوء حظه، كان ذلك الشيء حماراً. فنهض الحمار فجأة، وفي لحظة طاح حسن والقدح وسط صياح النساء وقهقهات الصغار وتساؤلات الكبار: ما الذي حدث؟!



الختان:

مناسبة الختان من المناسبات الكبيرة في الحوش حيث يجمع لها كل الأطفال الذين هم في سن الختان أي قبل سن السابعة حسب الأعراف آنذاك.

لم يكن الختان قصراً علي أبناء حوش الفكي جبريل القوني وحدهم، فقد كان الآباء الأفاضل (الفكي جبريل القوني والفكي صالح الطاهر والحاج دهب وحامد علي جودة وجبريل علي مرعي) - رحمهم الله جميعاً - يبحثون في داخل الحي أو الأحياء المجاورة أو حتى داخل المجلد عن أطفال - أيتام أو من آباء غير ميسوري الحال - في سن الختان ليتم ختانهم معنا فيخففون بذلك عن عوائلهم مؤنة ختان أطفالهم ومشقته، وقد كان هؤلاء الآباء يصنعون ذلك المعروف من منطلق ديني محض ولتوثيق عرى المحبة بينهم وبين آباء الأطفال الآخرين وتوثيق العرى فيما بيننا كأطفال.

وكانوا يختنون معنا حتى خدم البيوت أمثال دينج دناعة ودينج أم ضلالة (مع تشديد اللام) الذين أصبحوا بحق إخوة لنا، وعندما كبروا وتزوجوا أسموا أبناءهم علينا كأفضل ما تكون الأخوة بين إخوة يجمعهم دين واحد.

لذا كان عدد الأطفال كبيراً دائماً فربما بلغ العشرين أو أكثر. ولذلك كان الآباء يشيدون راكوبة (علية) خصوصاً بالمختونين يضعون فيها الأسرة ويلبسوننا جلاليب (جلابيب) دبلان وجزمة باتا سمك كما كان يقال لها. وأحياناً يؤتى بالخياطين بمكناتهم (السنجر) إلى الحوش ليقوموا بأخذ مقاييس المختونين وتفصيل الجلاليب وفقاً لذلك.

ثم يأتي المساعد الطبي مع فريقه ليقوم بواجبه المتمثل في ختان تلك الثلة من الأطفال في ذلك اليوم المحموم

وسط زغاريد الأمهات والأخوات وأمازيجهن المتكررة بأسماء الأطفال:
فلان كن (إذا) بكيت ما بغني ليك!!
فلان كن بكيت ما بغني ليك!!

وأحياناً يشترط ألا يختن الطفل إلا بعدما تعين له عروسة. فتتبرع إحدى الأمهات او الخالات أو العمات بأن فلاناً لفلانة، فترتفع الزغاريد لهذا العريس المرتقب - عريس الغفلة (المزنوق)!!!

بعد أن تنتهي هذه المهمة قرابة الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ويستلقي الأطفال المختونون في أسرتهم بعد تلك المجزرة المستملحة، تبدأ أقداح العصيدة تتوافد إلى الديوان لإطعام المدعوين وغيرهم (للغاشي والماشي). تصاحب هذه الأقداح كوريات (سلطانيات) الملاح (الأدام) المتنوعة: ملاح تقليَّة أو روب إلخ... بالإضافة إلى السمن البلدي الفائح الرائحة. ويعيش الحوش مهرجاناً رائعاً تتخلله ضحكات الأمهات والأخوات وقهقهات الإخوان والضيوف في الديوان التي تنمُّ عن سعادة وحبور وحمد لله على إتمام هذه المهمة لهذه المرحلة من العمر.

بعد ذلك يؤمر أحد الحراس بالجلوس أمام راكوبة (علية) المختونين ليتأكدوا من أن الأمهات لا يقدمن شيئاً خاصاً لأبنائهن وحرصاً منهم على أن يكون الطعام مشاعاً، لأن بيننا من لا أمّ له - سواء باليتم أو غير ذلك. تجمع صحون (أطباق) الطعام لكل وجبة ثم يقسم المختونون إلى مجموعات ليتناولوا الوجبة.

ومن طرائف هذه الوجبات كان الطفل آنذاك (عبد الرحمن عبد القادر محمد سليمان غندور) يرافق خاله أحمد صالح الطاهر - رحمه الله - الذي كان من ضمن المختونين في مجموعتنا. وعندما تقسم المجموعات ويطلب منهم النزول لتناول الوجبة يقول بعض المختونين المسؤولين (الشرهين):
للمطهرين فقط. للمطهرين فقط!
كان الطفل عبد الرحمن غندور لا يدري أن هذا يعني عدم نزول أمثاله مع المختونين لتناول الوجبة، ولكنه يظل يردد تلك المقولة وهو نازل مع المختونين من دون أن يدري ما معناها. فكنا نضحك لبراءته الجميلة!!

كنا نظل على ذلك الحال حيناً ثم نبدأ بالذهاب للغيار في الشفخانة، وهو مشوار نعاني فيه كثيراً من الألم. وبعد أيام يبرأ المختونون وينفضُّ سامرنا مع تلك الذكريات الحلوة.

وذات مرة حكى لنا أحد الإخوة الكبار أن أحد إخوتنا وكان من جيله عندما علم أن إخوته الأكبر منه سناً سيتم ختانهم في يوم محدد، طلب من الآباء أن يختن معهم، فرفض الآباء طلبه بحجة صغر سنه، فما كان منه إلا أن خرج من الحوش وجاءهم بعد دقائق وهو ينزف دماً. فقد قام بختن نفسه فألحقوه بإخوته الكبار!!



زراعة الحاجز:

الحاجز هو ضاحية من ضواحي المجلد بالقرب من اليافطة (اللافتة) التي تدل على الطريق القديم إلى البابنوسة (قبة أبو إسماعيل الولي)، حيث كانت - سابقاً - مزارع عائلة علي الجلة جد الناظر بابو نمر (ناظر عموم المسيرية) تجاور اليافطة.

كان عمنا الفكي هدي (أبو صفيرون) وعمنا مهاجر أديب وعمنا عبيد وعمتنا أم سياق وعمتنا عائشة (أم الدقل) يسكنون الحاجز، فيما كانت مزارعنا مزارع سابقة لأسرة الحاج أجبر والد عمنا الناظر سرير الحاج أجبر ناظر الفلايته (فخذ من المسيرية) بعد انتقال أسرتهم إلى رجل الفولة.

لحق بأعمامنا الذين يسكنون الحاجز، فيما بعد، عمنا حامد على جودة (حامد جليد) والفكي صالح الطاهر والوالد جبريل علي مرعي (أبو الدنمو) ويعقوب عبد الكريم حسين (مردو). كما لحقت بهم عمتنا مريم السيل (ريم الخلا) بنت متوكل الأبو (الخواجي) – زعيم قبيلة أولاد عمران - لفترة قصيرة، أحسب أنها كانت أيام الحصاد وبإيعاز من زوجها الفكي جبريل القوني. وكذلك فعلت زوجته الأخرى، عمتنا سعيدة بنت حامدين طه بقادي (آل بقادي سياد اللوح الماضي)، فصادف انضمامهما إلى المجموعة المذكورة، أيام الحصاد أيضاً، فعمر الحاجز بالسكان في المزارع التي يقرب بعضها من بعض.

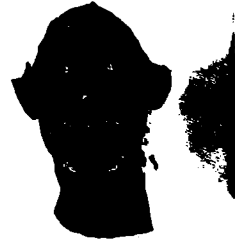
كنا نشد الرحال أنا وأخي محمود جبريل القوني (الكردي) كل صباح إلى المدرسة الأولية في المجلد وسط الحشائش التي تكاد تبتلعنا ونحن في تلك السن الصغيرة، فتبتل جلابيبنا من قطرات ندى الصباح، ما يجعلها تبدو وكأنها مصبوغة بلون (زهرة الغسيل) الأزرق من النصف الأعلى وخالية منه في النصف الأسفل. كنا

نمر بالقرب من منزل الفكي صالح الطاهر، حيث ينضم إلينا الأخ أحمد صالح الطاهر ونحن في طريقنا إلى المدرسة.

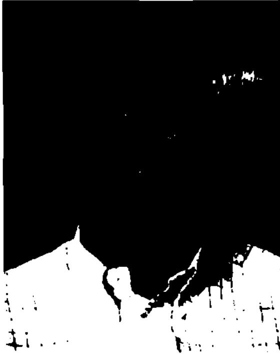
كان الفكي جبريل القوني والفكي هدى صغيرون والفكي صالح الطاهر من حفظة القرآن الكريم. وكان منزل عمنا الفكي هدى بالقرب من منزل الفكي صالح الطاهر، وكان الطريق يمر بالقرب من منزل عمنا الفكي هدى الذي يرعبنا كثيراً كلبه الجاسر المسمى (أب قور) الذي يندفع بقوة نحونا كلما مررنا بجوارهم، فتهب لنجدتنا عمتنا الفاضلة فاطمة (نارك) فنتنفس الصعداء.

وفي كثير من الأحيان كان يقودنا ونحن في طريق ذهابنا إلى المجلد أو العودة منها أخونا الأكبر علي حامد جودة وهو يعزف ألحان القوات المسلحة السودانية بصوته الجميل وخطواته المنتظمة، وقد انضم لاحقاً إلى القوات المسلحة السودانية.

في يوم من الأيام جهز لنا كبارنا خدعة أو كما يحلو لكثير من الناس تسميتها (مقلباً)، وذلك في المزرعة التي كنا نطلق عليها اسم (الزرع) حيث جاءوا بورل مقتول ففغروا فاه ووضعوه في الممشى الذي نسير عليه في المزرعة ثم أرسلونا، وكأنهم لا يعلمون عن أمره شيئاً، لنأتي بشيء من المزرعة عبر هذا الممشى. ففوجئنا بالورل على تلك الهيئة المخيفة فوصلهم صياحنا قبل أن نصل إليهم!!!


الوالد المرحوم جبريل علي مرعي


السيد سليمان جبريل علي مرعي


الأستاذ محمود جبريل القوني



قوة خارقة!

كان عمنا مهاجر أديب يتميز ببنية جميلة وقوة خارقة. وهو شقيق لأخوين هما علي أديب وعبد الرحمن أديب. فقد كان عمنا المذكور يلجأ أحياناً لحمل الحمار بمتاعه ويسير به في أثناء عودته من سوق المجلد، ما كان يثير الرعب في قلوب كثير من المارة في تلك الناحية ويجفلون عن الطريق وهم يحوقلون أو يقرءون الإخلاص والمعوذتين عند رؤيتهم ذلك المنظر المخيف أول الليل!!!

وكان العم مهاجر عندما يريد أن يبني علية (راكوبة) يقصد الغابة فيقطع الشجرة الكاملة من فوق المفترق الأول للفرعين ويحملها وحده إلى منزله، يحفر حفرة يصل عمقها إلى المتر تحت الأرض ومن ثم يضع هذه (الشعبة) ويوالي بعد ذلك وضع الشعب التي قد تصل إلى ست أو ثماني شعب بهذه الطريقة الفريدة التي تنم عن قوة جبارة.

قرر عمنا مهاجر أديب يوماً الانتقال إلى موقع آخر في الحاجز، فأهدى عليته لأحد أعمامنا الذي استأجر عدداً من العمال لإخراج الشعب الغائرة في الأرض، حيث عانوا الأمرين. فكان العشرة من العمال يخرجون بالكاد شعبة واحدة من مكانها. ولكنهم تخلوا عن هذا العمل الشاق آخر الأمر، فظلت الراكوبة (العلية) شامخة في مكانها تدل على عظمة بانيها وكأنها أثر من آثار النوبة!!!

يقول أحد إخوتنا الفصحاء بأن عمنا مهاجر أديب لو دخل الآن إحدى حلبات الملاكمة أو المصارعة لكان بطلا عالمياً بلا منازع. فلا يعلم الناس في المجلد أحداً استطاع أن يخلص معصمه من قبضة عمنا مهاجر أديب!!!

قرر عمنا مهاجر أديب الانتقال لاحقاً إلى حي الفكي جبريل القوني. ولما لم يجد مكاناً مناسباً لبناء منزله، قصد البوطة (غدير الماء) التي كانت في أول حي الفكي جبريل القوني فردمها تماماً وحولها إلى حديقة فواكه وشيد منزله في تلك البقعة، فكان ذلك العمل مثار استغراب أهالي المجلد قاطبة. فكيف يتسنى لأحد بمفرده أن يردم غدير ماء كامل؟!!

انتقل عمنا مهاجر أديب لاحقاً من حلة الفكي جبريل القوني إلى مسكنه الجديد بالقرب من مباني محطة السكة الحديد بالمجلد. وقد قرر أخونا محمد النذير (الدندور أبو عوة) أن يأخذ عمنا مهاجر إلى المستشفى المجلد أثر اصطدام ركبته، جراء خروجه في الليل على عجل، بأحد الأوتاد التي كان يربط فيها الأبقار والأغنام. ولك أن تتخيل كبر حجم الوتد الذي تورمت بسببه ركبة عمنا بدرجة ملحوظة أثارت مخاوف أخينا النذير.

كان عمنا مهاجر أديب يكره المستشفيات كعادة معظم ساكني الضواحي في تلك الأيام. وكان من المعتاد أن تجد شخصاً لم يذهب طوال حياته إلى مستشفى. والغريب في أمر عمنا مهاجر أديب أنه كان يميل طوال عمره إلى أكل الأرز مع الدجاج أو اللحم فقط، وهو ما يسمى في منطقة الخليج (بالكبسة) – أمر غريب أيضاً!!!

أتى أخونا محمد جبريل القوني (الآن الأمير محمد النذير أمير إمارة أولاد راشد «الزيود») بعدد من عتالة (حمالة) سوق المجلد، لعلمه بأن عمه مهاجر سيقاوم قراره الذهاب إلى المستشفى، وأوعز لهم (أي العتالة) بأن يتوزعوا حول السرير وكأنهم جاءوا لعيادته في مرضه، وعندما يشير إليهم بحمله يهبوا هبة رجل واحد فيحملونه إلى السيارة.

نفذ العتالة (الحمالة) وصية محمد وانتشروا حول السرير، ولكن عمنا مهاجر أديب شعر بالمخطط الذي لم يعجبه. وعندما همَّ العتالة بحمله أنزل رجله الأخرى المعافاة إلى الأرض، ويا للهول!!! إذ لم يستطع العتالة تحريك السرير قيد أنملة. نظر بعضهم تحت السرير ليرى أن كان السرير مثبتاً على الأرض أم ماذا؟!!. فيا لهذه القوة العجيبة!!!

قام ابن أخت عمنا مهاجر أديب يوماً بحمل الحمار بيديه إلى وسط البوطة (غدير الماء) ثم عاد تاركاً الحمار، فأدرك عمنا مهاجر أن ابن أخته يتحداه، فدخل إلى البوطة، وأدخل يده تحت بطن الحمار وحمله بيد واحدة وخرج به وسط ذهول الناس!!!



علاج ناجع:

كان أخي حسين (الحتة أم قرشين) ممن تأخروا في المشي وهو طفل صغير. وقد رماه حظه العاثر يوماً في طريق أحد أخواله الذي كان في زيارة عابرة للحوش أيام سوق الخميس في المجلد، فسأل خاله والدته عن سبب تأخره في المشي وهو بتلك الفصاحة! ويبدو أن خاله لم يقتنع بالأسباب، فأخرج موساً بقارياً. وعندما نقول موساً بقارياً فنحن إنما نعني بذلك أنه موس ليس كالأمواس الحالية، فهو كبير وحاد كالنصل كما يقول الأمريكيون (razor sharp). أعمل خاله الموسى في وركيه بلا هوادة وسط صياح الحسين وضرب عرض الحائط بكل احتياطات السلامة والتعقيم والنظافة. ولحسن الحظ ما انقضت أيام إلا وكان الحسين واقفا على قدمين ثابتتين يسابق أقرانه!!!

لكن هذا العلاج أفقدنا إحدى الصغيرات اليافعات الجميلات. فقد عمد أحد أخوال الأخ أحمد صالح الطاهر -رحمه الله - إلى تقطيع بطن المرحومة ابنة أخته – بنت عبد القادر محمد سليمان غندور !!!



الحركة السياسية:

كانت فترة منتصف الخمسينيات من القرن العشرين فترة حركة سياسية نشطة، حيث زار الزعيم إسماعيل الأزهري المجلد عام ١٩٥٦م وأقام ليلة سياسية كبرى احتشد الناس لها رغم أن المنطقة كانت منطقة أنصار (جماعة المهدي: أي حزب الأمة). وكان أعمامنا الأفاضل من التجار (الجلابة) هم الأكثر حفاوة بزيارة الزعيم إسماعيل الأزهري.

كانت المرة الأولى التي نسمع فيها ميكرفونات بتلك الكثرة ونشاهد الإضاءة الكثيفة بالرتاين (مصابيح كبيرة الحجم تعمل بالكيروسين). وأذكر أننا جفلنا وتسارعنا إلى الحوش ركضاً عندما دوَّت الأكف بالتصفيق للزعيم الأزهري وكنا في طريقنا إلى الحوش في أول المساء. فقد أرعبنا التصفيق الذي فاجأنا بتلك القوة.


الأستاذ المرحوم عبدالرحمن صالح الطاهر

كان الناظر بابو نمر، ومهدي الرفاعي (البرعص أي الأسد) أبو الرفاعي (ننو)، و(مريدة أندالو) من أوائل البرلمانيين . ثم لحق بهم الناظر على نمر وعبد الرحمن صالح الطاهر وأحمد عمر سدرين (صدرين) في النصف الثاني من الستينيات من القرن الماضي. كما ترشح الفكي جبريل القوني لمجلس الشيوخ في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين.

ترشح ابن خالي الأستاذ الأديب المفوه عبد الرحمن صالح الطاهر - رحمه الله - في دائرة الفلايتة في النصف الأخير من ثمانينيات القرن العشرين، فأمرنا كبارنا آنذاك بتغطية الدائرة ودعمه في الانتخابات.

كانت الدائرة تمتد من (أم قرناً جاك) في دار حمر إلى عجاج وكواك والمانتيك وبار وبربوج ونامه والقاعة وكيلك (أم زقاف) وبحر العرب ثم إلى أرض المسيرية الزرق إلى لقاوه ودبة عبيد والزليط وأبو دموع وتبارك الله وجنقاروا الطوال والقصار والقني، إلخ.

بدأنا من (أم قرناً جاك) في دار حمر وكان علينا أن نكون في اليوم التالي في (أم مانتيك). فسرينا الليل ودخلنا (التردة) في ساعة متأخرة من الليل. ونزلنا ضيوفاً على جدنا عميد آل بقادي العمدة آدم يوسف – رحمه الله – ذلك المقاتل الجسور الذي شارك في معركة كرري وراس المية (المائة) في جيش الخليفة وأحد أعضاء مجلس الخليفة ومستشاريه. وهو أحد مراجع الطيار زلفو الذي سعى إليه في بحر العرب وكتب سفره العسكري معركة (كرري).

وجدنا ذلك الشيخ الورع جالسا أمام النار يسبح لله في ذلك الليل البهيم. وعلى الرغم من ضعف بصره إلا أنه تعرف علينا بأصواتنا فدعانا فرداً فرداً بأسمائنا. وأمر ابنه أن يذبح لنا في ذلك الليل فرفضنا بحجة أن الليل قد انقضى جله وأوشك الفجر على البواح، ولكنه أصرّ فرضخنا لأمر الشيخ المهيب.

جلس عمنا حمدي (حقار أبوقرشين) وصالح الدقل (كحل الشيخات) ومعهم أحمد صالح الطاهر (ماج الطير) – رحمهم الله جميعاً – وشبعوا من اللحم. ونام بعضنا من شدة الإرهاق.
وحين أشرقت الشمس كان ثلاثتهم في نواح بعيدة عنا. فقد فعل فيهم اللحم فعلته ومارت بطونهم وأصابهم إسهال شديد.

واصلنا سفرنا عند الصباح إلى موقع الاقتراع. وبعد الاقتراع استضافنا نفر من أعمامنا عيال بقادي (سياد اللوح الماضي) وصبوا لنا شاي سليقة (أي شاي «كوبيه» كما يقول المصريون ومن دون سكر). رشفت وأخي أحمد صالح الرشفة الأولى ثم نظر كلٌ إلى الآخر وفي عينينا تساؤل: ماذا نفعل بالباقي؟

وأخيراً اهتدينا إلى وسيلة بارعة حيث قمنا بدلق الشاي في شقوق أرض بحر العرب الطينية وتنفسنا الصعداء.

الفصل الثاني
المدرسة الأميرية الوسطى



الفصل الثاني
المدرسة الأميرية الوسطى

مقدمة:

كان المستعمر الإنجليزي يركز على تعليم أبناء الإدارة الأهلية لمساعدته في إدارة حكم البلاد. ولم يكن التعليم متاحاً للسواد الأعظم من الناس. في منطقة المسيرية على وجه الخصوص، تمكن السيد أبو جبر الحاج أجبر من مواصلة التعليم إلى كلية غردون التذكارية. وأبو جبر هو شقيق الناظر سرير الحاج أجبر ناظر الفلايتة. فكان أول من تعلم تعليماً عصرياً في المنطقة بأكملها وتقلد مناصب رفيعة في الدولة.

في أوائل الخمسينيات شاهدنا شابين يستذكران دروسهما حتى الصباح مع أساتذتنا في مدرسة المجلد الغربية، وقد علمنا فيما بعد أنهما الدكتور بشير إبراهيم مختار والدكتور خليفة عبد الرحيم حيث كانا يستعدان لامتحان الشهادة الثانوية السودانية. فكانا بذلك أول طبيبين من المجلد يتخرجان من كلية طب جامعة الخرطوم. وكانا بداية القطر الذي - لا أقول انهمر ولكن - بدأ يرش أرض المسيرية فكان رشاشاً جميلاً لوَّن المنطقة بمختلف الخريجين.



السفر إلى رجل الفولة:

في نهاية العام كان علينا أن نسافر أيضاً - بعد السفر إلى النهود واستخراج شهادة الميلاد عن طريق التسنين - إلى (رجل الفولة) حيث المدرسة الأميرية الوسطى التي بنيت حديثا في منطقتنا كلها. كانت ثمانية عشرة (١٨) مدرسة تمتحن لدخول هذه المدرسة الوسطى ويقبل من هذا العدد الكبير أربعون (٤٠) طالباً فقط.

أنشئت مدينة (رجل الفولة) في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين بعد احتجاج المسيرية الزرق الذي قدم للمستر (مايكل تبس) على بُعد مركز المجلد عنهم، وعلى اثر ذلك الاحتجاج بحث المستر تبس مع السير بابو نمر، ناظر عموم المسيرية، عن بديل للمجلد. فوقع الاختيار على (رجل الفولة) التي كانت قرية صغيرة تقطنها مجموعة من قبيلة (الفلايتة) ومجموعات من قبائل الداجو، وقبيلة تسمى (الكجاكسة) والتي كانت تشنف آذاننا بطبولها في العصريات وبعض الجلابة والخواجة الإغريقي (ديمتري) الذي يبيع الأجبان والزيتون والمسكرات.

هذا تعني كلمة (رجل) رافداً صغيراً من الماء و(الفولة) هي غدير الماء الراكد. وقد درجت العرب في تلك المنطقة على أن يسموا (الجرف) و(الرقبة الزرقاء) وكلها روافد مائية لبحر العرب.

وبعد إنشاء المركز ومساكن كبار الموظفين ومساكن الشرطة (القشلاق) تم إنشاء مستشفى رجل الفولة ومدرسة الفولة الأميرية الوسطى، فنهضت حركة العمران وانتعشت التجارة وخصوصاً بعد إنشاء محطة السكة حديد. وكانت رجل الفولة موقعاً وسطاً بين المسيرية الحمر (في المجلد) والمسيرية الزرق (في لقاوة).

كان دخول مدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى معركة شعواء، نستخدم فيها كل الأسلحة المسموح بها والمحرمة،

ولكن في النهاية تعود مدارس بأكملها من دون أن يقبل منها فرد على أن تكرر هذه المدارس التجربة في العام التالي، فيعود التلاميذ ليس بخفي حنين فقط ولكن بعد أن يكونوا شبعوا عدساً وفولاً.

كنا الدفعة الخامسة في تاريخ إنشاء هذه المدرسة. وكانت الحجارة التي بنيت بها هذه المدرسة مبعثرة في كل مكان. وقد تأذينا منها كثيراً وتسببت في خلع أظافر أقدامنا عندما كنا نتعثر بها.

وكان مما يجازى به المتأخرون في العودة من العطلة الصيفية أن ينظفوا المدرسة من هذه الحجارة الحمراء التي طالما لونت جلابيبنا بلونها وزاد عليها عمنا (حامدين تقل) و(خميس ريفا) بإضافة آثار خضراء جراء ضربنا بالمطارق(أغصان الأشجار). فقد كان عمنا (حامدين تقل) يضع كرسياً أمام فصلنا استعداداً لتنفيذ أمر الناظرأحمد شرف الدين (أبو رعد وحمرور) بالضرب حسب العدد المطلوب من الجلدات.

كانت حصة الرياضيات بعبعاً نخشاه ويرعبنا كثيراً، فقد كان الناظر أحمد شرف الدين - رحمه الله - يمر بين الأدراج (طاولات الطلاب) مردداً كم يساوي حاصل ضرب ١٧×١٨؟ أنت، أنت، أنت، أنت؟ فإن لم يجبه أحدهم فوراً خرج الأربعة لعمنا (حامدين تقل) لينال كل واحد منهم عشر جلدات بتلك المطارق (العصي) التي تترك أثرها الأخضر - الذي لا ينمحي - على جلابيب قماش الدبلان والبفتة والدمورية.

كنا نلجأ لحيل شتى لتخفيف الجلد، فقد يكون نصيبك من حصة الناظر خمسين جلدة أو مائة جلدة تقسط عليك أقساطاً تدفعها يومياً حتى تنتهي. كنا نلجأ لوضع بعض الخيش تحت سراويلنا وأرديتنا (سراويل الكاكي القصيرة). ولجأ البعض الآخر إلى تصميم قطع من الإطار الداخلي للسيارة ليضعها تحت الأردية. إلا أن هذه الحيل لم تكن مجدية فافتضح أمر هؤلاء المتحايلين وزيد لهم عدد الجلدات.

بحث أحد زملائنا يوماً عن شيء يضعه تحت الرداء ولم يجد غير (الخيشة) التي كنا نصلى عليها. فوضعها، ولسوء حظه كان طرف من الخيشة يتدلى منه وهو لا يدري. فرآه الناظر فكان نصيبه شلوتاً (ركلة) رمى به إلى خارج الفصل وتم نزع الخيشة الطويلة من صلبه.

كذلك كان الناظر أحمد شرف الدين - رحمه الله - يلجأ لعصر أثدائنا عصراً مؤلماً ونحن في سن المراهقة حيث ينمو الثدي نسبياً. فنصير أطول منه ونحن نسمو فوقه من شدة الألم الذي يلحق بنا.

كانت حصة الرياضيات وحصة التهجئة الإنجليزية (سبلنق spelling) من أصعب الحصص علينا. فالغلطة في التهجئة الإنجليزية بعشر جلدات. تجمع حصادك في آخر الحصة وتبدأ في سداد أقساطك يومياً.

ومما كان يثير عجبنا صبر أخينا الأمين (الحمري) الذي لا يحرك ساكناً للضرب ولا يجزع - منتهى الشجاعة

والاحتمال. علمنا فيما بعد أن الجلد من سمات الأفراح عند قبيلة الحمر (بفتح الحاء) وأن الأمين كان حريصاً على الحفاظ على موروثة الاجتماعي. أما بعض الإخوة فحدث ولا حرج. تشنف أذنيك أنواع وأشكال من البكاء والصراخ!!!

في هذا المجال أذكر أخانا (حمدان محمود) الذي كان أسطوريا في أشياء كثيرة. ويقال إنه في صغره تاه في البادية فأصبح أشبه ببطل القصة الهندية (ماوكلي). كان يخرج للمزارع البعيدة عن المدرسة في منتصف الليل ويأتي ببطيخ منها. ويبدو أن الخوف لا مكان له في قلبه أبدا! وانتهى به المطاف جنديا من جنود القوات المسلحة.

ومن نوادر حمدان أنه كان يركب فوق تندة (كابينة) سائق الشاحنة مباشرة التي كانت قادمة من لقاوة إلى رجل الفولة ففاجأهم فرع من فروع الأشجار المحاذية للطريق فسقط بعضهم في صندوق الشاحنة وأذهلت المفاجأة آخرين مما أثار ضحكات الركاب الآخرين، فعدّها حمدان فضيحة وقرر قائلاً بلهجة بقارية: (ظم البزوغ من فرع بعد ده إلى الفولة)؛ أي (ظمئت أم من يروغ من فروع الأشجار كل الطريق إلى رجل الفولة). وكان نصيبه ضربات متوالية من الفروع والشوك حتى وصل رجل الفولة منتفخ الرأس ورماً من الكدمات! فقد أبرَّ بقسمه ولكن كانت النتيجة مذهلة للطبيب الذي فحصه إذ لم يصدق عينيه!!

ومما يزيد الطين بلة أننا نأتي من مناطق متخلفة وفي أذهاننا أفكار مسبقة عن بعض القبائل احتقاراً واستهجاناً، فتبدأ المعارك القبلية بين أولاد القبيلة الفلانية والقبيلة الفلانية. ويستبطل كبار الأحجام والشجعان فيضيع الصغار عموماً.

وكمثال للمدن التي يمتحن أبناؤها لمدرسة الفولة الأميرية الوسطى: المجلد ولقاوة والبحير وراس الفيل والأضية والنهود والأبيض والتبون وبابنوسة وأبيي والفولة نفسها إلخ.. وفي بعض هذه المدن مدرستان أو ذات رأسين، كما يقولون.

كانت الرحلة من المجلد إلى رجل الفولة رحلة شائقة، فقد كنا نمر على بابنوسة التي كانت تسمى (قبة أبو إسماعيل) وكانت آنذاك قرية صغيرة يتكون سوقها من مستطيل ناقص الضلع يطل على غدير ماء صغير أمامه بالقرب من قبة الشيخ (الولي). وكان هناك عدد قليل من المطاعم – إن جازت التسمية – مواجهة لهذا الغدير. وفي هذه المطاعم البدائية كنا نتوق لأكل ملاح (إدام) لحمة بالصلصة. سبحان الله! فقد كنا كمن يأكل كافيار!!



الداخليات:

كانت بالمدرسة أربع داخليات هي: أبو قرون وعلي الجلة ودودي وأبو عنجة. فداخلية أبو قرون (مسماة على أحد أجداد المسيرية الذين تولوا قيادتهم إلى دينقه أم الديار (المجلد) مع حمدان أبو هزله وغيرهم وهو الفكي (الفقيه) على أبو قرون المدفون في جنوب بحر العرب في المنطقة المعروفة باسم (أبو نفيسة) وهي كنيته). ثم داخلية علي الجلة (وهو جد الناظر بابو نمر وأحد المقاتلين الأشاوس في معركة كرري آخر أكبر معارك المهدية). وداخلية دودي (مع إمالة الياء الأخيرة وهي الطريقة الشامية التي ينطق بها عرب البقارة للحرف الأخير). ودودي هو جد المسيرية الزرق.

ومما يجدر بالذكر أن العرب اعتادت أن تنده (تستغيث) بأحد أجدادها عند الكرب، وهو أمر من الأمور المحرمة شرعاً. فكانت المسيرية الحمر (تنده) جدها علي أبو قرون، فيقول الأعرابي منهم باستغراب: يادودي!! إذا كان من المسيرية الزرق، يا علي!! إذا كان من المسيرية الحمر. كما تفعل بعض قبائل الشام وسورية وبعض عرب جهينة في تشاد، وغيرها إذ تنادي «يا محمد»!! وأخيراً داخلية أبي عنجة (وهو أحد كبار قادة دولة المهدية).

كانت كل داخلية تتكون من أربعة أجنحة: جناحين كبيرين في الوسط وجناح أصغر قليلاً في كل طرف. وتفرش الأسرة الحديدية بالمراتب المحشية قطناً وعليها البطاطين الحكومية (الميري) الرمادية المائلة إلى السواد وكانت تصرف لجنود الحرب العالمية الثانية.

كانت هناك أحواض من الزهور أمام كل داخلية تكسبها جمالاً ورونقاً خاصاً. وكان علينا أن نسقي هذه الأحواض بجرادل (سطول) الماء، يومياً حسب الجدول الموضوع. وبلا شك فقد كانت تلك الأعمال التي كنا نقوم بها

بداية للتربية على تحمل المسؤولية وحب النظافة ونحن في تلك السن الصغيرة، فكان علينا قبل المغادرة إلى الفصول أن نرتب أسرّتنا. فنشأ أغلبنا محباً للنظافة والنظام مقدراً المسؤولية.

كانت نقلة المدرسة المتوسطة نقلة حضارية كبيرة، لأننا كنا نأكل الخبز في جميع الوجبات. هذا بالإضافة إلى العدس والفول في الفطور. وكانت تلك من الأطعمة الشهية. فمعظمنا كان يأكل العصيدة ثلاث مرات يومياً.



طموح مشروع:

كان أحد زملائنا ممن كانوا يذكّرون المؤنث ويؤنثون المذكر عند قدومهم إلى المدرسة لأول مرة، طموحاً جداً، وكان يحاول أن يثبت ذاته في كل الميادين. فرأى يوماً زميله الأعرج الذي كان يستعين على المشي بعكاز ويلعب كرة القدم بمهارة لا تصدق، مستعيناً بالعكاز أيضاً، فقرر تحديه بالقفز من فوق سور المدرسة الشائك. وكان سبب تحديه هو استخفافه بزميله الأعرج الذي كان رياضياً بارعاً، وكان يتميز عنه في لعب كرة القدم على الرغم من أنه يملك رجلين سليمتين.

ابتعد الزميلان عن السور الشائك قليلاً ثم اندفعا تجاهه. فقفز الأعرج السور بسهولة لا تصدق مستخدماً عكازه. أما زميلنا الطموح، فقد قفز السور ولكن يبدو أن القفزة لم تكن عالية بما يكفي، فعلق سرواله بالسور الشائك فاتجهت رجلاه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل وسط قهقهات التلاميذ الذين هبوا لنجدته وتخليصه من السور الشائك!!!

لم تكن تلك المحاولة الأولى التي حاول فيها زميلنا الطموح إثبات ذاته، فقد تحدى أحد الزملاء في المصارعة، ويبدو أيضاً أن تحديه كان نابعاً من استخفافه ببنية زميله رغم أنهما كانا من الوزن نفسه، كما يقال في الملاكمة. وفي لمح البصر صرعه زميله، وتركه يتلوى من الألم على الأرض وسط ذهول التلاميذ واستغرابهم.!!!

الجدير بالذكر أن زميلنا الطموح صار فيما بعد شاعراً وقاضياً ومحامياً ووزيراً لامعاً. وأصبح زميله الذي صرعه أستاذاً جامعياً مرموقاً بجامعة الخرطوم وعميداً لكلية البيطرة.



أول إضراب:

ذات يوم قررنا الإضراب عن الطعام، سبحان الله!!! هكذا دفعة واحدة، فقد تغيرت الأمور من حال إلى حال. وفي الحقيقة لم نكن نحن الذين قررنا الإضراب عن الطعام، ولكن التلاميذ الكبار أمثال (حسن عورة) و(علي زكريا) وغيرهما هم الذين كانوا يستطيعون الكلام نيابة عنا، ومع هذا فقد أمرونا بالإضراب عن الطعام والسبب: لماذا نغسل الطاسات والأطباق التي نأكل فيها؟ فنحن لسنا نساء حتى نغسل الأطباق؟!

كان ذلك أول إضراب في حياتنا، بعد أن منعت إدارة المدرسة الطعام عمن لا يغسل طبقه. فعانينا الأمرين من الجوع. وكان الطباخان (عم بربش)، بضم الباءين، وعم (ضوالبيت) يحاولان ثني الطلبة عن الإضراب ولكن لا حياة لمن تنادي.

لقد نفذنا تعليمات الكبار منا، ما دعا الأستاذ (قادم أفندي) لدفع أحد الطلبة إلى داخل حوض الغسيل حيث الأواني مصرّاً على أن يغسل الأطباق رغم إصرار زميلنا على العصيان وملاحقة قادم أفندي له بالضرب. وكان قادم أفندي - أستاذ اللغة الإنجليزية - يأمر زميلنا بالإنجليزية قائلاً:

- Wash the dish. Wash it. (أغسل الطبق. أغلسه) فيرد عليه زميلنا:
- I can`t (لا أستطيع) فيغضب جابر أفندي ويقول:
- أنا علمتك كده؟ (أي أن استخدام النفي can`t بهذه الطريقة ليس في موضعه).

الجدير بالذكر أن ذلك الطالب الذي رفض غسل الصحون أصبح فيما بعد أستاذاً جامعياً مرموقاً.

وعند العصر رأينا بعضهم يجلس على نافذة السفرة طاوياً من الجوع يطالع ما بداخلها، حتى تدخل كبار البلد ولم نعلم حينها على ماذا تم الاتفاق معهم، ولكن ما نعلمه جيداً أن روائح الأطعمة الشهية قد عادت مجدداً، وانتهى الإضراب وفتحت السفرة أبوابها. لقد عدنا مرة ثانية إلى السفرة. وما أحلى الرجوع إليها!!



البلهارسيا :

عند الساعة الثانية عشرة ظهراً غادرنا المدرسة في صف (طابور) طويل إلى مستشفى رجل الفولة. وكان الممرض (عمك ليّس) - بتشديد الياء - مشغولا بحقننا حقنة يسكب ما بداخلها تدريجياً في الوريد إلى أن تبدأ بالكحة فيخرجها. كانت تلك هي حقن البلهارسيا المنتشرة في المنطقة بأكملها. كان وباء تعيساً لم يسلم منه إلا القليل.

داومنا على ذلك الحال قرابة الواحد والعشرين يوماً. الغريب أن هذا الوباء لم يكن معروفاً في تلك المنطقة رغم وجود برك الماء والغدران الكثيرة. ويبدو أن المجموعات التي كانت تأتي من دارفور وتعمل في مشروع الجزيرة في مواسم الزراعة والحصاد مارة بهذه المنطقة تأتي بهذا الداء اللعين من الجزيرة المروية، والذي تسلل إلينا عن طريق سباحتنا في تلك البرك والغدران.



الصيام:

رفضت المدرسة أن تدرجنا ضمن لائحة الصائمين في شهر رمضان المبارك بحجة أننا صغار. وقد فاجأنا هذا القرار، فنحن نصوم عند أهلنا كل رمضان، لهذا قررنا أن نواصل الصيام سواء وافقت الإدارة أم لم توافق.

كانت الإدارة محقة في قرارها، فنحن لم نبلغ بعد مبلغ الرجال وهي معنية بالبالغين من التلاميذ فقط. كنا نذهب إلى السوق ونشتري التمر وننقعه في الماء حتى موعد الإفطار، ثم نستعين بزادنا الذي كانت أمهاتنا تعبئه في علب الصفيح التي يصنعها (السمكرجية) المحليون ويوضع عليها قفل. وتحتوي صفيحة الزوادة (الزاد) على الآبري (رقائق الكسرة اليابسة) الأبيض والأحمر والفول السوداني المسحوق والمدمس والكعك والتمر وخميس طويرة - نوع من الكسرة - وأنواع أخرى.

كنا نسطو أحياناً على (صفائح زاد) الآخرين كنوع من المغامرات المثيرة مع تشابه محتوياتها ونستمتع بالأكل منها رغم غضب المعتدى على زاده عندما يكتشف الأمر.

كنا نجلس أمام الداخلية في حلقات للفطور في حين يذهب الطلاب الصائمون رسمياً إلى السفرة حيث تجهز لهم وجبة الإفطار. وهكذا نكمل صوم شهر رمضان المبارك ونحن فرحون بهذا الإنجاز الذي ينمُّ عن رجولة: فقد كانت نظرتنا لفاطري هذا الشهر المبارك نظرة فيها كثير من الاحتقار لهم واتهامهم بعدم الرجولة.



الغابـة:

كانت الغابة المجاورة للمدرسة من الجهة الشمالية - وأحياناً الجبل في الجهة الشمالية الغربية بعد محطة السكة حديد - هما مقصدنا في أوقات العصر لحفظ القصائد المدرسية الجميلة مثل قصيدة شوقي في أبي الهول:

أبـا الـهـول طـال عليك العُصُر | وبُلّغت في الأرضِ أقصى العمر
فيـالـدة الـدهـر لا الـدهـر شبّ | ولا أنـت جـاوزت حـد الصغـر
تـسـافـر منـتـقـلا فـي الـقـرون | فـإيـان تلقـي غبـار السفر
أبـيـنـك عـهـد وبـيـن الـجـبـال | تـزولان فـي الـموعـد المنتظر
وشـكـوى لـبـيـد لـطـول الـحـيـاة | ولـو لـم تـطـل لتشكـى القصـر

وقصيدة زحلة:

يا جارة الوادي طربت وعادني … ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت في الذكرى هواك وفي الكرى … والذكريات صدى السنين الحاكي
ولقد مررت على الرياض بربوة … غَنّاء كنت حيالها ألقاك
ضحكت إلي وجوهها وعيونها … ووجدت في أنفاسها رياك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى … حتى ترفق ساعدي فطواك

وقصيدة أبي الطيب المتنبي في الأسد:

ورد إذا ورد البحيرة شارباً … ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس … في غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه إلا ظنتا … تحت الدجى نار الفريق حلولا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه … فكأنه آس يجس عليلا

وقصيدته في الحمى:

وزائرتي كأن بها حياءً … فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا … فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها … فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني … كأنا عاكفان على حرام
أبنت الدهر عندي كل بنت … فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحا لم يبق فيه … مكان للسيوف ولا السهام

وقصيدة إيليا أبو ماضي:

أيها المشتكي وما بك داءٌ — كيف تغدو إذا غدوت عليلا
إن شر الجناة في الأرض نفس — تتوخى قبل الرحيل رحيلا
فترى الشوك في الورود وتعمى — أن ترى فوقها الندى إكليلا
هو عبء على الحياة ثقيل — من يظن الحياة عبئاً ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال — لا يرى في الوجود شيئاً جميلا
أدركت كنهها طيور الروابي — فمن العار أن تظل جهولا
ما تراها والحقل ملك سواها — اتخذت منه مسكناً ومقيلا
أيها المشتكي وما بك داء — كن جميلا ترى الوجود جميلا

ألا نضر الله وجوه أولئك المربين البررة الذين صاغوا حياتنا جمالاً وحباً. فقد كان المنهج الدراسي يبعث على الحياة والجمال، ونحن في بداية المراهقة، فقد كان الحفظ متعة لا حد لها، لذا كنت ترانا منتشرين في الغابة كل يغني على ليلاه في الحفظ فيما يعمد بعضنا لحفظ التهجئة الإنجليزية، فقد كان أساتذتنا عبد الساتر البدوي وعبد المجيد خليفة خوجلي وقادم جابر ضي النور ومن بعدهم الأستاذ هارون محمود الأمير (حفيد الأمير محمود ود أحمد) قمة في اللغة الإنجليزية حيث رسخوا فينا النطق الصحيح وزانوا المنهج الدراسي بأسلوبهم الفذ فجزاهم الله عنا خير الجزاء.



ومما كان ويبدو لنا ونحن في تلك السن أن الأمور لا تطيب إلا بالعراك من حين إلى آخر بين الأقران، لذا فقد اتخذنا الغابة مكاناً للتعارك فيما بيننا، فيما اتخذها آخرون لتعلم شرب الدخان، في حين كان يجوبها بعض الحالمين والرومانسيين والمحبين وهم في تلك السن نزهة واستئناساً.

وكان من ضمن أساتذتنا الأستاذ أحمد عمر عبيد الله (أردب) والأستاذ محمود شلال (الذي جاء معه أخوه موسى شلال من الأبيض) والأستاذ عبد الساتر البدوي والأستاذ محمد الحسن والأستاذ عبد المجيد خليفة خوجلي والأستاذ محمد الهادي (المسولع) والأستاذ قادم جابر ضي النور والأستاذ هارون محمود الأمير (حفيد الأمير محمود ود أحمد) والأستاذ صالح مكين والأستاذ إبراهيم غبوش والأستاذ أندل نوبة كنجل والأستاذ

إبراهيم عبد الجليل والأستاذ العطبراوي وغيرهم بقيادة الناظر أحمد شرف الدين والناظر شيخ الدين جبريل ويمثل كل هؤلاء الباقة التي فاح أريجها بيننا عبر السنين، فجزاهم الله عنا خير الجزاء وبارك في نسلهم ورحم الله رحمة واسعة من انتقل منهم إلى جوار ربه وأمد في عمر من بقي منهم على قيد الحياة.

هذا ومن غرائب الأشياء أن بعض الطلاب حين قدموا إلى مدرسة الفولة الوسطى، كانوا من غير الناطقين بالعربية، حيث كانوا يؤنثون المذكر ويذكرون المؤنث. إلا أنهم بعد ذلك أتقنوا العربية حديثاً وكتابة، وأصبح بعضهم شعراء وقادة سياسيين ووزراء واستقامت ألسنتهم بلغة عربية مبينة.

ومن أشهر خريجي مدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى الدكتور بابو فضل الله محمد دفع الله، والوزير المحامي دلدوم ختيم أشقر، والدكتور آدم أحمد على بقادي، والأستاذ القوني جبريل القوني، والأستاذ حسين جبريل القوني، والأستاذ علي جماع عبد الله، والأستاذ مكرم عيدو جورج، والأستاذ نبيل عيدو جورج، والأستاذ كامل بابو نمر والدكتور عبد الباسط سعيد، والدكتور عاصم بابو نمر والدكتور عبد الله عبد الكريم جبريل، والدكتور عبد الله جمعة فروة، والأستاذ خميس جمعة فروة، والبروفسيرمحمد عبد الله تبن، والأستاذ محمد إبراهيم متبر، والأستاذ عيسى إدريس يعقوب، والأستاذ أحمد حسين دود، والأستاذ يحى أحمد كريشة، والأستاذ بشير أبو ديك، والأستاذ أبو القاسم أبو ديك، والأستاذ نواي جبير نواي، والأستاذ الظاهر خليل، والدكتور علي إبراهيم الضو، والأستاذ محمد الحسن جودات، والأستاذ حماد جودات، والأستاذ كوكو شمباري، والأستاذ أحمد كوكو، والأستاذ عبد الله الحريكة شطة، والأستاذ حميدة مسعود، والأستاذ الحاج مسعود، والدكتور دفيعة عوض، والدكتور الحريكة كوكو قدوم، والأستاذ خميس كوكو قدوم، والأستاذ علي خميس، والأستاذ علي زكريا، والأستاذ حسن عورة، والأستاذ جبرالله محمد خير، والأستاذ صبير محمد جماع، والأستاذ محمد حسن جحا، والأستاذ الفاضل حرقاص، والأستاذ أحمد كبيرة، والأستاذ علي حميدة منصور، والأستاذ محمد آدم بلايل، والأستاذ آدم محمد سالم، والأستاذ عبد الرحمن محمد مدني، والدكتور جبريل يونس، والدكتور جلال يوسف الدقير، والأديب والشاعر فضيلي جماع، واللواء معاش نصر الدين حماد واللواء آدم سعد، واللواء محمد حماد، واللواء طيار معاش إبراهيم البشرى، والسياسي عبد الرسول النور، والدكتور حسن حماد، واللواء طبيب شرطة الطاهر أحمد عمر بقادي، والمناضل الراحل يوسف كوة وغيرهم، على سبيل المثال لا الحصر. رحم الله من مات منهم رحمة واسعة وأطال في عمر من بقي منهم.



زيارات من خارج المنطقة:

شرفنا في أحد الأيام في أوائل الستينيات من القرن العشرين - أيام حكومة الفريق عبود - الداعية النشط الشيخ طنون وقدم لنا محاضرة عظيمة - عظم الله أجره - حيث فتح عيوننا على بعض أمور الدين ومنحنا مصاحف لأول مرة فرشت دروبنا طمأنينة وإيماناً. وكان برفقة ذلك الداعية الفذ الشيخ صديق أحمد حمدون القارئ الرخيم الصوت - رحمه الله - الذي شنف آذاننا بآيات من الذكر الحكيم.

كما زارنا الفنان بادي محمد الطيب - رحمه الله - حيث جاء آنذاك مع فرق (استثمار الأراضي) التي يسميها الأعراب (استعمار الأراضي). فقد كانت مهمتها حفر الآبار (الدوانكي) في أنحاء السودان المتعددة. وقد أطربنا (بادي) ونحن في تلك السن الغضة وفتح عيوننا على قبيلة الفنانين.

الفصل الثالث
طرائف المدرسة الأميرية الوسطى



الفصل الثالث
طرائف المدرسة الأميرية الوسطى

الضببَ :

يحكى أن أحد أفراد الدفعة التاسعة - في مدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى - أقدم على حرق المسجد المبني من القصب والقش. وكان ذلك الفعل فعلاً مستغرباً ومستهجنا من طالب في المدرسة الوسطى. ولكن كما يقولون: " إذا عرف السبب بطل العجب".

كان الناظر من النوع الحريص جداً على أداء الصلوات جماعة مع الطلاب في كل الأوقات وبخصوصاً صلاة الفجر، فقد كان يوقظ الطلاب لأدائها كل يوم فرداً فرداً. ولقد سئم الطلاب - وخصوصاً وهم في تلك السن الصغيرة - من الصحو مبكراً لصلاة الفجر والمشقة التي ترافق أحدهم من بحث عن الماء ودورات المياه السيئة التي كانت آنذاك لا تعدو كونها جردلاً (سطلاً) يوضع من خلال فتحة خارج المبنى تحت دكة (مسطبة) يجلس عليها التلاميذ. فقد كانت بكل مقاييس صحة البيئة «صفراً» ناهيك عن الحشرات والهوام والروائح الكريهة التي تصاحب الجلوس على تلك المسطبة.

ويزيد من هذه المعاناة أن المسجد نفسه يبني آنذاك من القش والقصب ولذلك يسهل دخول السحالي والعقارب والأفاعي بسهولة بالغة.
لذا قرر أحد الطلاب يوماً وقف هذه المعاناة من جانبه. فاستيقظ مبكراً قبل الفجر وقصد المسجد فأشعل فيه النار وعاد إلى سريره ليستمتع بنوم هانئ.

ولكنه لم يستمتع بنوم هانئ كما كان يظن، فسرعان ما علم الناظر بالحريق فأيقظ المدرسة كلها - وفاعل الفعلة النكراء من بينهم - لإطفاء النار المشتعلة في المسجد. ولكن بدا للجميع أن فرق المطافئ الطلابية لا قبل لها

بهذا الحريق الضخم مع شح الإمكانات لديهم وأهمها الماء.

وبعد أن أتت النار على المسجد تماماً، قرر الناظر فتح تحقيق عاجل لمعرفة الجاني. ولم تمض بضع ساعات حتى تم القبض عليه. لم تكتمل فرحة بعض الطلاب وقد انتابهم شعور بالراحة من الاستيقاظ مبكراً كل يوم، حيث كان أملهم أن يستمتعوا بنوم هادئ خلال الأيام المقبلة حتى يتم بناء المسجد من جديد. إلا أن الناظر أصر على أسلوبه المتبع وظل يوقظ الطلاب كل صباح ويصلي بهم في العراء.

المدهش أن الطالب الذي أقدم على هذه الجريمة كان مصرّاً على حجته وهي أن المسجد (مليان ضببَ) بتشديد الباء الأخيرة. أي أن المسجد ممتلئ بالكثير من أنواع الوزغ والسحالي وخصوصاً الضب أبو شالاية (الضب الذي يكون رأسه أحمر وله عُرف أزرق) وهو يكرهها. فقرر التخلص منها بحرق المسجد!!



عم محمد

أ. موقف مع الناظر:

كان عمنا محمد (الرزيقي) أحد الذين يعملون في حراسة مدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى، فيظل يجوب المدرسة طوال الليل ويتفقدها شأنه شأن العسس. إلا أن عمنا محمد كان يقوم بالأشياء حسب فهمه للموقف وليس حسب التعليمات الصادرة إليه من إدارة المدرسة، فهو مثلاً: كان يعمل على إيقاظنا في الليل لكي نذاكر، في حين كانت تعليمات المدرسة تقضي بغير ذلك، وأن المذاكرة الليلية في الداخليات ممنوعة منعاً باتاً.

كانت حجة عمنا محمد أن آباءنا ما أرسلونا إلى هذه المدرسة إلا لنتعلم، فلماذا ننام الليل ولا نذاكر. كان ذلك هو فهمه رغم علمه بأن هناك مذاكرة ليلية في الفصول الدراسية تبدأ من الساعة السادسة إلى الثامنة مساء وتحت إشراف المدرسين الذين يمرّون علينا ويحلّون ما أشكل علينا من دروس. وعلى الرغم من ذلك كنا نطلب منه أن يوقظنا للمذاكرة فيفعل ذلك وهو منشرح الصدر!!!!

كانت المذاكرة الليلية في الداخليات عبارة عن معاناة حقيقية. فقد كان مصباح الكيروسين المزود بزجاجة لوقاية الفتيل حتى لا تطفئه الريح ينفث الدخان الأسود ونحن تحت الأسرة المغطاة بالبطاطين من ثلاثة جوانب إلا الجانب المواجه للحائط. وكنا ندخل المصباح في كرتونة مقلوبة مزودة بفتحه معقولة لخروج الضوء ونرقد عكس الفتحة ليتم تسليط الضوء على الكتاب أو الكراس. ونظل على ذلك الحال نستذكر دروسنا!!!!

فإذا قبض علينا أحد الأساتذة الذين يمرّون ليلاً ليتفقدوا الطلاب، فإن مصادرة المصباح حينئذٍ تكون هي النكبة الكبرى وليس الجلد.

عمنا محمد رجل بدوي الطبع، يتميز باستقلالية البدوي في اتخاذ قراراته. وكان لا ينصاع لأوامر الإدارة التي

عانت منه كثيراً، لذا فقد أطلق عليه مسمى الشخص الصعب وغير اللطيف. ولما كنا نتعلم مبادئ اللغة الإنجليزية وكنا نحرص على ترجمة كل شيء، لذا فقد أطلقنا عليه بالإنجليزية اسم عم أنبليزانت (unpleasant) وكنا ننطقها (أمبليزانت). وكنا شغوفين بترجمة كل شيء، حتى أن بعض الطلبة الكبار كانوا يحاولون ترجمة شعر الدوبيت (نمط من الشعر يتكون من مقطعين مألوف لدى البدو) بإنجليزية كنا نصفها بأنها (إنجليزي علب) - أي كلام.

وفي إحدى ليالي الشتاء القارس أمر الناظر السيد (أمبليزانت) بأن يبيت في المسرح ليحرس كومة من الأسرّة والبطانيات. فما كان من السيد أمبليزانت إلا قال للناظر:

- هسع البرد ده برد زول برقدوه برّه (خارج) بيته!!!!

ثم قال موجهاً كلامه للسيد الناظر:

- تعال أرقد فيها أنت!

وذهب في حال سبيله وسط دهشة الناظر الذي استغرب هذا السلوك و(البجاحة).

ب. وموقف آخر:

يقال ان عم محمد جاء من إجازته السنوية، وبعد أسبوع جاءه خبر وفاة شقيقه في الضعين فقرر على الفور العودة إلى الضعين، ولكنه هذه المرة كان أكثر تحضراً حيث دخل على الناظر وأخبره - من باب العلم بالشيء وليس لطلب إجازة عرضية - بأنه مسافر في قطار الغد إلى الضعين.

طلب منه الناظر أن يمهله يومين أو ثلاثة حتى يجد شخصاً آخر يحل محله أثناء غيابه. هنا ثارت ثائرة عم (أمبليزانت) فأخرج سكينه وقام إلى الناظر بعد أن أوصد الباب، فما كان من الناظر إلا أن سعى بكل ما في وسعه لتفادي سكين هذا الرجل العجيب. فكانت دورات من الطواف حول طاولة الناظر لعدة مرات حتى أحس المدرسون بالجلبة غير العادية ففتحوا الباب عنوة وأنقذوا الناظر الذي تصبب عرقاً وعقدت لسانه الدهشة!!

ج. مع العطبراوي:

نقل إلى المدرسة أستاذ شاب يحب لعب كرة القدم وقد عرف عنه كذلك كثرة مرحه ومزاحه. ويبدو أنه وقع ذات مرة في شر أعماله، وهو لا يدري، إذ يقال إنه مزح مع العم (أمبليزانت) فلم يعجب المزاح ذلك الأخير، فما كان منه إلا أن استل سكينه مكرراً فعلته الأولى مع الناظر، وطارد المدرس الشاب الذي لم يكن يتوقع أن تؤدي المزحة إلى شيء كهذا. ولولا يقظة المدرسين الذين هبوا لنجدة العطبراوي لراح في خبر كان - كما يقولون - فبعد لأي تم التصدي لعم (أمبليزانت) وهو يردد قائلاً:

أنا كم راجل زيه (مثله) طلعته (أصعدته) الشجرة!!



إف كان الله كتلك!!

تعلمنا في اللغة الإنجليزية الاستخدام الثلاثي للفعل إف (if) وهو (إذا الشرطية). وكنا نستخدمه استخدامات تصيب حيناً وتخيب حيناً آخر.

كانت خالة أحد زملائنا الكبار تتعهده بمديدة (النشا) الحلبة حرصاً منها على تسمين ابن أختها النحيف. فكانت تكثر الزيارات إلى المدرسة والطباخين خصوصاً وهي تحمل كورة (سلطانية) بها مديدة الحلبة.

ضاق عمنا ضوالبيت - كبير الطباخين - من هذه المرأة التي تعودهم يومياً وهي تحمل تلك الكورة (السلطانية) فقال:

- الخادم دي كل يوم شايلة كورتها وجاية. الحكاية شنو؟

فما كان من ابن أختها الذي لم يعجبه تعليق عم ضوالبيت إلا أن قال مازجاً العربية بالإنجليزية:

- عم ضوالبيت. إف (if) كان الله كتلك (قتلك) تاني قول الخادم.

بقارية وإنجليزية:

صفع أحد أساتذة اللغة الإنجليزية يوماً أحد الطلبة على وجهه فأصاب التلميذ الرعاف جَرّاء الصفعة وسال دمه غزيراً. وعندها طلب الأستاذ (باللغة الإنجليزية) من التلميذ أن يجلس قائلاً:

- Khamees. sit down - خميس، (اجلس)

فجاءت إجابة التلميذ بلغة بقارية قحة مازجتها اللغة الإنجليزية قائلاً:

- والله بتن (ثاني) ما (أست داون) تضربني لما خشمي يجري دم وتقول لي ست داون. والله ما أست داون!!



شقاوة عيال :

على مقربة من مدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى مزارع كثيرة تنتج البطيخ والتبش أو الفقوس (نوع من الخيار) والفول السوداني وغيرها..

وكنا نقصد تلك المزارع في أيام العطلات، و(كشقاوة عيال) كنانقوم بسرقة بعض البطيخ والتبش حيث يقبض علينا المزارعون أحياناً متلبسين بالجرم المشهود، ولكن في أغلب الحالات كنا ننجو بأفعالنا. وعلى كل حال، فقد كانت تجربة مثيرة.

ذهبنا يوماً إلى الوادي شمال المدرسة حيث تنتشر المزارع الكثيرة وحيث المياه التي تنساب أحياناً في ذلك الوادي فيحذرنا الناظر من الخوض فيها. ومن يقبض عليه ينال جزاءه عشر جلدات من عمنا (حامدين تقل) أو (خميس ريفا). لذا كنا نكثر من قراءة سورة ياسين في هذا الموقف خصوصاً، وفي حصة الرياضيات والتهجئة الإنجليزية بصورة عامة. وبسبب هذه المواقف حفظ معظمنا سورة ياسين ولما نتجاوز السنة الثانية متوسط.

نزل أحد زملائنا الذي كنا ندعوه أبو قلب (أي الجبان) إلى بطن الوادي حيث البطيخ وسرق واحدة رغم تحذير بقية الزملاء له بأن الوادي رملي ولا يمكن الهروب والجري فيه بسرعة إذا حدث ما لا تحمد عقباه، وأن الأفضل هو السرقة من المزارع المنتشرة حول ضفتي الوادي.

وفعلا حدث ما لا تحمد عقباه. فقد وجد زميلنا المزارع أمامه فجأة وهو يحمل البطيخة فحاول الهرب ولكن الرمال كانت عقبة كأداء أمامه فقبض عليه المزارع وشنفت آذاننا صيحات زميلنا (أبو قلب) مستغيثاً، ونحن

نسابق الريح ركضاً بمحاذاة ضفة الوادي.

لم يستطع المزارعون اللحاق بنا فنجونا، إلا أن زميلنا (أبو قلب) - الذي أصبح طبيبا وأستاذاً جامعياً فيما بعد - أتى بعد مدة من وصولنا إلى المدرسة وقد بدت عليه آثار الضرب من قبل المزارع الذي قبض عليه.



لكت:

كنا قديماً نلعب لعبة محلية اسمها (لكت) وهي ما يسمى (بالكوة/التيوة) أو الطابة الخشبية وهي قلب ثمرة الدوم الصلب الذي نضربه بالعصي، ويكون لكل منا دوره في أن تكون تلك الطابة الخشبية (أمه). ويبدأ العيال بضرب الطابة بالعصي حتى يتمكن أحدهم من جعلها تلامس عصا أحد اللاعبين؛ عندها تكون (أم) اللاعب الذي لامست عصاه. وكان أكثر ما يزيدنا حنقا قول العيال:

- شاعت: (أي أن أمه صارت شائعة تتقاذفها العصي التي تشبه عصي لعبة «الهوكي» المعقوفة عندما لا يستطيع أحدهم أن يجعلها تلامس عصا أحد اللاعبين. وكلمة (شاعت) كلمة مرادفة للمومس التي تتعاورها أيدي طلاب المتعة). أو يقولون أحيانا:

- جاغت عجوز راغت (أي تدور كالعجوز التي لا تهتدي من تلقاء نفسها).

وتؤدي هذه اللعبة (البايخة) في كثير من الأحيان للشجار بين اللاعبين والخلاف بينهم. ولأننا كنا جديدي عهد بالمدنية كنا نصرُّ على تأدية تلك اللعبة البدائية في ميادين المدرسة رغم وجود كرة القدم والكرات التي نشتريها من سوق رجل الفولة.



كرات التنس:

أما كرات التنس فقد كانت من الكرات النادرة والمميزة؛ لذا كنا نحرص على اقتنائها بالذهاب إلى ملعب التنس القريب من المدرسة ونعمل جامعي كرات للذين يرتادون ذلك الملعب من كبار موظفي رجل الفولة. وفي النهاية عندما يتفرق الجمع يمنحوننا كرة مكافأة على مجهودنا في جمع الكرات.

ذهبت وصديقي عاصم ذات يوم لمعلب كرة التنس وعملنا على جمع الكرات. وفي النهاية حظينا بواحدة فعدنا ونحن فرحون بهذا الإنجاز الكبير. ولم ندرك أننا بفعلتنا تلك قد أتينا متأخرين عن موعد المذاكرة الليلية. وفي باحة المدرسة التقى بنا عبد المجيد خليفة خوجلي - أستاذ اللغة الإنجليزية - فكان نصيب كل منا ست جلدات ساخنات أنستنا متعة فوزنا بكرة التنس.

كانت كرة السلة وألعاب القوى من أنواع الرياضة الجديدة علينا، لذا فقد انخرطنا فيها تدفعنا رغبة جامحة نحوها، وتعلمنا مبادئ كرة السلة والقفز العالي والجري وبعضاً من أصناف ألعاب القوى وزاد قاموسنا الرياضي تبعاً لذلك بمفردات جديدة لم نعهدها من قبل. وكان أستاذنا صالح مكين ممن يحبون لعب كرة السلة ولكنه كان يتأفف كثيراً من لعبنا البدائي ويكرر جملته المعهودة بلسانه الملثوغ الذي يقلب الراء لاماً: (يا من تلاني ولا ألاك) (يا من تراني ولا أراك).

حلاقة عينة :

كان الناظر شيخ الدين جبريل من المربين المتدينين جداً، وكان يكره أن يرى شعراً أشعثاً أو طويلاً. وقد تعهدنا طوال مدة بقائه في المدرسة بحلق رؤوسنا جبنة (صلعة). فأمرنا ذات يوم بحلق رؤوسنا (صلعة) بالموسى. فامتثلنا لأمره وأضحت المدرسة كلها رؤوساً لامعة.

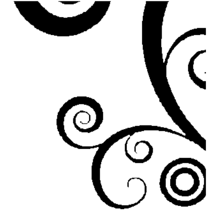
هذا، وكنا نعاني عندما نلعب الكرات الرأسية محاولين أن نتفاداها قدر المستطاع. كما كان بعض الأشقياء من التلاميذ يطوفون على التلاميذ الآخرين ويضربون على رؤوسهم ضرباً خفيفاً ويقولون جبنة (قهوة) أي أنه شرب القهوة.. مع تقليد صوت رشف القهوة، وكان ذلك الفعل يغيظنا كثيراً ويؤدي في حالات كثيرة إلى التعارك بين التلاميذ.

كان (ضحية) من ضمن التلاميذ الذين حلقوا (صلعة). وبعد مضي ثلاثة أشهر لم نرَ شعراً ينبت على رأسه فكانت (الصلعة) لديه كأنها حلقت بالأمس القريب. غضب ضحية من هذه الفعلة. وذهب إلى الناظر قائلاً:

- ثاني أنا ما بحلق (صلعة).

نظر الناظر إليه، وفعلاً لم يجد شعرة واحدة على رأسه. فقال لضحية مستغرباً:

- كده خليه يقوم (ينبت) أولاً وبعدين نشوف تحلق أو لا تحلق!!



بداية الغراميات :

بلغنا مرحلة الرجولة في رجل الفولة الأميرية الوسطى وبدأت شقاوة المراهقة تتنامى لدينا. وعلمنا لأول مرة أن للأنثى دوراً مهماً في حياة الرجل. فحاجتنا لها كأم وأخت كانت معروفة لدينا، إلا أن الحاجة إليها (كصاحبة فإن هذا أمر جديد علينا.

وبدأت مرحلة قال عنها الشاعر: (النوم جافاني قسمته لجيراني) فبدأ السهاد والشوق الشديد للإناث. وكثرت قراءتنا للمجلات المصرية كمجلة (المصور) والكتب الغرامية وأصبحنا نتفرس في صور النساء في المجلات والجرائد ونما لدينا الطرب كثيراً للأغاني العاطفية والنسائية خصوصاً والاهتمام بحفظها.

كان البعض منا يقصد أحياء المدينة (ليقل أدبه) ويقضي وطره. والبعض الآخر اكتفى بالمراسلات الغرامية الملتهبة، وقد تعلمنا نوعاً جديداً من الإنشاء (إنشاء رسائل الغرام).

كانت ابنة أحد أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة جميلة وشقية. وكانت في مثل سننا تقريبا. بادلها بعض الطلاب الرسائل الغرامية وبادلتهم. وكانوا يتحرقون شوقا لحضورها في الجمعيات الأدبية التي تعقد بالمدرسة في الأمسيات.

وحتى مواضيع الجمعية الأدبية كانت تتناول أحيانا المسائل النسائية ونضال المرأة في السودان ومصر رغم قلة ثقافتنا في هذا الجانب. الجدير بالذكر أني كنت رئيساً للجمعية الأدبية في دفعتنا.

اقتبس أحد الطلاب يوماً مقالاً عن نضال المرأة من مجلة المصور، وكيف أنها كافحت ووقفت مع الرجال في خندق واحد. كان المقال يتحدث عن نضال المرأة المصرية في الإسكندرية إبان الحرب العالمية الثانية، وأيام الاستعمار. وعندما سأله أحد المدرسين بعد أن انتهى من مقاله أن يذكر حالة تدل على هذا النضال المشرف للمرأة العربية، وقف الطالب كحمار الشيخ في العقبة. ولم ينبس ببنت شفة ولم يدر حتى عن أي نضال كان يتحدث!!!

الفصل الرابع
مدينة المجلد
(دينقة أم الديار - غريقة)



الفصل الرابع
مدينة المجلد
(دينقة أم الديار - غريقة)

مقدمة:

كانت المجلد مدينة صغيرة ذات امتداد محدود وأحياء معدودة. صباحها مميز بثغاء الأغنام وخوار الأبقار وصهيل الخيل ونهيق الحمير ونباح الكلاب وتغريد الطيور المتنوعة وصياح الديكة ونداء الناس بعضهم بعضاً وبكاء الصغار. يتناغم مع تلك الأصوات صوت صار مع الزمن إيقاعاً لطيفاً رتيباً ومميزاً عند سكان هذه المدينة. إنه صوت المضخة المائية التي كان يطلق عليها اسم (الدونكي الإخيضر).

يقف (الدونكي الإخيضر) بشموخ واعتزاز مستمد من اعتزاز أهل المدينة الوادعة. وهو معين الماء الأساسي لسكانها بالإضافة إلى دونكي المركز (الجواني) و (دونكي دفاع). و(دفاع الما ليها رفاع) - أي التي ليس لها من يدافع عنها - هي مقولة أطلقت على (حي دفاع) حيث كانت تقطنه في أوائل الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين مجموعة من النساء (المطلوقات) اللاتي رغم وجود عدد منهن في أحياء المجلد الأخرى، إلا أنهن وصمن هذا الحي دون غيره.


الدكتور عبدالكريم جبريل القوني

ركب أخي عبد الكريم (الآن الدكتور عبد الكريم) ذات مرة الكارو التي يجرها الحصان ويقودها عمر. ذهب عمر بعبد الكريم إلى حي (دفاع) حيث المطلوقات. وكانت لعمر مآرب هناك. ترك عمر عبد الكريم الذي نام على ظهر الكارو ولم يستيقظ إلا وهو في حوشنا ليجد والدته بجواره تسأله: أين تأخرت؟. فقال بمنتهى براءة الأطفال:

- أنا وعمر رحنا (دفاع).

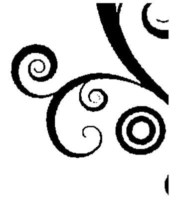
وضعت والدته يدها على فمها تعجباً!!! لأن مجرد نطق اسم (دفاع) يعني أشياء كثيرة مخزية في ذلك الوقت.



المجلد المحطة الرئيسة:

كانت مدينة المجلد محطة رئيسة للشاحنات المحملة بالمانجو والأنناس وفواكه جنوب السودان، خصوصاً تلك الواردة من مديرية بحر الغزال. كان موقف الشاحنات آنذاك يعج بأرتال الشاحنات القادمة من أم درمان والأبيض والمغادرة إلى الجنوب وبالعكس. وكانت تلك الشاحنات تحمل البضائع والركاب وتعود من الجنوب محملة بالفواكه - المانجو والأنناس وغيرهما - ما ساعد كثيراً في تنشيط الحركة التجارية في المجلد في موسم الصيف؛ لأن فصل الخريف الذي تنهمر فيه الأمطار بغزارة لا يسمح بهذه الحركة. وترفع أغلب الشاحنات في الخريف على البراميل حتى ينقضي فصل الخريف - فصل الأمطار.

هذا، وتتعرض كثير من الشاحنات - داخل مدينة المجلد - للانزلاق والوحل في الطين اللزج. فتسمع نتيجة لذلك صياح الناس وأزيز الشاحنات وهي تحاول الخروج من الوحل. ففترة الخريف في المجلد تعدُّ فترة (سبات خريفي). حيث تنقطع السبل من المجلد وإليها، وبخصوصاً طريق أبيي الذي يعدُّ افتتاحه بعد الخريف نصراً مؤزراً للسائق الجريء الذي ستغني له البنات في الدلوكة (حفلات محلية تغني فيها البنات بطبل فخاري).



صواعق المجلد:

أما الصواعق في فصل الخريف فحدث ولا حرج. فحسب الاعتقاد السائد هناك سبع مطرات تسمى (المقدمات) وفي كل منهن سبع صواعق مدوية تحدث الخسائر المادية. ومثلها تماماً هناك سبع مطرات تسمى (المودعات) تأتي في نهاية الخريف وبكل منها سبع صواعق.

كانت الأحاجي (الحدوتات) تتضمن أساطير كثيرة عن المطر والصواعق، وعن (حجر الصاعقة) الذي يدخل البيت على شكل ديك أحمر العرف أو حجر، إذا وجده مفتوحاً، فيحرق البيت ويمزق كل ما فيه. لذا كان لا يسمح لنا بترك سدادات (أبواب) البيوت مفتوحة.

وفي ضواحي المجلد كنا نرى الأخاديد التي كانت تتركها تلك الصواعق الرهيبة وآثارها المدمرة على الأشجار.

كانت تلك الحكاوي تفعل فينا الأعاجيب. وكأطفال كنا نتوق للعب في المطر ولما تكف بعد زخاته. لكننا كنا نخاف من برق الصواعق فنلجأ إلى أحضان أمهاتنا حتى لتكاد تكتم أنفاسنا من شدة الالتصاق بهن.

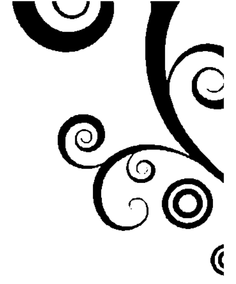
في إحدى إجازات الجامعة كنا سماراً في أول الليل - بعد صلاة العشاء - في منزل أخينا عبد الله عبد الكريم (الآن الدكتور عبد الله عبد الكريم). وكانت أمهاتنا كعادتهن يرحبن بنا في الإجازات وينظمن لنا برامج للفطور والغداء والعشاء، ويسعدن بوجودنا معهن كما نسعد نحن بدورنا بهذا الاحتفاء.

وفي أثناء السمر وكان المطر ساعتها يهطل بغزارة، فوجئنا بسماعنا دوي صاعقة هوت على منزل بالقرب من منزل مضيفنا عبد الله عبد الكريم، خرجنا نستطلع الخبر، وأثناء ركضنا - وعبد الله يضع بشكيراً (منشفة) على رأسه من المطر - اختفى عبد الله بصورة مفاجئة، فتلفتنا يمنة ويسرة ولكن من دون أن نجد له أثرا!!!

لقد سقط عبد الله في حفرة من الحفر التي يؤخذ منها الطين لبناء الدرادر (جمع دردر وهو البيت الذي يتكون أسفله الدائري من طين ورأسه المخروطي من القش) ممتلئة بمياه الأمطار وكانت قريبة من منزلهم. ولم نهتد لوقوعه في هذه الحفرة إلا بعد أن رأينا البشكير (المنشفة) يطفو فوق سطح الماء!!!

و يا للعجب، فقد احترق البيت الذي هوت عليه الصاعقة رغم زخات المطر المنهمر بغزارة. وقد استخدم الناس كل وسيلة لإطفاء النار، ولكن من دون جدوى حتى أتت النار على البيت بأكمله. استغربنا لأمر تلك النار التي لا يطفئها الماء!!!

وَبعد أن يتوقف المطر تصبح المجلد غديرا بلا شطآن، فكل شيء غارق في الماء، والشوارع تسيل منها المياه، وتنحدر من الأعالي إلى الأسافل فيما نظل نحن نخوض فيها ليل نهار.



أحياء المجلد

١. حي أركويت :

شمالا بعد حوش الناظر بابو نمر تدخل إلى حي (أركويت) الذي يمتد إلى بوطة (غدير) أبكر حيث يقال إن كنوز السلطان دينقة – سلطان الداجو – مدفونة هناك. وكغيره من أحياء المجلد يتميز حي أركويت بتنوع بشري كبير من شتى قبائل السودان. وبه ثلاثة شوارع تمتد من الجنوب إلى الشمال تشق الحي الذي تتكون معظم منازله من القطاطي أو الدرادر وقليل من غرف الطوب الأحمر وتكاد هذه الشوارع الثلاثة تكون واضحة للعيان.

يقطن هذا الحي بالإضافة إلى عائلة علي الجلة وأبنائه مكي علي الجلة ومحمود علي الجلة وشميلة علي الجلة وأحفاده بابو نمر وعلي نمر والدرديري نمر؛ يسكن بجانب هؤلاء أم دامكي وحمدان عبد الله وأبناء عمومتهم، والشيخ مكي شميلة ونمر حرقاص وسُلم وكبيرة وجماع عبد الله؛ وكذلك مريدة أندالو والفكي حمدون والشوين وغيرهم.

كما توجد مجموعة (الشرفة) وهم عصبة من أهل المجلد - بقيادة عمنا محمد الأمين - كانوا يسكنون متقاربين في أركويت. ثم مجموعة الفلاته التي تجاورهم بقيادة عمنا جبريل وعمر جفينات وغيرهما.

وينتهي هذا الحي في مدابغ الجلود حيث امتهن كثير من أهلنا الفلاته هذه الصنعة وأجادوها وكذلك حرفة صنع الأخراج (جمع خرج ويتكون من حاويتين من الجلد توضعان على جانبي الحمار بحيث تكون فتحتاهما في وسط السرج) لصب الماء ثم نقله من الدوانكي (المضخات المائية) وسقاية الأحياء، وذلك لعدم وجود شبكة مواسير

مياه. وبعد المدابغ يستقيم الطريق إلى مدينة البابنوسة (قبة أبو إسماعيل).

قام اثنان من أخوتنا بتسجيل زيارة لعمتنا (مريم المهرة) - رحمها الله - التي كانت تقطن حي أركويت. فرحبت بهما كعادتها أجمل ترحيب وشكرتهما على تلك الزيارة، وأطعمتهما ما لذّ وطاب وختمت الطعام (بالدغبوبة) التي تحرَّجا أول الأمر معتذرين عن شرابها، ولكنهما رضخا تحت إلحاح عمتنا (المهرة) التي أخبرتهما بأنها من شراب أجدادهما ونها ليست مسكراً. ولكن يبدو أن عمتنا لم تنتبه إلى الدرجة التي وصلت إليها (الدغبوبة) من التخمر، فقد تجاوزت حد السلامة المسموح به إلى الحد الممنوع ودخلت قائمة المسكر.

شربا الدغبوبة حتى ارتويا وعندما حاولا القيام لم تسعفهما أقدامهما على النهوض، وقد عانيا الأمرين وهما يحاولان شق طريقهما مترنحين إلى حلة الفكي جبريل القوني. ووصلا أخيراً ولكن بكدمات وجروح جرّاء اصطدامهما بالحيشان وهما ينتقلان من طرف الشارع إلى الطرف الآخر!!!

أما شرق منزل الناظر بابو نمر فتوجد مدرستنا الغربية الأولية. وشرقها كانت توجد بوطة (غريقة) ومنازل أعمامنا: علي بشير ومحمد عثمان أبكر و برمة معذب وختم كرامة ثم الدونكي الإخيضر وسهل طيني ممتد إلى قوز (كثيب) الجبارات الرملي حيث يسكن عمنا عبد الرزاق وبعض الأهالي وحيث كانت تقطن قيادة الفلايتة برئاسة الحاج أجبر قبل انتقالها إلى رجل الفولة واتخاذها مركزا للمسيرية بشقيها (الحمر والزرق) بدلاً عن المجلد. ثم بوطة (غدير) دودو وبوطة عديلة واليافطة (اللافتة) والحاجز، ثم الطريق القديم إلى البابنوسة.

٢. حي الجلابة :

يقع (حي الجلابة) على قوز (كثيب) رملي شرق السوق ويمتد إلى فريق ولاد (أولاد) توبا، ثم مدرسة المجلد (الشرقية).

يقطن هذا الحي أعمامنا الجلابة من كبار تجار المجلد؛ أمثال بشير التيجاني وأحمد حامد القاضي وأحمد بانقا وأحمد عمر وأخويه آدم عمر وتيلي وحوش يوسف دودو وبابو الجزار ومصطفى الجزار وخير الله وحميدة منصور ويوسف الدقير (والد الدكتور جلال الدقير وزير الصناعة في حكومة الوحدة الوطنية) والأمين الدسوقي ومختار البشير وحسن علم الهدى ومحمد حسن الدوخ وطه البساتي وسالم أحمد (من رفاعة) و أبو عبد اللطيف الترماي (عبد الرحمن عبد القادر الخبير) وعثمان الأسيوطي و بريمة حمودة النور (أبو السعاد الأكلة البتسر الفؤاد) وعبد السلام المحبوب وإبراهيم الخليفة (الشايف الجنيه تعريفة) ومحمد مدني وشقيقه حسين مدني وآدم المصري ومحمد أبوشنب وعلي شمو وأحمد نديم وصالح الحلو ومصطفى حجير وحسن بنز واسماعيل

الجزلي وآدم زكريا وأجبر كوكو وبابو جقجوق ومحمد الفكي وأبكر المنصوري وحماد المنصوري والكتيبابي وعمتنا بخيتة زرقاء والشيخ عبد الكريم جبريل وداني وإبراهيم حجازي و التوم الشايقي وعمنا إبراهيم وعمتنا الدبوية أم حمدان و (الخواجة) عيدو جورج وحوش يوسف الفران ومحمد الحسن وهارون يعقوب وأبناء عمومته أحمد الفكي وصهره عيسى صالح وحوش الحاجة بخيتة وابنتاها سيدة يوسف وفاطمة (فنون) وحوش صباح النور وحوش عمتنا الحاجة إنا (أم رابحة) وحوش مهدية الغبيشة وغيرهم.

وكغيره من أحياء المجلد فمعظم مباني هذا الحي من القطاطي والدرادر رغم وجود عدد معتبر من الغرف المبنية من الطوب الأحمر. ويشق هذا الحي شارعان رئيسان من الغرب إلى الشرق حتى نهايته في حلة ولاد (أولاد) توبا.

فيما تقع نقعة (بقعة) مخازن (البنزين) شمال شرق هذا الحي. ويقال إنه في هذه النقعة دارت المعركة الفاصلة بين الداجو بقيادة سلطانهم (دينقة) وتجمع قبائل جهينة: عطية وحيماد وراشد الولاد. وإلى عهد قريب كانت هذه النقعة مليئة ببقايا الفخار الذي مهر الداجو في صناعته.

هذا، ويفصل هذه النقعة عن قوز الجبارات سهل طيني يعدُّ عقبة كأداء للواري والشاحنات في الخريف حيث يتميز بالطين اللزج الذي سرعان ما يزلق الشاحنة أو تغوص فيه إطاراتها عميقاً. وأصبحت أصوات المساعدية (وهم من صغار الشباب الذين يساعدون السائقين في القيام بأعمال الطبخ ورمي «الصاجات» الحديدية أمام إطارات السيارات لتعبر عليها من الرمال والطين وشحن وإنزال حاجيات الركاب إلخ) ومحاولاتهم الدؤوبة لتخليص الشاحنات من هذا المستنقع الطيني، وأصوات محركات الشاحنات، سمة مميزة في الخريف في هذه البقعة حيث تشرئب أعناق النساء من الحيشان ويتجمع المارة لمشاهدة هذا المنظر المألوف كثيراً.

اتصل حي ولاد (أولاد) توبا وامتد بشكل طبيعي مع حي الجلابة إلى الشرق. وكان من أشهر قاطني هذا الحي عمنا محمد سالم وأحمد سالم وبشتنة ومحمد أبوعين وأبناء عمومتهم.

٣. حي الفكي جبريل القوني :

احتل (حي الفكي جبريل) موقعا جنوب السوق، على عتمور (كثيب) رملي ممتد إلى حي ولاد (أولاد) سالم وبوطة الفكي جبريل أو (جميله بره).


المرحوم الأستاذ القوني جبريل القوني



وعلى الشرق من هذا الحي وأنت متجه جنوبا توجد شجرة (تبلدي) كبيرة جداً مهيبة المنظر أطلق عليها الناس اسم (التبلدية أم قور) عمرت لأكثر من ١٥٠ عاماً. ويقال إنه كان يربط تحتها العبيد والعصاة في التركية السابقة. ويشاع أيضاً أن الزبير باشا رحمة، تاجر الرقيق المشهور - رحمه الله - كان يقيل تحتها أثناء عبوره من (دار الصباح) إلى بحر الغزال. ولم تسقط هذه الشجرة إلا في أواخر القرن العشرين.

عند سقوط التبلدية أم قور سمع صياح شديد حولها لم يعرف مصدره حتى الآن. والجدير بالذكر أن الوالدة (الدبوية أم حمدان) أقامت مأتماً في منزلها للتبلدية أم قور ، بحكم جوار التبلدية لزرعها القديم، وهذا بطبيعة الحال محرم شرعاً.

تجاور هذه التبلدية من جهة الغرب بوطة (هريهيرة) - نسبة لجفافها في الصيف حيث يقصدها الناس لقضاء الحاجة. وتقضي بعض الأسماك (أم كورو) والضفادع فيها فترة (البيات الصيفي).

تميزت التبلدية (أم قور) بالضخامة، حيث يبلغ محيطها نحو عشرين متراً، وتقطنها أعداد كبيرة من الطيور والوطاويط والثعابين ويعتقد كثير من الناس بأن الجن يسكنها. وقد تحول هذا الاعتقاد في أذهان الناس إلى ما يشبه اليقين عندما سكن بجوارها الساحر (أبكر قروش).

وفي إحدى الأمسيات وبعدما فرغنا من التعليلة (السمر) وكنا على وشك التفرق إلى منازلنا تفتق ذهن أخينا محمد النذير (الضي) عن عبقرية من عبقرياته العديدة؛ حيث أراد منا أن نخوض تجربة كانت بالنسبة إلينا اختباراً قاسياً جداً ونحن في تلك السن. فقد طلب من كل طفل أن يذهب إلى التبلدية (أم قور) - التي لم تكن تبعد كثيراً عن حوش الفكي جبريل القوني - في ذلك الليل البهيم (رغم أن الساعة لم تتجاوز إذ ذاك التاسعة مساء) ويغرز كوكاباً (نوعاً من الرماح الصغيرة) فيها ويترك علامة بارزة عليها لتدل على انجازه المهمة بشرف وشجاعة.

كانت ليلة ليلاء. وكان مجرد التفكير في المرور بالقرب من التبلدية أم قور نهاراً، دعك عنه ليلاً، يصيب المرء بقشعريرة وذعر يسري في كل أركان جسده.لقد كان ذلك أسوأ اختبار شهدناه. وأوشكنا أن نحقق مقولة (لم

ينجح منهم أحد) لولا إقدام بعضنا على إنجاز المهمة ولكن من دون شرف وشجاعة!!!

تميز حي الفكي جبريل القوني بوجود مجموعة من الأتقياء وحفظة القرآن وخلاوي تحفيظ القرآن مثل حلقة الفكي (جبريل القوني) وحلقة الفكي (أحمد الرفاعي) وحلقة الفكي (صالح الطاهر) وحلقة الفكي (هدى صغيرون) قبل أن ينتقل إلى (الحاجز) في ضواحي المجلد. وكان يوجد بهذا الحي أيضاً عمنا حامد (جليد) جودة وجبريل علي مرعي (أبو الدنعو) ويعقوب عبد الكريم (مردو) وإبراهيم عبد الكريم وعثمان جبريل القوني وجبريل عبد الكريم وآدم جبريل القوني ومحمد جبريل القوني وفكي باخت ونواي وآدم يحى وأم دودو وأم كتير وعمتنا فضيلة وبناتها خديجة أم ركبة وأم نعيم وعمتنا أم أحمد وناصره وأحمد بشارة وعمتنا مرشودة وعجالة وأوشي وعاشة (عائشة) الرصاص وصالح الحلو (من جريبان) وعوض عطية وعبد الله الحافظ وعبد الله (أبو حريبة) وقجة وقدام حمودة (كلب الفيل) وعبد القادر محمد سليمان غندور والشاويش ضحية وعيسى الباشا ومحمد عيسى الباشا وعمنا مهاجر أديب الذي انتقل إليه من الحاجز وحلة ول (ولد) عثمان (درك) بقادي وكذلك صفية عثمان بقادي وأم النميشة وعاشة (عائشة) الخريف والمطيب وجبريل عبط وعمنا رفاي وغيرهم.

كان هؤلاء الفقهاء يتبارون في تحفيظ القرآن وعلومه لمن يقصدهم من طلبة العلم، وكانت حيشانهم مقصداً للفتوى والإشكالات اليومية بين الرجل والمرأة. وكنا - ونحن صغار - نسترق السمع من وراء حجاب لفتاوى وحلولها الإشكالات اليومية بين الرجال والنساء. ولكن ضحكاتنا الصغيرة كانت تكشفنا فنطرد بنهرة من الكبار فنفرنقع.

وذات مساء قادتنا وأخي عبد الله خطانا الصغيرة لمنزل عمتنا عائشة أم الدقل - رحمها الله - الذي كان في الركن الشمالي الغربي للحوش. ودخلنا الراكوبة (العلية) حيث وجدنا بعض أخوتنا الكبار. (النذير «الضي» ومحمد دهب «الشخيطير» وعبد الله عبد الكريم «دقلوش» وحليمة عبد الكريم « شيك أم دودو» وشخص آخر) يلعبون الورق (عشرة طيبة)، فجلسنا بجوارهم غافلين عن خطورة الوضع. فقد كان لعب الورق في الحوش - مهما كانت درجته - يعدُّ عموماً قماراً.

.. وقد بدا لنا أن اللاعبين اختلفوا فيما بينهم وحيث تم إخراج أحدهم قسراً من اللعبة، فغضب ذلك الشخص وتسلل خلسة ووشى بالمجموعة التي تلعب القمار (عشرة طيبة). وما هي إلا لحظات حتى دخل علينا أخونا عثمان وبيده مطرق (غصن شجرة). فاختلط الصياح بالبكاء مع الضرب المبرح وكثر الهرج والمرج، ولم ينقذنا من تلك الورطة إلا تدخل عمتنا عائشة أم الدقل التي حالت بيننا وبين عثمان الهائج!!!

.. وكعادة أبناء آدم وسُنّة الخلق في الذكور كان ينتابنا بين حين وآخر شوق إلى التنافس والتعارك وإثبات الذات، حيث تستعر هذه الجذوة المؤصلة فينا، أحياناً فنجنح إلى التعارك مع أقراننا في الأحياء المجاورة؛ فمرة مع حي الجلابة وأخرى مع حي دفاع إلخ.

كان قائدنا في هذه المعارك الصغيرة هو أخونا الأكبر عبد الله عبد الكريم الذي انضم لاحقاً إلى القوات المسلحة السودانية. وكنا نستخدم في هذه المعارك مسدسات البلاستيك المعبأة بالشطة والقبضات الخشبية وغيرها من الأسلحة المحرمة، ونشعر بزهو شديد عند انتهاء المعارك ونحن عائدون إلى قواعدنا سالمين بأحاديث عن تسجيل بطولات أسطورية!!!!

وكان هناك شارعان رئيسان يشقان حي الفكي جبريل من الشمال إلى الجنوب. حيث يحتل ولاد (أولاد) سالم موقعاً جنوب هذا الحي بوصفهم عصبة مكونة من أرحام وأقارب. وقد امتهن أولاد سالم صناعة الآلات الحديدية كالجراية/الملود (آلة لحرث الأرض وتنظيفها من الحشائش) والفؤوس والسكاكين والحراب بأنواعها وغيرها من الآلات الحديدية، ولذا كان يطلق عليهم ولاد سالم أو بروكلا أو الحدادين أو جنق جنق (كما كان يقول الدينكا)، وهو اسم صوتي للمطرقة والسندان.

كما تميز ولاد سالم بصنع الأزيار (القدور الفخارية) لحفظ الماء أو الطبخ. فقد أجادوا هاتين الصنعتين على مستوى المنطقة.

الجدير بالذكر أنه في حدود عام ١٩٣٥م كان الفكي جبريل القوني يسكن منطقة ضيلم التي تبعد نحو ٤٠ كلم جنوب شرق المجلد وكان له فيها مزارع وتجارة رائجة ومدرسة قرآنية يرتادها كثير من الطلاب. اشتهرت ضيلم حتى أصبحت الشاحنات التجارية القادمة من النهود تمر بها قبل المجلد بسبب انتعاش التجارة فيها.

طلب المدير الإنجليزي آنذاك المستر مايكل تبس من الفكي جبريل ترك ضيلم والذهاب إلى المجلد لزيادة عمرانها، فاشترط الفكي جبريل أن يختار مكان سكنه في المجلد وأن يتحول سوق المجلد الأسبوعي من الجمعة إلى الخميس حتى لا ينشغل الناس بالسوق والتجارة عن ذكر الله والصلاة.

قام الفكي جبريل القوني بشراء المنطقة التي أقام فيها الحلة التي سميت باسمه لاحقاً من خال عمنا الناظر بابو نمر وتحول السوق للخميس من وقتها بدلا عن الجمعة.

٤. حي دفاع:

يقع هذا الحي إلى الغرب من حي الفكي جبريل ويحتل كذلك كثيباً رملياً كما هو الحال في معظم أحياء المجلد. وقد اكتسبت المجلد اسمها من الأراضي الجلدة أو المجلدة أي المستوية الطينية التي تتخلل تلك العتامير (التلال الرملية).

هذا، ويفصل بين حي الفكي جبريل وحي دفاع شارع شاحنات كبير يؤدي إلى الجنوب، إلى أبيي.

وفي هذا الشارع تحضرني ذكريات أليمة عن أحداث عام ١٩٦٤م المؤسفة بين المسيرية وإخوانهم الدينكا نقوك (المسيرية الطوال). توترت الأجواء في المنطقة في ذلك العام إثر شيوع أخبار عن مذبحة قام بها المتمردون الجنوبيون في فرقان المسيرية على ضفاف بحر العرب.

فقد قام المتمردون في ليلة من الليالي المشؤومة بذبح العشرات من أسر المسيرية الآمنة التي كانت تغط في نوم عميق على ضفاف بحر العرب غدراً. ولم ينج من تلك المذبحة سوى القليل. وكما يقول حكيم العرب بابو نمر - رحمه الله - أن أحد الناجين استخدم رادار المسيرية (الحصان) في الوصول إلى المجلد والتبليغ عن الجرم المشهود.

وقد ماجت المنطقة إذ ذاك بغضب عارم وحركة شديدة استعداداً لنجدة المنكوبين. فاصطفت الشاحنات على طريق المجلد/ أبيي محملة بالعديد من المقاتلين. وساد المجلد وبابنوسة جو حزين ينذر بتفجر الغضب والانتقام.

وكنتيجة لتلك الفعلة الشنيعة التي قام بها المتمردون، تغيرت نظرة سكان المجلد وبابنوسة إلى إخوانهم من أبناء الدينكا نقوك وغيرهم من الجنوبيين. فظهرت عصابات نسائية في المدينتين تطارد الدينكا بغية الفتك بهم انتقاماً لأقاربهن الذين ذبحوا غدراً بعد أن غادر معظم الرجال إلى بحر العرب.

ففي مدينة البابنوسة انتظمت حشود من النساء في محطة السكة حديد تبحث عن الدينكا في القاطرات المتجهة إلى الجنوب أو الغرب بحكم أن البابنوسة هي المفرق لقاطرات الغرب والجنوب.

فقامت الشرطة بإيواء العديد من الدينكا (رجالاً ونساء) في سجن بابنوسة حماية لهم من بطش الجماهير النسائية الغاضبة.

ولسوء الحظ، فقد جمع السجن كما أسلفنا عدداً كبيراً من الدينكا ولم تكن به تلك القوة العسكرية الكبيرة

فقصدته حشود النساء اللاتي حملن علب الصفيح المعبأة بالكيروسين من محلات تجار الجلابة عنوة ثم سكبن الكيروسين على مجموعات الدينكا الموجودة داخل السجن وأشعلن فيها النار بعد أن انسحبت قوة الشرطة من وجه تلك الحشود النسائية الغفيرة التي لا قبل لها بها، فكانت المأساة الأخرى!!!

هذا وقد راح ضحية الحريق العشرات من الدينكا (رجالاً ونساء) داخل السجن المغلق عليهم، المحاصر بأمواج متلاطمة من الحشود النسائية الغاضبة. وكانت مأساة ارتكبها النساء أثناء فورة وجنون الغضب الذي انتابهن.

وفي المجلد طاردت النساء أيضاً الدينكا أفراداً وجماعات. وكان حوش الفكي جبريل القوني – رحمه الله - من أوائل البيوت التي كانت مأوى لهذه المجموعات المطاردة التي لا حول لها ولا قوة. كما استبسل الرجل الإنسان، الكريم يداً وخلقاً جبر بابو نمر – رحمه الله - في الدفاع عن الدينكا.

وأخيراً اسدل الستار على فصل قبيح من فصول القتل وفظائع الانتقام البشع الذي ترك آثاره السالبة على الجانبين: المسيرية والدينكا نقوك وأسهم كثيراً في زلزلة أمن المنطقة واستقرارها.

إما إذا تحدثنا عن حي دفاع، فقد كانت معظم منازله كغيره من أحياء المجلد، من القطاطي أو الدرادر. وكان مقصد أهالي المدينة للتزود بالماء من مضخة الماء الشهيرة (دونكي دفاع).

يشق حي دفاع عدد من الشوارع الممتدة من الشمال إلى الجنوب، ويتميز (أي الحي) بتنوع سكاني كبير. فهو أحد أكبر أحياء المجلد. وتحده من جهة الجنوب بوطة (أم تور جوك) و (التبينة). أما زريبة المواشي فقد تم نقلها إلى جنوب شرق الحي في أواخر الستينيات من القرن العشرين.

وكان من أشهر قاطني هذا الحي حمدي الزامل ومحمد غليلة والرحيمة نارو والحداي الدريب (خبير قرجة) وأزرق زايد وود العالم والشاب النشط التوم النور دلدوم (زلط/كوبا) – خال إدوارد لينو القيادي بالحركة الشعبية- وغيرهم.

٥. حي الجلابة الصغير :

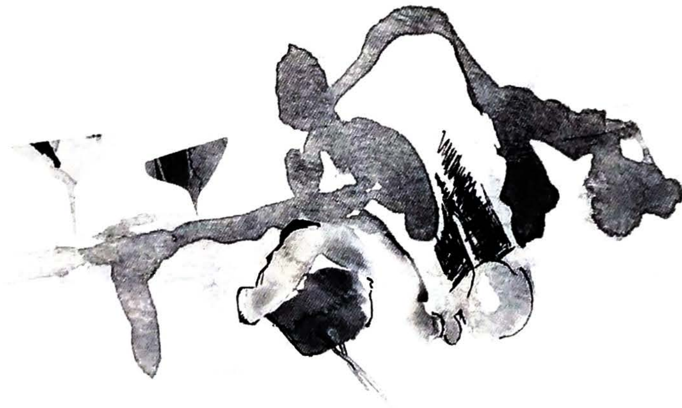
احتلت مجموعة من أعمامنا الجلابة هذه البقعة التي تقع جنوب سوق المجلد مباشرة حيث حوش أحمد أبو شعير وإخوته سعد وحامد وعلي وعثمان؛ وحوش سليمان حامد وأخيه عمر حامد وغيرهم. رحم الله من مات منهم رحمة واسعة وأطال في عمر من بقي منهم.

احتلت هذه الحيشان مكاناً وسطاً بين حلة الجلابة وحي دفاع وحلة الفكي جبريل. ويجاور هذا الحي من جهة

الجنوب محلات الحدادين (بروكلا / السندالة - السندانة).

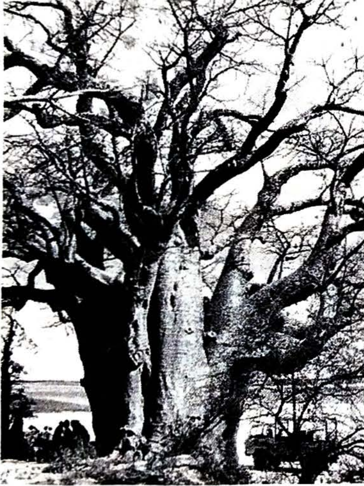
ويمتد غرب حي الجلابة الصغير سهل طيني يمتد إلى مدرسة المجلد الأولية للبنات. وقد كان هذا السهل فيما مضى ملعبا للعجكو والنقارة ثم أصبح زريبة للبهائم - التي نقلت فيما بعد إلى الجنوب الشرقي من حي دفاع - ثم اتخذه فريق الزهرة ملعبا له في طرفه المجاور لمدرسة المجلد الأولية للبنات وذلك في أواسط الستينيات من القرن العشرين.

الفصل الخامس
معالم المجلد الرئيسة



الفصل الخامس
معالم المجلد الرئيسة

المركز :



على الغرب من تلك المضخة المائية (الدونكي) ذات النغم المتفرد التي تقع جنوب منزل الناظر بابو نمر مباشرة، يطل (المركز) على قوز (كثيب) عال من الرمال يشنف آذان الناس كل صباح ومساء بصوت بوق العسكر (البروجي). حيث يصطف العسكر - رجال الشرطة (البوليس) - لطابور الصباح و المساء.

وعلى قمة باب (المركز) نصبت ساريتان للعلمين البريطاني والمصري ترفرفان بشموخ واعتداد وهما تذكران الناس بانتصار هاتين الدولتين في كرري (أكبر معارك دولة المهدية قبل المعركة الفاصلة في أم دبيكرات)، فيما تهيمن شجرة (تبلدية) ضخمة الجذع بأغصانها الوارفة الخضراء على المركز، كأم رؤوم تحتضن وليدها وتغمره بالقبلات والمداعبات مع هبات النسيم العليل.

كذلك يتضمن المركز مكاتب الشرطة، ومكتب عمنا الصول إبراهيم مختار، ومحكمة الناظر بابو نمر ومحكمة الناظر مكي على الجلة (عم الناظر بابو نمر)، ومحكمة الناظر علي نمر (ناظر العجايرة)، والسجن، ومكاتب الكتبة مثل: كرتقيلة محمد بشار والتيجاني عثمان الأسيوطي (جمل ياكل شوك)، ودينمو المركز الأخ الظريف وليد الحازمي (عجك الحاكومة) - رحم الله من مات منهم رحمة واسعة وأطال في عمر من بقي منهم.

وفي نهاية حوش المركز إلى جهة الجنوب تقبع غرفة تمتد إلى باطن الأرض كانت مخزناً للسلاح والذخيرة، فيما يجاور هذه الغرفة جهاز لقياس كمية هطول الأمطار.

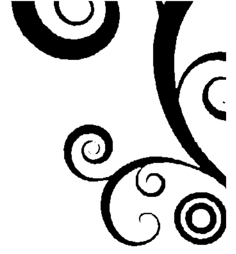
شاهد عمنا حمدي الزامل - من المتأنقين في اللبس وهو من الذين عملوا في الجيش المصري وتزوجوا من مصريات ثم عادوا بعد التقاعد إلى السودان - ضابط المجلس في المجلد وهو يرتدي بدلة كاملة. ويظهر أن عمنا قد طحا به الحنين إلى ليالي مصر فقال معلقاً على ضابط المجلس الذي كان يدعى عثمان ويلقب باسم (حلاوة حربة):

- (حلاوة حربة) ده قايلنا نحن ما لبسنا (السل فوت) ولا شنو. نحن لبسناها في مصر أم الدنيا.

ضحك القوم من تعبيره؛ لأنه كان يقصد (فل سوت full suit)!!

البلك:

وتقع مساكن الشرطة (البلك) جنوب المركز مباشرة ويفصل بينها وبين (حي دفاع) نقعة (بقعة) كانت مسرحاً للعب العجكو والنقارة، ولاحقاً كانت ميداناً لنادي الزهرة الرياضي في طرفها الغربي. وكان من أشهر ساكني البلك عمنا المرحوم الصول (إبراهيم مختار) والذي ترقى إلى رتبة ضابط لاحقا والذي عرف بعض أولاده في الأبيض باسم (كندرة) وهو والد البروفسير بشير إبراهيم مختار والبروفسير أحمد إبراهيم مختار وبقية العقد الفريد. وتقع مدرسة بنات المجلد الأولية، المدرسة الوحيدة، إلى الغرب من البلك تجاورها الاستراحة الحكومية.



منزل الناظر بابو نمر :

وعلى الشمال الشرقي من المركز يطل منزل الناظر بابو (عثمان) نمر من تل مرتفع على دونكي المركز (القديم) الذي يقع على بعد خطوات أمامه مباشرة. يجاور منزل الناظر بعض منازل إخوته وأقاربه.

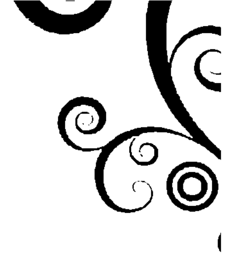
ومن الجهة الغربية كان هناك منزل المساعد الطبي ومنزل الضابط الإداري وبعض منازل الموظفين. أما من الجهة الشرقية فيوجد منزل ناظر مدرسة المجلد الأولية (أ) ومنازل المدرسين المتزوجين والعزابة.



الدوانكي والخراجة :

الدوانكي (المضخات المائية) هي روح المجلد. فهناك الدونكي القريب من المركز، الذي سمي دونكي المركز أو الدونكي الجواني، ثم الدونكي الأخيضر إلى الشرق من دونكي المركز والذي يحتل مركزاً بارزاً وسط سهل طيني ممتد. ثم دونكي حلة دفاع.

ويتميز دونكي دفاع ودونكي المركز بأنهما المكانان اللذان يقصدهما الناس في المجلد للتزود بالماء، فترى مجموعات من الناس تتزاحم عليهما خصوصاً في أيام الصيف حيث يشح الماء فتسمع منذ الصباح الباكر لأصوات علب الصفيح الفارغة ضجيجا. وكما يقول الإنجليز(empty cans make greater noise) أي أن علب الصفيح الفارغة تصدر ضجيجاً عالياً. وترى (الخراجة) في تزاحم لتعبئة (أخراجهم) بغية بيعها في الأحياء. فهم يطوفون بالأحياء، يضربون على علب الصفيح الفارغة فينادي عليهم الناس. وهي تجارة رائجة في بلد يعاني شح الماء في الصيف رغم وجود عدد من البواط (غدران الماء الراكدة) والتي تسقي الماشية داخل المدينة ومع هطول المطر المدرار – في أوائل الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين – لما يقارب التسعة أشهر. ولا يكاد يخلو بيت في المجلد من بضع بقرات حلوبات.



سوق المجلد :

يحتل سوق المجلد قوزاً (كثيباً رملياً) يمتد في شكل مربع أو مستطيل. وفي الجهة الشرقية المجاورة لمسجد المجلد الكبير كانت هناك بعض دكاكين الكمسنجية (وكلاء الشحن والترحيل) الذين يتولون شحن اللواري والشاحنات والحافلات ويتقاضون عليها عمولات (commissions) ومن هنا جاءت كلمة الكمسنجية. وكان أبرزهم عجاك جبران.

الجدير بالذكر أن سوق المجلد قد تحول من (دندور) علي الجلة بشارع المقدمة وكجيرة العام شرق المجلد عام ١٩٤٣ إلى موقعه الحالي.

وكان من أشهر السواقين: ود حمودة وود طربيش وود العالم ويعقوب ود الصول وآدم عمر (دوكي) وحامد أبو شعير والطالب محمد أحمد والتجاني ود الغنماية وأخوه أحمد ود الغنماية وسيد حسن سيد وإسماعيل الجزلي ومصطفى حجير (عربات طارن طير) وماهل دليل وعمر كوليه وعثمان روثمان وحسن أحمد خليل (البربري) ومهدي الرفاعي وعثمان جبريل القوني والنور خدود ولاحقا حسن بنز سائق بص (حافلة) المجلد - البابنوسة وبالعكس. ثم المقاهي والمطاعم، وكان من أشهر المطاعم مطعم أبو سراويل.

هذا، وقد دخل أحد الأعراب يوماً مطعم أبو سراويل. وكان مرتادو المطاعم آنذاك إذا قضوا على الملاح (الأدام) قد اعتادوا أن يطلبوا (زيادة) أو (وصلة) كما يفضلون تسميتها. وكان صاحب المطعم يستجيب لطلبهم. إلا أن أبوسراويل رفض أن يستجيب في ذلك اليوم لطلب البدوي الذي يبدو أنه قد أكثر من طلب (الوصلة). عندها وقف الأعرابي قائلاً: بلا حياء:

- أبو سراويل، المعنى آكل كجوم (بدون أدام) وبقروشي!!

وفي أحد الأيام قصدت وأحد أخوتي مطعماً لنتناول طبق فول. وهنا تبدو المسألة للسامع عادية جداً. ولكنها في الحقيقة كانت غير عادية، فقد كانت فعلتنا تلك تعبيراً عن رفض لموروثات المنطقة في تلك الأيام. فالمطعم لا يأكل فيه إلا الغرباء ومساعدية سائقي اللواري (الشاحنات) والصعاليك و(المقاطيع) حسب اللفظ المحلي. ولا يليق (بابن ناس) أن يأكل في مطعم.

وكان سبب تناولنا طبق الفول تحديداً هو أنه طبق وفد حديثاً إلى تلك المنطقة وانضم إلى قائمة الأطباق الأخرى. وكان طبق الفول حينذاك بخمسة قروش، ولما كنت أملك - أنا وأخي - ذلك المبلغ، فقد قررنا خوض التجربة الخطرة، إذ رأينا أنها تستحق المجازفة. ولكن لسوء حظنا تمت مشاهدتنا في ذلك المطعم وكانت النتيجة علقة (جلدة) ساخنة أنستنا طعم الوافد الجديد - الفول!!!

في طريقك إلى جهة الغرب وفي الضلع الشمالي نفسه التي تفتح دكاكينه جنوباً يقابلك دكان إبراهيم الخليفة ودكان الخواجة عيدو جورج الذي انتقل من الضلع الجنوبي الذي تفتح دكاكينه شمالاً. وحينما غادر عمنا عيدو جورج لاحقاً إلى البابنوسة احتل عمنا على بشير هذا المحل التجاري الذي يتوقف عنده امتداد هذا الضلع ليبدأ بدكان الفكي جبريل القوني، الذي شاهدت فيه - في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين - لأول مرة مروحة الريش التي تكون متدلية من سقف الدكان وملحق بها حبل يحركه شخص معين لهذه المهمة يمنة ويسرة لتجود بالهواء على من يجلس تحتها في قيظ الصيف. ثم دكان أحمد حامد القاضي وأحمد أبو شعير ودكان محمد ود الفكي ودكان بشير التجاني وغيرهم ممن لم تسعفني الذاكرة لتذكر أسمائهم في هذا الضلع الشرقي. ويفصل بين الضلع الشمالي والضلع الغربي فتحة هي أحد مداخل السوق للقادمين من جهة الشمال، من حلة أركويت.

ثم يبدأ الضلع الغربي الذي تفتح دكاكينه شرقاً بعدة دكاكين منها دكان علي شمو الذي كان مسؤولاً في فترة من الفترات عن البريد. والجدير بالذكر أن الشاعر الفحل مصطفى سند (رحمه الله) صاحب ديوان (البحر القديم) قد عمل في بريد المجلد لاحقاً أيضاً عام ١٩٧٦. ثم دكان يوسف عبدالله ودكان أبو عبداللطيف الترماي (عبد الرحمن عبد القادر الخبير) ودكان أبكر المنصوري ودكان الأخوين عمر حامد وسليمان حامد الذي يتوقف عنده امتداد هذا الضلع ويترك فرجة لدخول السوق، ثم يواصل بدكان عمنا بريمة حمودة (أبو السعاد) ودكان عبد السلام المحبوب الذي كان يملك الطاحونة الوحيدة آنذاك في المجلد، ودكان عثمان عبد الحفيظ وأحمد عمر صدرين وأخويه تيليه وآدم عمر، ثم دكان محمد الأمين (زعيم الشرفة) ودكان عبد الله سفنجة وغيرهم. ويفصل بين هذا الضلع الغربي والضلع الجنوبي فتحة هي أيضاً مدخل السوق للقادمين من الجنوب وحي دفاع وحي الجلابة الصغير الذي يسكنه أحمد أبو شعير وإخوته وعمر حامد وأخوه سليمان حامد.



المرحوم الشاعر مصطفى سند

يبدأ الضلع الجنوبي الذي تفتح دكاكينه شمالا بدكان يوسف الفران (الفرن الوحيد في المجلد آنذاك) ثم الجزارة، ثم عدة دكاكين صغيرة، ودكان محمد دودو (محمدو) ثم دكان عيسى صالح (البلف) ودكان مختار الذي يتوقف فيه امتداد الضلع ويترك فرجة لدخول السوق. ثم بعض الدكاكين مثل دكان يوسف دودو ودكان محمد مدني ودكان الخواجة عيدو سابقاً الذي أصبح فيما بعد محلاً للكمسنجية (وكلاء الشحن والترحيل). وكذلك يفصل هذا الضلع الجنوبي عن الضلع الشرقي فتحة هي مدخل للسوق للقادمين من الجنوب من حلة الفكي جبريل القوني وحلة الجلابة.

ويبدأ الضلع الشرقي الذي تفتح دكاكينه غرباً بعدة دكاكين، منها دكان صباح النور (السمكرجي) وغيره، ثم دكان الحاج دودو ثم بعض الدكاكين. ويبدو أن هذا الضلع أقل عمراناً من غيره. ويفصل بينه وبين الضلع الشمالي فتحة للقادمين من جهة الشرق ومن حلة الجلابة وحلة ولاد تويا تحديداً.

هذا، ويواجه الضلع الشرقي في الجهة الشمالية الشرقية شجرة (اللبخ) الكبيرة الجذع التي يعسكر تحتها العتالة (الحمالة) الذين كان معظمهم من الفلاتة، وتجاورها بعض أكشاك الحلاقين الذين كانوا بالإضافة إلى حرفة الحلاقة يقومون بالحجامة أيضاً. وكانت هناك بعض الأكشاك مثل كشك عمنا عمر جفينات وغيره. وفي نهاية هذه الأكشاك إلى جهة الغرب توجد مجموعة من أشجار شجرة بيضاء (أم عرقاً أبيض) وأشجار النيم التي تجلل هاماتها باللون الأبيض طيور السمبر والرهو، وغيرها من الطيور المهاجرة التي تفد إلى المجلد في الخريف فقط لتصنع أعشاشها وتضع بيوضها. وكنا كثيراً ما نصطادها بـ(النبلة). وكان أخي الصغير إسماعيل القوني أكثر الأولاد إصابة لهذه الطيور.

كان عمنا (إسماعيل الكنيجي) القمحي اللون، النحيف الجسم هو شيخ سوق المجلد. وكنا نراه يجوب السوق من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه يتفقد الأحوال ويدور على المحلات التجارية مدوناً الملاحظات.

وهناك صف ثان من الأكشاك أمام الضلع الجنوبي وأبرز تلك الأكشاك كشك عمنا بابو فاتح (أي باب الله فاتح) ويعقوب عبد الكريم (مردو) وكفتير وحمد وخالد جاه الرسول وبعض الجلابة، وتتخللها (أي الأكشاك) أشجار النيم. هذا الصف مواز لصف الأكشاك التي تواجه الضلع الشرقي.

ويحتل بعض الذين يفرشون بضائعهم على الأرض المساحات الفارغة التي تفصل بين هذه الأكشاك. ومن بين هؤلاء الذين يفترشون الأرض والعراء عمتنا كبرى (رحمها الله)، فقد كانت تحنو علينا حين نعود في استراحة الفطور فتجلسنا بجوارها وتجهز لنا شيئاً من الكسرة والبطيخ حسب مصروفنا فتشبعنا وتملأ جيوبنا بالفول المدمس والتسالي ثم تأمرنا بلطف أن نعود إلى المدرسة.

كان المصروف المدرسي آنذاك تعريفة (خمسة مليمات) ولكل مليم قوته الشرائية. وحينما ننفح قرشين (الفريني) نكون في قمة السعادة فنستأجر الدراجات الهوائية ونشتري أكثر من المعتاد. أما إذا زاد العيار عن ذلك وبلغنا خمسة قروش (شلنق) أو أكثر فعندئذٍ ننتقل تلقائياً إلى (الليلية) - وهي إيجار الدراجات الهوائية طوال الليل.

يواجه الضلع الغربي بعض الترزية (الخياطين) أمثال أعمامنا عايش وعياش تحت شجرة النيم الكبيرة، فيما يحتل معظم الترزية (البرندات) أمام الدكاكين الكبيرة. وكان بدو المجلد يطلقون على هؤلاء الخياطين اسم المكانية (من المكنة) أو الجكاكة/الشكاكة (الذين يشكون الملابس بالإبر).

ومما أذكره جيداً أن أخانا (آدم القوني) أتي بمكنتي خياطة اثنتين من ماركة (سنجر) الشهيرة كادتا تدمران مستقبلي التعليمي. أما أخي عبدالله فقد أعجبته الفكرة. وبعد أن تشاور الكبار، راقت لهم فكرة أن نعمل أنا وعبد الله في المكنتين والدكان. فهي مهنة ظريفة وتدر مالاً لا بأس به، (والواحد منا جالس في الظل يحتسي أكواب الشاي). وكان هذا التصوير منتهى الرضا والطموح!!

كانت صواني (سُفَر) الغداء التي تتكون غالباً من الكسرة والسلطة واللحمة المحمرة وأم رقيقة، والمغطاة بالأطباق الجميلة المزخرفة المصنوعة من رقائق سيقان بعض النباتات المعروفة محلياً باسم (أم حريرة)، على رؤوس الخدم والخادمات، من المظاهر المعتادة بعد صلاة الظهر في سوق المجلد، حيث ترى الخدم والخادمات يذرعون السوق من كل الاتجاهات إلى دكاكين معينة. وكان أكثر هذه الدكاكين مقصداً لهؤلاء الخدم دكاكين الجلابة وتجار السوق الآخرين الذين يواصلون العمل إلى قبيل غروب الشمس.

أما الشحادون العُمي - رجالاً ونساء فكانوا يطوفون بقيادة أطفال صغار يمسكون بأطراف العصي ويسيرون أمامهم بينما هم يمسكون بالطرف الآخر - يطوفون الدكاكين والأكشاك من أول الصباح إلى المساء يسألون الناس. فمنهم من يعطى ومنهم من يقال له: (الله كريم) فيواصل طوافه إلى محل تجاري آخر.

ويحتل الصرماطة (الجزمجية أو صانعو الصرمات) وصانعو الأخراج (جمع خرج وهو حاويتان من الجلد توضعان على جانبي الحمار مع وجود فتحتين للخرج في وسط السرج) المنطقة التي تقع جنوب الجزارة. وأكثر الصناع من أعمامنا الفلاتة. وكان عمنا جبريل أشهرهم في صناعة الأخراج. أما رواكيبهم فقد كانت تعج بالناس لحلاوة ألسنتهم وطيب معاملتهم ومعشرهم وحرصهم على أداء الصلوات في وقتها وسلوكهم الديني المتميز.



كنتين الخواجي عيدو :

كان عمنا عيدو جورج مسيحياً من أصول مصرية، وقد تكون شامية، مربوعاً ومكتنز الجسم. وهذا الاسم شائع تماماً في مصر (أم الدنيا) وفي منطقة الشام. كما كان أولاده من عمتنا وداد يدعون مكرم ونبيل (بلبل) وعياد وجورج (جوجو) والياس (أبو اثنين) وهدى الخ...

أطلق الناس على عمنا عيدو لقب الخواجي لبياض بشرته الواضح وسحنته غير المعهودة في تلك المنطقة. وكان لعمنا المذكور كنتين (محل تجاري/بقالة) مميز بمنزله الواقع في أول الركن الجنوبي لحلة الجلابة تنبعث منه روائح طيبة لم نعهدها في المنطقة إلا حين ذهبنا إلى رجل الفولة ووجدنا ما يشبهها عند الخواجة ديمتري.

فقد كانت المعروضات في كنتين الخواجي عيدو غريبة بعض الشيء على أهالي المنطقة. فهناك الأجبان بأنواعها والزيتون وبعض المشروبات الروحية القوية (المسكرة). وكان زبائنه من طراز خاص من الناس ليس كثيراً في تلك المنطقة. فلم يعتد عرب البادية على الجبن والزيتون وأطايب المدينة ناهيك عن المسكر في منطقة جلّ أهلها من الأنصار.

جاءت أعرابية يوماً إلى كنتين عمنا عيدو لتشتري أرزاً. وكان عمنا واصف في المحل فسألته البدوية قائلة:

- هاي الخواجي برزكو - بكسر الراء (أي ألديكم أرز؟)

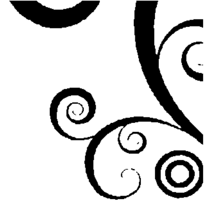
فأجابها عمنا واصف قائلاً:

- أيوه، رز (بضم الراء) في (أي موجود).

فقد كان النطقان مختلفين تماماً. نطق البدوية به تخفيف ونطق عمنا واصف به تفخيم.

انتقل عمنا عيدو أولاً من أبيي إلى المجلد، ثم من المجلد إلى البابنوسة في أواخر الستينيات من القرن العشرين ثم من البابنوسة إلى الأبيض بجوار نادي الخريجين وفولة الحداحيد. وله أقارب أقباط في أم درمان حيث تزوج بعض أبنائه من هناك.

المستغرب أن أبناء الخواجي عيدو أثناء سني الدراسة كانوا يصلون ويصومون ويحفظون القرآن. ويبدو أن الكنيسة قد مارست ضغوطاً على عمنا عيدو حينما تخرج أبناؤه النجباء من جامعة الخرطوم لبس على أثرها إخواننا الأعزاء الصليب على أعناقهم!!



شخصيات غريبة

أ. أقي:

كان (أقي) أحد تلك الشخصيات التي لازمت سوق المجلد معظم الوقت. ويبدو أنه قد علق في الرقم مائة (١٠٠) فكلما سألته عن شيء يجيبك بأنه مية (مائة). ولا ندري من أين جاء بهذا الرقم وما مناسبته وسر تعلقه به!!

أقي شاب من الدينكا مخبول أو معتوه. قيل إنه كان من ضمن عسكر الحرب العالمية الثانية، وأنه فقد عقله أثناء المعارك التي شهدتها تلك الحرب ولكن لا أحد يؤكد تلك المقولة. وقد نسجت حوله عدة أساطير، ولكنا وجدناه منذ أن تفتحت أعيننا على العالم في سوق المجلد يرتدي ثياباً رثة ويستجدي الناس بصورة ثابتة، غير مكترث لإجابة سؤاله أو رفضه. والغريب أنه كان لا يتورع عن شرب المياه الملوثة!! وهو شخصية مسالمة للغاية. لذا أحبه الناس وخصوصاً الأطفال الذين يكثرون من مزاحه من غير خوف منه!!!

- أقي كم اليوم؟
- مية!!!
- أنت ماشي وين؟
- مية!!!
- أكلت متين؟
- مية!!!

وهكذا تستمر إجابات (أقي) بهذا النسق الرتيب.

ب. بابو جحجول:

هو ابن العالم الكبير (الفكي جحجول) - رحمهما الله -. وبهذا الشاب مس من الجنون يقال إنه أصابه بسبب لعنة حلت به من والده. وكذلك حيكت حوله أساطير كثيرة كغيره من المعاتيه.كان بابو جحجول يجوب سوق المجلد والأحياء بمشيته المعهودة السريعة، القوية، وكان يستجدي الناس أحياناً ليصرف ما يعطونه إياه في الخمارات. وقد تكون الخمور هي التي ذهبت بعقله!! فهو شخصية متميزة بارتياده لأماكن اجتماعية كثيرة مثل: السوق، نادي المجلد الثقافي الرياضي الاجتماعي، مباريات كرة القدم، والحفلات. فهو يدري ولا يدري!!!

ولبابو جحجول طرائف عديدة، فهو تقريباً من المسيرية القلائل المعروفين بشرب الخمر آنذاك. كان يحتاج يومياً لمبلغ من المال ليدفع تكاليف الخمر التي أدمنها. وكان الناس يرفضون منحه المال لشراء الخمر فيرفع خمسة قروش (شلنق) في يده قائلاً:

« هذه للخمر. ولكني بحاجة لقروش أخرى للأكل.»

فيتبرع أحدهم بمنحه بعض المال. وعندها يقول:

« شوف الراجل المغفل ده! الفرق شنو. يعني ما كلها قروش وحأدفعها للمريسة والأكل سوا.»

يتميز بابو جحجول أيضاً بجرأة يفتقدها كثير من الناس. وقد يكون مرد تلك الجرأة رفق كبار القوم به. إذيحكى أنه مَرّ يوماً بعمنا الناظر بابو نمر وهو جالس مع عدد من أعيان المسيرية فقال موجهاً كلامه لعمنا بابو نمر:

«بابو نمر. أنت نمر على الرعاع القاعدين معاك ديل مش علينا نحن.»

ناداه (دعاه) عمنا الناظر بابو نمر ومنحه خمسة قروش وطلب منه أن يذهب ويغسل ملابسه فتسلم المنحة شاكراً. لكن تفتق ذهنه عن تعليق أثار موجة من الضحك وسط الحضور قائلاً:

« آي تشترينا بالدولار!!!»

ومن طرائفه أيضا أنه تفوه بكلمات تحت تأثير الخمر وبصوت عالٍ ضد حكم الجنرال نميري فاعتقله زبانية نظام نميري، استغرب أهل المجلد تلك الخطوة وتحدثوا إلى رجال الأمن وأخبروهم بأن بابو جحجول رجل معتوه ومخمور طوال الوقت ولا يعي ما يقول وأن كلامه (كلام مريسة ساكت) إلا أن زبانية ذلك النظام رفضوا إطلاق سراح بابو جحجول وأركبوه السيارة بغية ترحيله إلى الأبيض.

وقد أحتشد عدد كبير من الناس أمام نقطة البوليس، وهنا قال بابو جحجول للجمهور:

« افرنقعوا، أول مرة تشوفوا معتقل سياسي؟»

أثناء إحدى جولاته في سوق المجلد عرج بابو جحجول على دكان الفكي جبريل القوني الذي منحه مبلغه المعتاد. فخطا خطوات ثم شاهد الفكي جبريل - رحمه الله - يتحدث إلى إحدى عماتنا. ويبدو أن عمتنا استاءت من كلام الفكي جبريل فأدبرت وهي غاضبة، فلمحها بابو جحجول وأدرك بفطنته عندما شاهد الفكي جبريل يناديها أنه يريد أن يسترضيها، ولكنها مصرّة على عدم تلبية النداء. عندها قال لعمتنا (الزعيلانة) زينب أم الطاهر - رحمها الله:

- بالله شوف المرة دي. الفكي جبريل يناديك وأنت ماشة!! رضيت بالهم والهم أباني!!!

فلم تتمالك عمتنا أم الطاهر إلا أن ضحكت تعجباً من قول بابو جحول المخبول وعادت إلى الفكي جبريل وهي غير مصدقة هذا التعليق الساخر!!!

ت. الجنقاي الطويل :

هذه شخصية (دينكاوية) فارعة الطول (أكثر من مترين) تمر من أمام المحلات التجارية وتطل من فوق الحيشان. وفي بعض المرات يمزح بوضع الأطفال فوق (البرندات) أمام الدكاكين ويذهب في حال سبيله، فيبدأ الأطفال بالبكاء والصراخ ويستنجدون بالمارة لإنزالهم، لذا كان الأطفال أكثر الناس تفادياً لهذه الشخصية الطويلة. وهو أيضاً من الشخصيات المسالمة جداً. وكغيره من هذا النوع من الشخصيات يظهر ويختفي كالشبح، فلا تدري من أين جاء وإلى أين ذهب؟!



سوق الخميس:

سوق المجلد (سوق فجغتيني) - أي دعستيني. وسمي كذلك لكثرة دعس الناس على أقدام بعضهم بعضاً، ومن كثرة توافد خلق الله عليه يوم الخميس من كل أسبوع. وهذا السوق يعج بعرب البقارة الرحل، ويتأهب له الجلابة (التجار الذين يجلبون البضائع، وهم غالباً من التجار الذين وفدوا إلى المجلد من شمال السودان وغيره) بعرض جميل لبضائعهم.

ولهذا السوق دوي تسمعه من بعيد. ويتباين فيه بياض ثياب الرجال مع سواد ثياب النساء (ثوب الزراق) المتنيل بنيلة حقيقية. وتسمع أصوات البدويات وهن على عجلة من أمرهن كعادتهن يحثثن التجار على الإسراع بتلبية طلباتهن. فتسمع:

- هاي مو ليك، أنطيني رأس سكر ووقية شاي.
- هاي التمنة بكم؟
- هاي النعال الكبس بكم؟

وهناك مجموعة من البدو يشمون الشاي ويمضغونه ثم يضغطون على أوراقه ويكسرونها بالقرب من آذانهم ليحكموا عليه قبل البيع. وهذا شغف فريد (قرياف) بالشاي يكاد يصل حد الإدمان. وقد اشتهرت قبائل البقارة بحبها لشرب الشاي وجلسات (البرامكة). وهي جلسات لشرب الشاي بطقوس معينة فيها الناظر والشيخ والعمدة والخفير والجزاءات والغرامات - والتي يشترى بها سكر وشاي أيضا لجلسات مقبلات.

تطبق هذه الجزاءات والغرامات متى ما أمسكت كوب الشاي بطريقة خطأ أو رشفته خطأ أو كانت ثيابك متسخة

أو أتيت بفعل منكر في نظرهم غير معهود عندهم مثل اصطياد ورل أو قط وغيرهما من الحيوانات التي يرون في اصطيادها دناءة.

وكذلك كانت جلسات (الشيخات)، وهن أنظف نساء الفريق(الحي). فقد كان عرب البقارة يقدرون الشجاعة والنظافة كثيراً. فبنت الرجل الشجاع مرغوبة جداً. والرجل الشجاع هو الذي يحسب في بطنه عدد من كؤوس القرع (اليقطين) وهي دلالة على العمليات الجراحية التي يجريها نطاسة هؤلاء البدو أثناء وبعد المعارك الكثيرة بلمّ مصارين (أمعاء) الرجل داخل جوفه وخياطتها وصب السمن الحار على الجرح لتعقيمه أو الكي بحربة أو (محور) أو (سبنديه) على موضع الجرح، فإن عاش فالحمد لله وأن مات (فيومه تم) والحمد لله.

يتسابق الشباب للزواج من بنت الشجاع مهما كانت قبيحة، وكذلك بنت (الشيخة) المتميزة بنظافة نفسها وبيتها وآنيتها ومحيطها وحلو حديثها.

وقد ظهر تمسك عرب البقارة بالنظافة جلياً عندما عمل بعضهم في المدن، فكانوا يتخيرون الوظائف التي لا تتسم بالاتساخ مثل: الجيش والحراسة والخفارة رغم قلة مالها (ليس لكسل فيهم ولكنها ترضي طموحهم بإصدار الأوامر وتبقيهم نظيفين دائماً).

هذا، وقد غنت الحكامات في شبان القبيلة الذين التحقوا بالجندية، فعاد بعضهم وقضى بعضهم نحبه ولم يعد، حيث قالت:

- ديل صبحوا (أي راحوا شرقاً حيث تشرق الشمس صباحاً) وديل غربوا وديل جكوا (شكوا/غرزوا) الريش (على قبعات الجندية) بتن (ثاني) ما جوا (لم يأتوا).

ومن المضحك المبكي أن عمتي سعيدة بنت حامدين طه بقادي - رحمها الله - رأت فجأة أثناء قدومها بالقطار من المجلد، رأت في محطة الخرطوم وهي تهم بالنزول من القطار، بعض الشبان الذين تعرفهم وهم يقومون بأعمال (العتالة) - الرفع والحمل - في مخزن السكة حديد، فذهبت إليهم مباشرة وعاتبتهم على عملهم هذا الذي لا يليق بهم كأولاد عرب، فما كان من المساكين إلا أن غادروا العمل إلى المجلد وكانت سُبة وكبيرة من الكبائر في عرف القبيلة.

وفي سوق فجفتيني (سوق الخميس) يطالعك شبان البقارة التائهون خيلاء داخل السوق الذي يذرعونه جيئة وذهاباً، يتغزلون في البدويات ويعرضون فتوتهم وقد ازدانت صدورهم أو صديرياتهم بالمرايا الدائرية الصغيرة وما يشف من الثياب والجنيهات الظاهرة من هذه الثياب. وزينت سراويلهم (بتكة) ملونة. ووضع

بعضهم (الغفار) بألوانه الزاهية على رؤوسهم كما يفعلون مع الخيل تماماً. كما وضع بعضهم عمائم كبيرة على رؤوسهم. وصوت المراكيب (الأحذية) الحمراء المصنوعة من جلود الأبقار يحدث صريراً ويكون ذلك غالباً عند المشي، بسبب جدة هذه المراكيب أو صب الزيت داخلها ليكسبها ليناً وطراوة. وتراهم وهم يحملون السياط والعصي الجميلة المزخرفة وعصي الخيزران.

كما يدور بائعو الشاي بكفتيراتهم (أباريقهم) على المتسوقين رجالاً ونساء. يجلس النساء وهن يغطين وجوههن في حالات احتساء الشاي والماء. وتستعد الشابات منهن استعداداً خاصاً بالأزياء والمسوح (ما تمسح به بشرة المرأة) والزينة والمشاط والتربال وهو كريات صغيرة (دلز أو درادم) من مزيج من العطور مع بعض الخلطات تكور وتجعل أسفل كل ضفيرة ممشطة لتبقي الشعر متدلياً بعد (تزنج) العرب وقصر شعر الحسناوات. وأصبح الشعر (سلام زباط) أو (من الأضان وعيطة). وكانت تلك الاستعدادات تبرز حقيقة جمال نساء عرب البقارة. إنه مهرجان من الألوان، آية في الروعة والجمال.

كان عمنا التاجر مختار يعمل في تجارة العسل في المجلد. وكان يحتفظ بعدد كبير من الصفائح (علب الصفيح) الممتلئة بالعسل في مخزنه خلف محله التجاري، وفي أحد أيام سوق الخميس (سوق فجفتيني) الذي يعج بالناس من كل حدب وصوب، فتح عمنا مختار مخزنه ليدخل المزيد من الصفائح. ولم يكن يدري أن النحلة أم دلو (التي تتكور مثل دلو الماء) قد بنت في ذلك المخزن وتكاثرت بدرجة أذهلته عندما انطلقت أفواجها إلى خارج المخزن وانتشرت في السوق فجأة.

وما هي إلا دقائق حتى تراكض الناس - رجالاً ونساء - إلى خارج السوق. وأغلق البعض محلاتهم التجارية عليهم. وركض البعض إلى بوطة (غدير الماء) غريقة النقرة القريبة من السوق ونزلوا فيها.
وقد تأذى كثير من الناس من لسعات النحل بدرجة لا تصدق ومن بينهم عمنا مختار نفسه. وخلا السوق تماماً من الناس. وكان يوماً لا ينسى في سوق الخميس (سوق فجفتيني)!!!



معروضات سوق الخميس :

غالباً ما تكون معروضات السوق في المحلات التجارية من المواد التموينية المعتادة: السكر والشاي والبصل والزيت والملح والشطة والملابس الجاهزة (التي يخيطها الخياطون المحليون) والأقمشة مثل: الدبلان والدمورية وزن عشرة والبفتة وأثواب الزراق للنساء والفركة أم صفيحة وغيرها من الحاجيات.

ويعرض العرب الرحل منتجات الأبقار كالحليب واللبن والروابة (اللبن الرائب) والسمن والجلود. وثمار الأشجار البرية كالصمغ وأبوليله والحميض وأم بلبل وأم مديكه والجوغان والأرز أم جبيطي (البري) والستيب من برك الماء. والعسل والصمغ والكركدي والفول أبو القوي والفول السوداني والفول المركب والفول المدمس والعنكوليب والتبش والعسل وأم كجيجي والشيحة وعرق أم أبيض والكركر والنبق والدليب والبطيخ وأم دقلقل والدوم إلخ.



وقد حفلت مدوناتنا الطبيعية في المدرسة بهذه الأشياء حتى صار يكتبها بلا تردد كل من غاب عن المدرسة من دون أن يسأل عن صحة وجودها لأنه مستيقن من وجودها؛ في السوق كتأكده من وجود نفسه.

السوق انشرط :

يستمر التسوق حتى العصر حيث يبدأ البدو في مغادرة السوق - وخصوصاً النساء اللائي يعتلين الهوادج الموضوعة على ظهور الثيران مع أطفالهن وحاجياتهن، فيما يكون الرجال على ظهور الخيل من خلفهن وأمامهن.

وبعد أن يبتعد البدو مسافة من المجلد، يعود الشبان منهم ويقومون بجولة خاطفة بخيلهم في سوق المجلد، وتسمى هذه الجولة (السوق انشرط) أي انشق. فيأخذون عنوة وتحت تهديد السلاح كل ما يعجبهم من طاقات (لفات) الدمور والبفتة والدبلان وأنواعاً من الأقمشة الأخرى والمواد التموينية مثل: السكر الذي كان يصنع آنذاك في شكل مخروطي يسمى (الراس) والشاي وغيرها من المواد من الجلابة وتجار السوق. ثم يتركون السوق وسط فوضى عارمة!!

أخبرني الكاتب المسرحي الكبير حمدنا الله عبد القادر قائلاً: (كان الإنجليز يحتاطون لهذه الجولات الفوضوية، ولكن يبدو أن مغامرات البدو لا تستجيب لتلك الاحتياطات؛ فقد صارت ظاهرة عجيبة في تلك الأيام!!!)





نادي المجلد :

وعلى بعد خطوات جنوب (دونكي المركز) يوجد نادي المجلد الثقافي الرياضي الاجتماعي الذي ينتعش بقدوم الطلبة في الإجازة الصيفية. فتكثر المباريات بين الفرق المتعددة (فريق الجهاد والأمل والزهرة). وتقام المحاضرات في المساء بمباني النادي وكذلك المسرحيات. وينتظم الطلاب في أسابيع نظافة المدينة حياً حياً. ويعج النادي بالطلاب وتزدهر مباريات الورق (الكنكان) و(الوست) و(الهارت) ويضج النادي (بالاسنافيك)!!

الجدير بالذكر أن أول رئيس لنادي المجلد الثقافي الرياضي الاجتماعي هو عمنا الخواجي (عيدو جورج).

وفي أوائل الستينيات من القرن العشرين أقمت معرضاً للفنون الجميلة بنادي المجلد، وأحسبه أول معرض يقام في تلك المنطقة، وكان ذلك المعرض يضم لوحات من الطبيعة وبورتريه (رسم الوجوه) وبعض الطباعة على الأقمشة، وهو نمط من الفنون كان سائداً عند ربات البيوت اللائي كن يطلبن الرسم أو الطباعة على الملايات (الشراشف) والثياب، ويقمن بحياكة تلك الرسومات بصفتها زينة.

وقد اشترك معي في ذلك المعرض الفنان الرائع أحمد بريمة حمودة ببعض اللوحات الطبيعية الرائعة وكذلك الفنان التوم جبريل. وزاره عدد كبير من الناس على رأسهم عمنا الناظر علي نمر، رحمه الله، وكان (أي المعرض) ومضة رائعة من الومضات الحضارية في تلك المنطقة.

زامل أحد الطلاب زميلاً له في لعبة (الكنكان). وأثناء اللعب ضرب الطاولة بورقة من أوراق اللعب وقال من دون

أن يقصد شيئاً: وست مورلاند (وهو اسم قائد القوات الأمريكية آنذاك في جنوب شرق آسيا). فما كان من أحد اللاعبين في الجهة الثانية إلا أن رمى بأوراقه قائلاً:

- تكشف أوراقك لزميلك بالإنجليزي!!!

ظن هذا اللاعب أن الطالب حين نطق باسم (وست مورلاند) كان يغش ويحاول إطلاع زميله على ورقه، فبهت الطالبان ولم يستطيعا تبرير فعلتهما!!!!



الشفخانة :

يفصل بين الشفخانة (المشفى) الوحيدة ومنزل الناظر بابو نمر من جهة الغرب شارع يؤدي إلى داخل حي أركويت. ويجاور هذا المشفى عدد من المنازل الحكومية. وتتضمن تلك الشفخانة عنبراً واحداً. ومن أشهر من عملوا فيها (الشفخانة) عمنا المساعد الطبي شميلة وعمتنا الممرضة الرضية.

كانت تلك الشفخانة خالية من الأدوية إلا من مرهم القوباء (القوب) وشراب (البزموت) و(الكينا) اللذان يقدمان في ذلك الكأس المعدني الفريد لكل مرتادي هذه الشفخانة، وبعض حقن البنسلين. كما كان بعض التجار يتاجرون في بيع بعض الحبوب الطبية ومن بينها الكينا وفتايل البنسلين وحبوب السلفا إلخ.. ثم هناك غرفة الغيار ووضع الضمادات بعد تنظيف الجروح.

كان الدكتور عبد الله عبد الكريم جبريل وغيره من طلاب كلية الطب آنذاك يأتون في إجازاتهم الصيفية ببعض عينات الأدوية المجانية من صيدليات العاصمة لمعالجة المرضى في تلك الشفخانة التي يداومون على العمل فيها وفي منازلهم وهي لفتة بارعة دأب عليها عدد من طلاب كلية الطب بجامعة الخرطوم آنذاك ومنهم الدكتور عبد الكريم جبريل القوني والدكتور جلال يوسف الدقير وغيرهما.

دخل أبي - رحمه الله - يوماً شفخانة المجلد يشكو من بعض الألم في معدته. فما كان من عمتنا الرضية إلا أن ناولته كوباً من أكواب الكينا، فنظر والدي حوله فوجد أحد أبناء الدينكا يستفرغ (يتقيأ) أمام باب الغرفة وبيده كوب كينا فارغ. فاتجه والدي إلى عمتنا الممرضة الرضية قائلاً:

- تمي الجنقاي (اي أقضي على هذا الجنقاي) الجعرتي ده (الذي تركته يجأر).

ومد إليها كوب الكينا المعبأ وخرج وسط ضحكات الرضية التي لم تتمالك نفسها من هذا المشهد!



سوق العيش:

يقع سوق العيش خلف الضلع الغربي من سوق المجلد وجنوب نادي المجلد الثقافي الرياضي الاجتماعي. وكان معظم تجاره من (أولاد توبا). أما المعروضات فكانت تتكون من: الدخن والذرة والماريق والزناري. وأحياناً الفول السوداني والفول أبو القوي والسمسم. وكنا نطلق على بعضهم اسم (طاشر)، لأن التاجر منهم يظل يردد طاشر، طاشر (من أحد عشر إلى تسعة عشر) وقد تجاوز العشرين ولا يدري المزارع صاحب الحبوب كم مداً بلغ هذا المطفف!



الطاحونة :

جنوب سوق العيش الذي يحتل مكانه خلف الضلع الغربي لسوق المجلد نجد طاحونة الغلال الوحيدة آنذاك(طاحونة عبد السلام المحبوب) التي تمد كل المجلد وما جاورها بدقيق الذرة والدخن. وتتزاحم النساء والبنات والأطفال وخدم المنازل أمامها كلٌ يحاول إنهاء مهمته قبل الآخر فيما يجتهد عمال الطاحونة المبيضة وجوههم وأجسادهم وملابسهم بالدقيق في إنجاز الطحين تحت قعقعة الطاحونة وضجيجها.

كانت الطاحونة بجانب طحنها للغلال: الذرة والدخن والماريق والزناري وغيرها، تعمل بصفتها شاحنة كهرباء لبطاريات الراديوهات التي وصلت حديثاً إلى مدينة المجلد. كما كان يقصدها البدو أيام سوق الخميس حيث يطحنون مؤنهم من الطحين. لذا، فقد كانت تلك الطاحونة أكثر اكتظاظاً أيام الخميس من غيرها من الأيام.

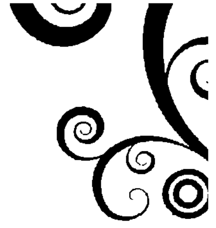


زريبة البهائم :

تحتل (زريبة) البهائم - المواشي - التي تقع جنوب الطاحونة ذلك السهل الطيني الممتد شرقاً من مدرسة البنات الأولية وجنوباً إلى مشارف حلة الجلابة. ويفد إلى زريبة المواشي البدو بثيرانهم ومواشيهم للبيع من أجل تسديد الضرائب ومن بينها ضريبة (الدقنية) التي فرضها المستعمر على كل شخص نبتت لحيته، ومن أجل شراء مقاضيهم من (سوق الخميس).

ويقصد الزريبة الجزارون أيضاً لانتقاء ذبائحهم خلال الأسبوع. ومع دوي سوق المجلد أيام أسواق الخميس يشنف أذنيك خوار الأبقار والثيران وثغاء الضأن والماعز ورغاء الجمال، وكذلك أصوات السماسرة - الذين يجسون الذبائح من ظهورها وأذنابها ويفتحون أفواهها ليعرفوا أعمارها - التي تتخلل هذه الأوركسترا العجيبة!!

كانت (المشاعلة) من التقاليد الموروثة في المنطقة. والأصل في هذه العادة أن يشعل من فقد إحدى أبقاره أو أغنامه أو أي حيوان آخر مشعلاً في الليل حاملاً قناة حربة طويلة على كتفه، معلقاً في آخرها كتاب الله ويطوف بالفرقان أو الأحياء منادياً: كتاب الله جاكم (أي استحلفكم بالله). أبو عيناً شافت أو أبو أضاناً سمعت (أي من رأت عينه أو سمعت أذنه). فمن رأى أو سمع يقول: كتاب الله بره (أي لا نكتم شهادة) ويدلي بما شاهد أو سمع.



الحدادون :

يحتل الحدادون منطقة تقع جنوب زريبة البهائم هي منطقة المجلد الصناعية حيث توجد كرانكهم (جمع كرنك وهو بناء من القش مستطيل القاعدة ومنحدر السقف من وسطه إلى الجانبين) حيث تتم صناعة جميع الأدوات الحديدية التي يستعين بها إنسان المنطقة في حياته اليومية. فهم يصنعون الجراية/الملود للحرث والفؤوس والسكاكين والحراب بأنواعها: الجلكاية (الحربة الكبيرة) والطبيقة والكوكاب السلجاي والشنقة؛ والمخرز والمنقاش وغيرها من الأدوات الحديدية.

يسميهم الأهالي (بروكلا) أو (جنق جنق) كما يحلو للدينكا تسميتهم. ولهذه المنطقة الصناعية ضجيج، بالإضافة إلى الأصوات التي يحدثها الضرب على الحديد ونفخ الكير. ومعظم الذين يعملون في هذه المنطقة الصناعية من ولاد (أولاد) سالم الذين امتهنوا هذه الحرفة أباً عن جد.



الجزارة والمناصيص :

يتزود الجزارون بالبهائم من زريبة مواشي المجلد في الأيام العادية وأيام سوق الخميس خصوصاً حيث يكثر المعروض من البقر والضأن والماعز. وكانوا يبيعون اللحوم آنذاك بالوقة (تعادل ٢ كيلو وربع الكيلو) بخمسة قروش. ورغم تشديد الجهات الرسمية على صحة البيئة إلا أن الجزارة كانت - خصوصاً في العصر حيث تبقى (الكمونية) ولحوم الحيوانات التي لم يتم شراؤها - إحدى مواطن الذباب.

كانت استراحة رجال البقارة الذين يحبون أكل اللحوم كثيراً، بجانب الجزارة حيث شواء المناصيص (شيش كباب) - ولكنها هنا من أغصان الشجر - التي تخترق قطع اللحم وتغرس في الأرض بشكل دائري مائل حول الجمر الذي يتوسطها حتى تستوي.

يأتي البدوي فيتناول عدداً من هذه المناصيص (العيدان - الأغصان) التي عليها قطع اللحم المشوي فيغمس الشواء في الشطة أو الدقة (شطة وملح مع أشياء أخرى مدقوقة) ويلتهمها. فترى البدو وهم جلوس حول هذه المناصيص كل ممسك بسكينه ومنهمك في تقطيع الشواء.

ومن طرائف الأشياء أن أحد الجزارين ذبح يوماً جملاً. فانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم في المجلد بأنه يوجد بالجزارة لحم جمل فلم يشتر أحد لحماً من الجزارة في ذلك اليوم حتى ولو كان لحم بقر أوضأن أو ماعز، خشية أن يكون لحم جمل.

لم نكن نستغرب هذا الوضع آنذاك، فقد أدركنا فيما بعد، أن عرب المجلد والأجيال التي تلت جيل الأبالة،

لم يعجبهم الجمل ولم يستسيغوا لحمه رغم وجود عصارات زيت السمسم والفول في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين والتي تدور بها الجمال!! فقد تحول العرب إلى بقارة بعد أن كانوا أبالة أو جمالة - حين قدومهم إلى هذه الأراضي لأول مرة.

الرياضة في المجلد :

كان يوجد بالمجلد ثلاثة فرق لكرة القدم في الستينيات من القرن العشرين هي: نادي الجهاد ونادي الأمل ونادي الزهرة وذلك على الرغم من عدم وجود دور لها أو دار رياضة.

١. نادي الجهاد:

يحتل ميدان نادي فريق الجهاد ذلك السهل الطيني المنبسط بين الدونكي الأخيضر وحلة الجلابة. وهو أبو الأندية وأقدمها في المجلد.

ويضم نادي الجهاد تشكيلة من اللاعبين من ألوان الطيف الاجتماعي في المجلد أمثال بشتنة محمد سالم (منيل) وآدم محمد سالم، ومحمد أبو عين من فريق ولاد توبا وبعض اللاعبين من حي فلاتة، وعبد الله عبد الكريم جبريل وأحمد بيلو من حي الجلابة وبعض الأحياء الأخرى .

٢. نادي الأمل:

أما نادي فريق الأمل فمعظم لاعبيه، في ذلك الوقت، من تجار المجلد - أي فريق أولاد الجلابة - رغم وجود مجموعات أخرى من غير الجلابة. ويتميز فريق الأمل بأنه الفريق الأكثر مالاً رغم حداثته.

ويقع ملعب نادي الأمل غرب ميدان نادي الجهاد ومجاوراً له تقريباً بين السوق (الذي يتوسط قوزاً «كثيباً» من

الرمل كان إذ ذاك مزرعة لحميدان الجعيلي الذي يمت بصلة قربى لعائلة عمنا الناظر بابو نمر) والمدرسة الغربية.

وكان من بين لاعبي نادي الأمل مكرم عيدو جورج وجبريل عثمان وحسين جبريل القوني وعلي أبو شعير ومحمد حامد وفضيلي جماع (الجناح الخطير) وعلي جماع (المحاور البارع) والتجاني عثمان الأسيوطي (جمل ياكل شوك).

٣. نادي الزهرة:

نادي الزهرة هو أحدث هذه الفرق آنذاك. ويضم خليطاً من الجماهير واللاعبين من فريق الناظر بابو وهم: نمر علي نمر، وبكر علي نمر، ومن فريق دفاع التوم النور (خال إدوارد لينو القيادي في الحركة الشعبية) والملقب بزلط. وبعض اللاعبين من حلة الفكي جبريل وهم: أحمد جبريل علي مرعي ومحمود جبريل القوني.

هذا، وقد اتخذ نادي الزهرة من جانب السهل الغربي المنبسط القريب من مدرسة المجلد الأولية للبنات ميداناً له، حيث يواصل السهل امتداده شرقا إلى مشارف حوش أحد كبار أعيان المجلد وأبنائها الأوفياء: أحمد أبوشعير - رحمه الله رحمة واسعة.

وتنتعش هذه الفرق الكروية مع قدوم الطلاب في العطلات الصيفية حيث يزودونها بالفنايل والكرات والشباك المنسوجة والكؤوس مثل: كأس المرحوم آدم محمد بشار (الذي جمعت ثمنه خلال عام من زملائي أبناء المجلد بمدرسة خورطقت الثانوية تخليداً لذكراه). كما كان هناك كأس الناظر بابو نمر وغيرهما من الكؤوس التي تتبارى عليها الفرق.



المسجد الكبير :

من أبرز المعالم في المجلد المسجد الكبير الذي يقع في الجانب الشرقي من سوق المجلد بالقرب من دكاكين وكلاء الشحن والترحيل (الكمسنجية) حيث يؤمه المصلون من داخل السوق، ومن موقف الشاحنات والبصات (الحافلات)، ومن حلة الجلابة التي تقع شرقه مباشرة. وكانت تقام فيه صلاة الجمعة من كل أسبوع.

لم تكن مساحة ذلك المسجد كبيرة قياساً بمساجد اليوم، ولكنه يعدُّ كبيراً آنذاك. ويضم المسجد الكبير ساحة تقع أمامه من الجهة الجنوبية حيث يؤدي (التجانية) أيام الجمع بعد صلاة العصر إلى المغرب طقوسهم وأورادهم وهم جلوس يذكرون الله جماعة. وطائفة التيجانية هي الطائفة الأكثر انتشاراً في غرب السودان وتمتد إلى الجزيرة والحدود الشرقية من السودان.

الجدير بالذكر أن الشيخ الجليل جبريل عبد الكريم، والد البروفسير الفاضل عبد الله عبد الكريم جبريل، قد أورد في إحدى مذكراته أن المسجد الكبير قد تم تأسيسه عام ١٩٤٣م.

كان الإمام الراتب لمسجد المجلد هو الفكي جبريل القوني وكذلك هو إمام الجمعات وصلاة الاستسقاء - التي كانت تقام في ميدان فريق الجهاد لكرة القدم - وصلاة العيدين وغيرها من المناسبات الدينية. وقد خلف الفكي جبريل القوني القاضي حمدون، ثم حسن أبكر - رحمهم الله جميعاً.

كما كان بشير التجاني، خال الوزير جلال يوسف الدقير وخال السفير أحمد التجاني محمد الأمين الدسوقي في حكومة الإنقاذ. يؤم المصلين في الأعياد والجمعات في غياب الإمام الراتب، وكذلك كان يفعل صهره عبد الملك

الدعاك. كما كان عمر يوسف الدقير يؤذن للعصر والعشاء أحياناً في ذلك المسجد القريب من منزلهم.

وكان من أشهر المؤذنين في هذا المسجد عمنا أحمد بخاري والقوني وأحمد إمام و آدم حمرة، رحمهم الله رحمة واسعة.

والجدير بالذكر أن منازل المجلد كانت تأوي الكثير من أبناء البادية الذين يدرسون في مدارس المجلد. وكانت بيوت كثير من أثرياء حلة الجلابة مأوى لأبناء البادية، وعلى سبيل المثال لا الحصر: عائلة عبد الرحمن عبد القادر (الملقب بالترماي/الترماج)، وعائلة أبي شعير التي كانت بالإضافة إلى أبناء البادية تأوي أبناء الدينكا، وعائلة محمد الحسن الدوخ وغيرهم.

كما اعتاد كثير من الجلابة إحياء ليالي الذكر وحلقات المولد النبوي الشريف. وكان أغلبهم من الطرق الصوفية القادرية أو السمانية إلا عائلة الشيخ بشير التجاني المتجذرة في الطريقة التجانية.



المرحوم الإمام الفكي جبريل القوني



البواط :

البواط جمع بوطة، وتعني (غدير الماء الراكد وإن كانت تعني في اللغة نبات البردي أو عشب البرك). ولا أدري وجه الشبه بين جبل جهينة (بواط) الذي يقع بين ينبع والمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية (ذلك الجبل الذي غزاهم فيه الرسول صلى الله عليه وسلم) وبين لفظة البواط في هذه المنطقة. لكنني أقول: «ربما أن جهينة المجلد قد أتوا بهذا الاسم من تلك المنطقة». وعلى أي حال فهو اسم معروف في الشام أيضاً ولكن قد يختلف مدلوله فيها - والله أعلم.

والبوطة أكبر قليلاً عن الأضية (تصغير للأضاة وهي بركة الماء) والكلقية (جمعها كلاقي وهي أصغر من الأضية أو تماثلها من حيث الحجم) والرهد أكبر من البوطة. والرجل (رافد صغير كالجدول ومنها رجل الفولة). والرقبة (رافد أكبر كثيراً ويصب في نهر. وهو أقرب إلى الجرف، ومنها الرقبة الزرقاء التي تصب في بحر العرب).

وإذا واصلنا السير جنوباً فأمامنا الطريق المؤدية إلى أبيي، حيث يكون عن يميننا (حي دفاع) وعن شمالنا الآبار وأشجار الجوغان أولاً ثم المقابر ثانياً ثم بوطة الفقير «الفقيه» جبريل القوني على يسارنا وعلى اليمين بوطة (أم تور جوك) و(بياحه) ثم (التبينة).

يقال إن (التبينة) هي فتاة من المسيرية الحمر سميت عليها هذه البوطة. ولبوطة (التبينة) حكاية تقول بأن مجموعة من أبناء المسيرية الزرق تعرضوا لإحدى الحسان وقد ملأت جرتها من البوطة وهي في طريقها إلى الفريق. وكعادة العرب آنذاك شيلوها: (أي طلبوا منها أن تختار شاباً منهم)، فرفضت الفتاة فاغتصبوها جميعاً.

أشعلت تلك الحادثة العداوة والبغضاء بين أبناء التوأم (أحمد أو «حسن» الأزرق و حامد أو «حسين» الأحمر- وهما جَدّا المسيرية الزرق والمسيرية الحمر على التوالي) فاضطر المسيرية الزرق في نهاية الأمر إلى الجلاء عن دينقة (المجلد) إلى ديارهم الحالية.

وتقول حكاية أخرى إن سبب الجلاء كان حكماً جائراً من أحد شيوخ المسيرية الزرق عندما ضرب ابنه أحد أبناء المسيرية الحمر بعصا فكسر ذراعه. وعندما شكا والد المسيري الأحمر لشيخ المسيرية الزرق (والد الفتى المعتدي) استهزأ الشيخ بالشكوى وطلب من المسيري الأحمر أن ينتظر ريثما يستدعي ابنه ليعلم منه لماذا ضربه؛ لأنه - حسب قوله - يعلم طباع ولده فلابد أن يكون هناك سبب وجيه دعاه لذلك التصرف.
وعندما استدعي الفتى المعتدي قال متحججاً:
- أردت أن أعرف هل ذراع المسيري الأحمر بها مخ كما عندنا أم لا؟!
هنا تهلل وجه شيخ المسيرية الزرق وبدا كأنه يقول: (وجدتها) وحاول إقناع المسيري الأحمر بأن حجة ولده قوية قائلاً:
- ألم أقل لك بأن لابني رأياً في كسر ذراع ابنك!!
وقد أثارت هذه الحادثة النزاع بين أبناء التوأم (حسن الأزرق وحسين الأحمر) حتى اضطر المسيرية الزرق إلى الجلاء عن المجلد.

ويقال أيضاً إن الفقيه علي أبو قرون هو الذي منع المسيرية الحمر من الدواس (العراك) مع أخوانهم المسيرية الزرق فلجأ إلى الكتابة في أيدي عشرة من فتيان المسيرية الحمر وأمرهم أن يطوفوا على فرقان المسيرية الزرق ويرفعوا إليهم أكفهم التي عليها الكتابة مفتوحة بالسلام. فما إن أتم أولئك الفتيان الجولة حول فرقان المسيرية الزرق إلا وسمع عند الصباح نقارة الرحيل من المجلد إلى حيث ديار المسيرية الزرق الآن!!

هناك أيضاً بوطة (غريقة) القريبة من مدرسة المجلد الأولية (أ) وبوطة (دودو) على طريق الحاجز/البابنوسة وبوطة (أبكر) في الطرف الأقصى الشمالي الغربي من أركويت.

ويقصد الناس هذه البواط للسباحة والنزهة. وكنا نقصد بوطة الفكي جبريل القوني - أيام الدراسة - للسباحة والنزهة في العصريات ومعنا راديو(فيليبس) الذي كان مشهوراً آنذاك، حيث نستمع لأغاني مطربي الشام: صباح وسميرة توفيق ونجاح سلام وفهد بلان وهيام يونس، فلقد كان مزاج أهلنا آنذاك شامياً ومصرياً وكانوا يحبون موسيقى السلم السباعي ويسمون الموسيقى المعهودة في السودان بالموسيقي (السودانية).

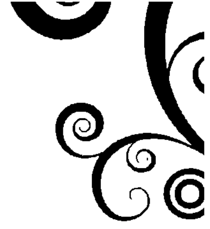
وكان أخونا عثمان (عتيمين) إذا وجد أحدنا يستمع لإذاعة أم درمان يغلق عليه الراديو. وكانت أسماء مثل صباح

ونجاح وشادية وحمدة واللبينة من ضمن أسماء بناتنا في (الحوش). فالمنطقة بأكملها تغني بالسلم السباعي وتحب الموسيقى العربية وليس السودانية!!!

كما كانت البوطة مكاناً لغسل الملابس ونشرها على العشب العالي من دون أن تتسخ. فترى حولها الكثير من الثياب المنشورة لتجف على أشعة الشمس. وكان الأطفال يدخلون البواط للحصول على ثمرة الزنابق المائية (الستيب) التي تكون في أسفل ساق الزنبقة.



الستيب



الدباغة :

تحتل محلات الدباغة موقعاً في نهاية حي أركويت حيث يبدأ طريق المجلد/ بابنوسة الترابي. وهنا يجب أن أنوه بأن كل الطرق داخل المجلد وخارجها كانت ترابية في ذلك الحين.

وللعلم، فقد كان معظم الذين يعملون في هذه المهنة ويجيدونها من أهلنا الفلاتة الذين يستعينون بالجلود المدبوغة في صناعة الأخراج (أوعية جلدية لنقل الماء) والمراكيب والسعون والقِرب والبطات (بضم الباء) و(التكزو) لحفظ السمن و(المحافظ) النسائية التي يضعها النساء على رقابهن وتتدلى بخيوط طويلة من القيطان إلى أسفل سيقان النساء. فكان اللص (الحرامي أو النشال) يعير بأنه (قطاع محافظ) أو (حرامي منجوه) – أي لص خطير.

يجيد الفلاتة كذلك صناعة الجزالين (جمع جزلان وهو محفظة الجيب للرجال) وأوعية جلدية أخرى، فهي منطقة صناعية أخرى من نوع آخر. كما كانوا يصنعون الوسائد ذات الرأسين من الجلد للعرب السيارة والتي تحشوها نساء البقارة بأصناف من الأعشاب العطرة. والعجيب أن بدو المجلد يسمونها وسادة أيضا ولا يعرفون كلمة (مخدة) أو (روسية) المستخدمة في الديم (المستقرين المستديمين) حسب تصنيفهم للناس – بدو وديم.



الغسالون :

تقع كرانك (محلات) الغسالين خلف الضلع الجنوبي لسوق المجلد مباشرة في خط مواز لذلك الضلع. ويعمل في هذه المهنة أخلاط من الناس. فهم يستقبلون ملابس الزبائن صباحا ويعملون على غسلها وكيها وتجهيزها لهم عند العصر قبيل المغرب حيث يغادرون إلى منازلهم.

ويوجد أمام كل محل عدد من الطشات (جمع طست) للغسيل وعلب الصفيح التي يغلي فيها الصابون ليسهل مهمة الغسيل وحبال لنشر الغسيل حيث يتوافد الصغار والكبار وخدم المنازل بالملابس إلى هذه المحلات. وتشهد هذه المحلات ازدحاماً قبيل الأعياد والمناسبات السعيدة الأخرى. وكان أشهرهم عمنا داني وعمنا حامدين.

وتحضرني طرفة في هذا المجال إذ أرسل أحد أعمامنا من عيال بقادي - الذين أعطاهم الله بسطة في العلم والجسم ومعظمهم من حفظة القرآن الكريم ويتميزون بضخامة في الجسم - أرسل أحد الخدم بجلابيته إلى محل الغسيل.

فنظر إليها الغسالون فرداً فرداً تعجباً. أهذه جلابية أم أنها شيء آخر يشبه الجلابية؟ أهي خيمة من نوع آخر؟! فقد كان كمها (ردنها) فقط يساوي جلابية بحالها، لذا لم تلق هذه الجلابية الأسطورة قبولاً منهم بل لقيت من قبلهم رفضاً مغلظاً وعاد الخادم بها منهكاً إلى البيت.

ومنذ ذلك الوقت لم تغسل لعمنا هذا جلابية في محلات الغسالين قط. بل كانوا يأتون بأجراء يقومون بغسل

ملابسه داخل البيت حيث يضعون ثيابه على طست كبير ويصبون عليها الصابون المغلي ويطأون عليها بأقدامهم حتى تتبين نظافتها!!

العجيب أن عمنا هذا - ومعظم أبنائه بنين وبنات - لم يمنّ الله عليهم بلبس الأحذية المعروضة في الأسواق قط. فكان صرماطية (جزمجية) المجلد والبابنوسة المحليون هم القائمون عليهم والمتعهدون بإلباسهم الأحذية طوال عمرهم.

وهناك طرفة أخرى في عمنا المذكور، من آل بقادي، حيث ذهب أحد أبنائه إلى الخرطوم وظل يبحث مع أحد أصدقائه في محلات السوق الإفرنجي لساعات طويلة مما أثار فضول صديقه. فسأله قائلاً:

- جمعة: أنت بدور على شنو؟

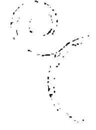
فلم يجبه جمعة في أول الأمر لعلمه بفصاحة لسان صاحبه وتهكمه اللاذع. وعندما أكثر صاحبه (على المخول) السؤال أجابه جمعة قائلا:

- أنا بدور على جزمة لأبوي.

هنا وقع ما كان يخشاه جمعة. فقد جلس صاحبه علي المخول على إحدى برندات السوق الإفرنجي يضحك بهستيريا ويرفس بقدميه يمنة ويسرة مما جعل الناس تحتشد حوله سائلين عن سبب هذا الضحك الهستيري.

وبعد أن هدأ من ضحكه التفت إلى جمعة قائلاً:

- جمعة: أنت من الله خلقك شفت أبوك لبس نعال من دكان فيه قزاز (زجاج حيث تعرض الأحذية بداخله)؟ أبوك يقدروا عليه صرماطية المجلد وبابنوسة بس. سخل كامل يدبغوه ليه رجل واحدة!! يا أخي خاف الله حمت بي الحوامة دي كلها لامن (إلى أن) رجلي ورمن من المشي وما تكلمني!!



المناجر :

يجاور محلات الغسالين من جهة الغرب بضع مناجر أشهرها منجرة عمنا هارون يعقوب - رحمه الله - ومنجرة الشاب التوم النور دلدوم (زلط/كوبا).

يعمل النجارون في صنع وإصلاح الطاولات (التربيزات) الصغيرة والكبيرة وخزائن (دواليب) الملابس والكراسي والأدراج (جمع جارور) والصناديق والأسرّة الخشبية والأبواب والشبابيك وغيرها. ولكثرة الغابات، فقد كان الحصول على الخشب سهلاً من حول المجلد أو من خارجها من الجنوب حيث أرجل الأسرة المزخرفة والمخروطة.

الفصل السادس
مظاهر الفرح والتسلية في المجلد



الفصل السادس
مظاهر الفرح والتسلية في المجلد

النقارة :

كانت النقارة في أوائل الخمسينيات وحتى الستينيات من القرن العشرين تعني التجمع الكبير لأهالي المجلد، للترويح عن أنفسهم في العصريات (فترات العصر) إلى المغرب. فبمجرد سماعهم النقارة في جهة من جهات المجلد يستعد اللاعبون بانتقاء الملابس الجميلة ووضع الغفار (حلقة عليها كثير من الخيوط المجدولة الملونة تتدلى من جوانب رأس الشاب، كما توضع على رؤوس الخيل أيضاً) والسكاكين المفضضة الرؤوس على أعضادهم وحمل الفرارير (جمع فرار وهو الفأس الصغير) المزينة ولبس المراكيب (الأحذية الجلدية المحلية) الحمراء الجديدة. ويعدُّ ضرب النقارة بمثابة دعوة مفتوحة وشخصية لكل فرد للحضور إما للعب أو للفرجة.



وتستعد اللاعبات بالفساتين الجميلة والتزين بالمشاط والعطور المحلية ووضع ريش النعام الملون على رؤوسهن والزركشة والزخرفة في الملابس، بينما تربط الشابات العمائم البيضاء على أوساطهن ويصطففن حول ضاربي النقارة يرقصن برشاقة متناهية وجمال خلاب. وفعلا كانت البقاريات جميلات (وشوف جمال البقارة في رقصتهم مع النقارة).

كانت البقاريات الحلوات يشككن شفاههن بالشوك ويصبغنها، فتبدو زرقاء في تباين مع بياضهن وبياض أسنانهن الفضية التي شبهها شاعر البقارة (بالنوار الذي فقع «تفتح»). وهو ما يعرف بدق (شك) الشلوفة (الشفة) بالإبر. ويضعن على أسفل سيقانهن الخلاخل ذات الأشكال المتنوعة وعلى خصورهن المصو أو الحقو (خرز كبار الحجم منظوم بعضه مع بعض في خيط يلبس تحت التنورة على الوسط ليزيد من كبر الأرداف

وضمور الحشا) . وهي إحدى حيل حواء القديمة في جذب آدم

الأمر العجيب أن لفظة التنورة شائعة عند البقارة. هذا بجانب الكحل والأسورة وعقود (التيلة) المرصعة بذهب الجنيه الإنجليزي ودخان عشب (أم كجيجي) ودخان الطلح والشاف (وياما حيشوف كما قال المصري عندما علم باستخدام الشاف في حمامات الدخان للنساء) وغيرها من زينة وعطور النساء المعروفة آنذاك.

والآن اختفت معظم هذه الممارسات خصوصاً عندما ازداد التمازج العربي بالعنصر الزنجي وتداخلت الملامح واسودت البشرات. فأصبح دق الشلوفة (شك الشفة بالإبر) لا معنى له طالما أنه لم يعد يعكس التباين بين الأبيض والأسود. وحلت عادات وممارسات جديدة مستخلصة تتماهى مع هذا التمازج العرقي. وتشكلت حلقة من حلقات الحضارة الجديدة واكتملت بدخول عرب البقارة إلى تلك البقعة في القرن السادس عشر والتي كانت عامرة يوماً بقبائل الداجو والشات والقرمة وغيرها.

ويصاحب النقارة أحياناً سباق للخيل وعرض للفروسية، فتري الفرسان على ظهور الخيل حول ذلك المهرجان الكبير يزيدونه أبهة ورجولة والخيل يسميها عرب البقارة القُدّر (بضم القاف وتشديد الدال) بنات سعدان، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة!!

يقلقل ضرب النقارة حشا كل من يتفرج على هذا المشهد الخلاب. فترى الناس يرقصون من دون أن يدروا وهم يشاهدون ذلك النسق الرائع من اللاعبين واللاعبات (ولا نقول الراقصين والراقصات، فهي ألفاظ غير معروفة في قاموس البقارة) .

ويتواصل هذا المهرجان أحياناً بلعب النقارة إلى الليل، وهنا تسمى النقارة (درق الليل) أي ترس الليل حيث يلعب كل من لا يجيد اللعب أو يخجل من فعل ذلك. وللعرب مقاييسهم الخاصه في الاصطفاف أثناء اللعب وترك المسافات بينهم. فهناك مقياس عود الفاس حيث يقولون وهم يلعبون: (الزول من الزول عود فاس) أي على اللاعب أن يبتعد عن اللاعب الذي يلعب أمامه مقدار عود فاس.

في أوائل الستينيات من القرن العشرين زارت المجلد مجموعة من طلبة وطالبات كلية الطب بجامعة الخرطوم فمرت المجموعة على نقارة عامرة. وكان شباب البقارة وهم بكامل زينتهم يلعبون بقوة وجمال. وقد استرعى انتباه أحدهم الطالبات الغريبات الشكل والملبس فسأل عنهن فقيل له: إنهن من طالبات كلية الطب. لم يفهم كثيراً مما قيل ولكن أعجبه حسنهن فقام (بطلعة) نحوهن وهو يلعب بقوة وكأنه يريد أن (يشك الخازوق) وهو مصطلح رغم قساوة تاريخه التركي وظلاله المأساوية إلا أن العرب في بادية المجلد استخدموه لمن يقوم باللعب

(الرقص) مع إحدى الفاتنات ويشكلان ثنائياً رائعاً يجذب أنظار المشاهدين وكأنه تحدٍ من أحدهما للآخر. فكل حركة من اللاعب تقابلها حركة من اللاعبة في ندية عجيبة تأخذ بالألباب.

قام ذلك اللاعب بطلعة نحو بنات جامعة الخرطوم واختار إحداهن كمن يريد منها أن تدخل معه في التحدي باللعب أمامه. ولما لم تفهم الطالبة ما يريد، وحتى لو فهمت لما استطاعت مسايرته، نفد صبره وقال بصوت عال بعد أن كورك: (صاح صيحة أشبة ما تكون بصيحات الهنود الحمر بوضع يده على فيه وتحويلها عنه بشكل متكرر لتغيير الصوت):

- كن (إذا) طالن وكن قصرن تحت الرجال!!



العجكو:

والعجكو (من العجكة والدبكة). وقد كانت لعبة العجكو منتشرة في بداية الخمسينيات من القرن العشرين عند المسيرية قبل أن يبدأ المردوم بإيقاعه اللطيف اكتساح مناطق البقارة من ديار أولاد عمنا الحوازمة وأولاد حميد واللخم، ويجتاح أولاد عمومتنا من سليم في كوستي والرنك مروراً بكل أولاد عمومتنا من الرزيقات والهبانية وبني هلبة والتعايشة وغيرهم إلى إخوتنا المسيرية في الحدود السودانية/التشادية وربما داخل تشاد.

وهناك أنواع من الرقص انقرضت مع مرور الزمن وكانت أشبه (بالدراملي) الحازمي حيث كنا نسمع أصوات اللاعبين مصحوبة بنوع من الزفير والضرب القوي بالأرجل وهم يقولون: العرديب كنيشلات والجوغان دريدمات الداهي ده شحم بنات، الداهي ده شحم بنات، الداهي ده شحم بنات!!!



العرس والسيرة:

تختلف الأعراس والسيرة عند البقارة نوعاً ما عن أعراس وسيرة أهل المدينة. فالنقارة مثلاً تُعدّ من أهم مظاهر الفرح في العرس وتستمر لأيام عديدة. أما في السيرة فيركب العريس على فرس ويمشي حوله أهله وأقاربه وأصدقاؤه يبشرون ويأتون بأنواع من الرقصات والأغاني والأهازيج التي يزفونه بها إلى بيت العروس مثل:

- الغالي ول (ولد) غالينا قوم ألخير (تخير) فينا
- فاطمة بت النبي يا محمد الغالي
- ولد الكير أبو جنزير أمه ميرم العيين (النساء)
- نحن ولدنا عسكر قاسي لل ما عسكر
- فرسه حديه حايمه عروسه جديه نايمه
- جينا ليك يا ولد الدلال صب المال على الرجال
- ولد الغالي عرسوه سمن البار (البقر) ريسوه

ويبشر بعض الأصدقاء أحياناً صاحبهم بكلمات مبهمة معروفة المغزى عند البقارة تتضمن تخابثاً جميلاً مثل (بطير ليك) أي ستزهق منه يوماً ما. أما ما هو هذا الشيء الذي سيملّه العريس يوماً ما فسأتركه لفطنة القارئ!!

أرسل أحد خريجي المنطقة لزميله من منطقة أخرى من السودان برقية بمناسبة زواجه كتب فيها: (بطير ليك)

فاستغرب الزميل هذه البرقية ولم يعرف ماذا يقصد زميله المرسل، ولم يتضح الأمر إلا بعد فترة حين التقيا وسأله عن مضمون برقيته التي هنأه فيها بالزواج!!

كانت العرب عادة تنصب بيتاً مقوساً من عيدان شجر (القفل) و(الدروت) تيمناً؛ لأن جذوع أشجار القفل قد تزهر وتنمو أشجاراً بعد مدة من العرس. ويغطي العرب هذا البيت المقوس الشكل بشقق (حصائر ملونة ومزخرفة) ثم يضعون فوق قمته قطعة قماش بيضاء تغطي جزءاً كبيراً منه، من أول القوس إلى آخره. ويظل مخدع العريس وعروسته في جانب من هذا البيت المقوس قرابة الأربعين يوماً حيث تتوالى الذبائح والولائم من أصدقائه وأهله وأقاربه، وجانب آخر مخصص لاستقبال الأصدقاء والزوار.

أ. القيدومة:

في بداية العرس هناك ليلة خصوصاً للكبار من الرجال والنساء تسمى القيدومة (المقدمة). في هذه الليلة لا يسمح بوجود الصغار والشباب بالقرب من هؤلاء الكبار. وفيها توضع الطبول على الأرض أو تعلق على السيبة (ثلاثة أعواد تنصب على الأرض في شكل مثلث حيث تلتقي برؤوسها وتوضع عليها النقارات الثلاث). ويضرب الكبار على تلك النقارات ضربات رتيبة ويلعبون ويغنون أغاني قديمة من أيام شبابهم يسترجعون فيها ذكرياتهم الحلوة. ويأكلون اللحم ويشربون الشاي طوال الليل ويتسامرون حتى الصباح. الجدير بالذكر أن أهل المدن اقتبسوا القيدومة فاختلفت شكلاً ومضموناً.

ب. الشعقيبة:

وفي مناسبات الأعراس والختان والخفاض خصوصاً تطوف مجموعة من البنات اليافعات الشوارع في عادة يقال لها (الشعقيبة) فيمسكن بأي فتى ويطلبن منه دفع شيء من المال في تلك المناسبة. فإذا رفض أن يمنحهن بعض المال تظل الفتيات يرددن:

- شعقيبة في قرنه ثلاثة قروش غلبنه

وهي وصمة عار على الفتى يلزمه أن يزيلها بدفع مبلغ من المال لاحقاً.



الدلوكة:

وفي ليل المدينة كنا نسمع صوت الدلوكة (طبل نسائي) في حي من الأحياء في مناسبات الأعراس وغيرها من المناسبات السعيدة. فنساء الديم – أي المدينة – غير نساء البادية أو اللائي هن قريبات عهد بالمدينة. وكانت الدلوكة في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين مزدهرة داخل المجلد حيث رقصات (التم تم) بالفستان فقط وسط غناء البنات المحموم:

- يالصداقة القاعدين خليكم رايقين الحرقت قليبي يا أحمد جبرين!!
- والخاتم وقع جنب المدرسة يا سيدي الحسن تجمع لي بلاه
- الوافر ضراعة أمنته الرسول مامون الوداع برد دار أبوه
- البيره أم جمل الشراب سكوب كب يا علي في كبابي الشب!!
- البيرة أم جمل الشراب سكوب كب يا علي قسم المشروب!!

وكانت البنات يغنين في الدلوكة أغاني حماسية شجية تدفع بالشبان للوقوف نصف عرايا داخل الدائرة طلباً للبطان (الجلد بالسوط). إلا أن البطان انقرض في تلك المنطقة لعدم تحبيذ البقارة الضرب بالسوط الذي لا يعدونه رجولة ويرون أنه قمين بالحيوانات. فالرجل لا يضرب كما أنهم يعدّونها إهانة كبيرة.وحتى الأسد إذا ضربته بعود أو رميته به فإنه يذهب عنك. ولكن إذا رميته بحربة فلن يحيد عنك فهو إما قاتل أو مقتول!!



المداحون:

كانت ليالي المديح معروفة في المجلد، خصوصاً عند الجلابة، والذين قدموا إلى المنطقة من الجزيرة أو شمال السودان. لكن هذه الممارسة كانت غير معروفة عند عرب البقارة الذين عَدّوا المادحين شحادين(متسولين). بالإضافة إلى أن المادحين يتعاطون التمباك (التبغ) والسجائر وهما محرمان تماماً عند البقارة في ذلك الحين. فلو دنوت من بقاري بتمباك أو سجائر فقد يقتلك.

أذكر أن أحد الأعراب زارني في شقتي في الرياض بالمملكة العربية السعودية ولم يجدني ولكنه وجد ابن أخت زوجتي طارق مكي عجب الدور – ذلك الشاب الظريف الذي يتقن هندام نفسه ولي العمامة على رأسه، وهو في ذلك أشبه بجده الشيخ الأنيق الوقور إسماعيل محمد طاهر – رحمه الله رحمة واسعة. فانشرح صدر الأعرابي لطارق وأخذهم الحديث في مناحٍ كثيرة مستأنسين كل منهما بالآخر وظلا على ذلك الحال لعدة ساعات.

ثم أتى طارق بحركة توقف عندها الأعرابي وأعاد النظر في طارق مذهولا. لقد قام طارق بوضع سفة من التمباك(التبغ) في فيه. عندها انقطع الحديث وسكتت شهرزاد عن الكلام المباح.

تمعر وجه البدوي وبدأ ينظر إلى طارق نظرات لم يستطع طارق معرفة كنهها. أهي استهجان أم كره وبغض أم ماذا؟! لكن البدوي أعرب عن نفسه قائلا لطارق:
- أنت عارف. الداهية دي أنا يوم من الأيام عفصتها (وطأت عليها) في التراب بمركوبي (حذائي)، رجلي ورمت ثلاثة أيام!!!

ومن غرائب الأمور أن البقارة يسمونها (الداهية الأباها الجداد) ويربأون بأنفسهم أن يذكرونها صراحة بالاسم (التمباك/التبغ) كرهاً ويشيرون إليها فقط بقولهم «الداهية» التي حتى الدجاج الذي يأكل كل القاذورات لا يلتقطها إذا وجدها على الأرض!!!



التعليلة:

التعليلة لفظ شائع عند عرب البقارة. فهناك تعليلة العيال، وتعليلة الصبيان (الشبان) وحدهم، وتعليلة الصبيان والصبيات (الشبان والشابات)، وتعليلة الكبار إلخ.. وكنا في الأمسيات بعد صلاة العشاء وأحياناً قبلها نتسامر فيما بيننا ونتادي على أقراننا ونحثهم على الخروج للتعليلة حيث يتبرع أحدنا بالصياح قائلاً:

-القاعد جنب النار بالكحت (يذر الرماد على جسمه) بالرماد عينه للمسواط (عصا في شكل سهم تساط بها العصيدة).

عندما نسمع هذا النداء المستفز الذي يحثنا للخروج وعدم القعود مع أمهاتنا اللائي يسطن العصيدة، كما هو حال ثقافتنا في ذلك الوقت، وأن الجلوس مع النساء أياً كن فهو منقصة للرجل فإن هذا النداء يفعل فينا فعل السحر، وإذا وجدك والدك في الداخل مع النساء وليس في الخارج في الضرا (الذرا) مع الرجال فمصيرك جلدات ساخنات يعكرن صفوك أو على الأقل تهزئة تحز في نفسك.

أ. الشليل:

كانت تعليلتنا لا تتعدى اللعب بالشليل الذي راح (شليل وين راح أكلو التمساح وشليل وينو أكلو الدودو). والشليل هو قطعة من عظم نخر يرميه أحد الأطفال بعيدا عنهم وهم مغمضون أعينهم ومتجهون عكس اتجاه الرمي خصوصاً في الليالي المقمرة ويتسابقون للحصول عليه. فمن يجده أولاً يخبر عن نفسه ويجب أن يستخلصه الأطفال منه قبل أن يبلغ به الميس (خط النهاية). لكن الشليل عندنا غير الشليل الذي عهدناه في أقاليم السودان الأخرى، فالألفاظ هنا فيها غلظة ورجولة زائدة: إن بان ليكو(لكم) شل من أيدي الرجال ما بنحل إلا

كن (إذا) وقع (وقعت) انكسر (انكسرت). وشتان بين اللفظتين الأولى وهذه الأخيرة!!

ب. هرك:

وفي لعبة هرك (شدت) يرفع كل منا إحدى قدميه ويقبض عليها بيده غير المجاورة لها ويجري بها إلى الميس (خط النهاية) تحت حماية فريقه ومن دون أن يلحق به أفراد الفريق الآخر ويفرقون بين يده وقدمه وإلا فسيكون عليهم الدور في المطاردة. ونتسابق أحياناً بالطواف حول الحوش وكان عندنا في ذلك الحين مثل (الماراثون).

ج. فرس:

وهناك لعبة أخرى نلجأ إليها عندما يبلغ بنا التعب مبلغه فتجلس في دائرة ويحوم من حولنا أحد الصبيان ويلقي بخرقة من وراء أحد الصبيان الذي لا يكتشفها إلا بعد فترة من الزمن فيبدأ هو الآخر في الدوران حتى يستغفل أحدهم ويضع الخرقة وراءه. وأثناء ذلك ننشد الأهزوجة التالية لمن كان يدور حولنا:

فرس (فلان) شدي الحديد الكوم.

ياقطه ضنب (ذنب) بعشوم (ثعلب) هرارها كوم.

د. الشوش:

وهناك أيضاً لعبة (الشوش) التي تشبه اللعبة السابقة كثيراً والتي ننشد فيها الأهزوجة الآتية:

الشوش المرشوش جريره

شاييكو دا خرفان جريره

بكركج الضبان جريره

هـ. الثعلب فات:

ولعبة أخرى هي (الثعلب فات فات) وهي معروفة في معظم أقاليم السودان. ويبدو أن هذه اللعبة أتت مع المستعمر، ففيها سب واضح للابس الجبة (الأنصاري) الذي يوصف بأنه خنزير:

الثعلب فات فات

في ضيله (ذيله) سبع لفات

والجبة وقعت في البير

صاحبها واحد خنزير

كان هناك ثلاثة من إخوتنا ممن يتعاطون السجائر والمسكر والذين اعتادوا الاختفاء عن أعين الكبار رغم معرفة الكبار لما يفعلون. فقد كانوا يأتون بالمزة (الكبدة ورؤوس النيفة واللحم المشوي والأجبان والزيتون وما لذَّ و طاب من المأكل). ويبدو أن تعليلتنا تضايقهم كثيراً خصوصاً بعد صلاة العشاء عندما يخلد آباؤنا للنوم.

كان الثلاثة يسمرون عند أحدهم وعندما ينادوننا للعشاء نسرع إليهم خفافاً لعلمنا بما في عشائهم من أطايب. ولكن بعد العشاء تظهر على وجوههم ملامح غير التي نادونا بها ويأمروننا أن نذهب للنوم، فنطيع أوامرهم خصوصاً بعد أن نكون قد أنهكنا الجري وامتلأت بطوننا الصغيرة بالأطايب.

الغريب أننا لم نفك طلاسم هذا العشاء الجميل إلا بعد أن كبرنا. نضر الله وجه من بقي منهم على قيد الحياة ورحم الله من مات منهم رحمة واسعة؛ فقد كانوا أروع الأخوان وأجودهم وأكرمهم وأدمثهم أخلاقاً!!

و. لعبة صج:

وهي إحدى الألعاب التي كنا لا نفهمها. ويبدو أنها كانت للكبار فقط. فقد كان إخوتنا الكبار: محمد (الدندور أبو عوة) وجبريل (عبط) – رحمه الله – وموسى سنون كاجيكا (سنون الحمار) وغيرهم هم الذين ينظمونها. وتبدأ اللعبة بانطلاق الصافرة (صج) حيث يختبئ كل واحد من الكبار في ناحية. وقد لاحظنا أن الكبار كان يختبئون مع البنات الكبار بينما كنا نحن الصغار نختبئ لوحدنا. ثم يصفر أحدهم (صج) بعد مدة فنخرج من مخابئنا. ويظل الكبار يكررون هذه اللعبة!!!

ز. الأحاجي:

كانت الأحاجي من أجمل اللحظات المسائية في برنامجنا اليومي. فقد كنا ننتظرها بلهفة وشوق شديدين. وكانت هناك مجموعة من الأمهات والأخوات البارعات – أمثال مريم جبريل علي مرعي «دناعة» - في سرد القصص مع المؤثرات الصوتية التي تفعل فينا العجائب وتنقلنا إلى عوالم خيالية غريبة جداً.

كنا نتحلق في المساء حول إحداهن وهي تروي لنا حكاية (الغول والزي). و(الزي) هي البنت الجميلة التي خطفها الغول ووضعها في شجرة عالية لا يستطيع أحد تسلقها. ويمر الغول عليها كل ليلة ويخاطبها بأن تنزل إليه ضفيرتها حتى يضع لها الغذاء ثم يغادر قائلاً:

- الزي الزي دودلي (أنزلي) قرينكي (ضفيرتك) لي

فترد عليه قائلة:

- الغول الغول شغل الخلا المزقول (المرمي) الله بلاني بيك

فيقول لها غاضباً:

- الزي الزي شن بتقولي لي؟

وهنا تدرك الزي مغبة غضب الغول فتغير من لهجتها وكلماتها قائلة:

- الغول الغول ولد عمي الزين الله أنطاني (أعطاني) ليك

وتستمر الحكاية ونحن في صمت تام لا نكاد نحس بشيء من حولنا. ثم تنتقل الراوية من حكاية (حجية) إلى أخرى ونحن معها. فمنا من يصمد، ومنا من ينام، ومنا من يبلغ به الخوف مبلغاً حتى تأتي إلى آخر الحجيات (الحكايات) فتتنفس الصعداء وينتابنا شعور غريب لا يشعر به إلا من يرى أطفال هذا الزمن وهم متسمرون أمام شاشات التلفاز يشاهدون أفلام الكرتون.



الحدايون:

الحدايون هم مجموعة من الشعراء الشعبيين الذي امتهنوا المدح والذم ومواضيع شعرية أخرى عند عرب البقارة. ويبدو أن كلمة حداي لها صلة قوية بحادي الإبل في الزمن الغابر عندما كان عرب البقارة أبالة – أي يرعون الإبل. وآلة (أم كيكي) أو (الربابة) أو (أم سبيبة) آلة عربية لا تزال تعزف في بوادي جزيرة العرب. وهي أشبه بالكمان إلا أنها وحيدة الوتر. وقد اتخذت شكلا آخر عند الصعايدة في جنوب مصر فصارت أطول وأكبر وسميت (الربابة).

وغالباً ما تكون المبادرة بدعوة الحداي من أحد الأعيان في مناسبة سعيدة كزواج أو ختان وغيرهما. وتكون الدعوة أحياناً ممن يبتغون سمعة أو يطلبون جاهاً فيبذلون له بذلاً سخياً. وقد تكون الدعوة بمبادرة من الحداي نفسه ليسمع الجمهور آخر إنتاجه الفني ويتلقى الهبات المالية من كبار القوم والأعيان وحتى متوسطي الحال حين يلجأ إلى مدحهم فيقول:

- اليومين ديل أيام الفلس، أنا جيتك (فلان) ولد الراجل الكلس

أو يلجأ لشعر الحماسة قائلاً:

- شن حالكن يالخيل من جضول (جذول) الليل، وشن حالك يالدبيب (كل ما يدب على الارض من ثعابين وغيرها) من ضلافي (أظلاف) الخيل، مخاريق الرجال بقن مقيل للطير.

يحتشد الناس في المساء ويبدأ الحداي أمثال (العاتول «الكثيب» الغلب التيتل «الثيتل») أي القوز الرملي الذي حتى غزال الثيتل يعجز عن عبوره، و(الدريب خبير قرجه) أي العارف والخبير باصطياد الفيل بالحراب - وقرجه هو الفيل، و(العجوز الوقعت بولد بنتها) و(العجوز أم بخس «اليقطين الجاف المجوف» الراكبة ليها فوق

فرس) الغريب أن الحدا ي لا يذكر اسمه بل بألقاب تدل عليه.

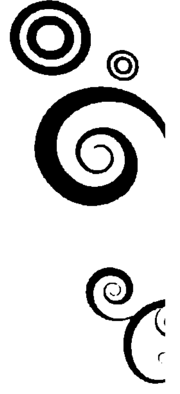
يبدأ الحداي في عزف هذه الآلة الموسيقية المعروفة فقط في غرب السودان حيث السلم الغنائي سباعي (عربي). وقد يصل الطرب ببعض السامعين إلى مرحلة الجضب(الجذب)، فيأتي بأفعال لا تحمد عقباها كأن يطعن نفسه أو يجرح فخذيه أو عضديه. وقد يطيح البعض في النار!!

ومن أمثلة شعر الحدايين في التشبب بالنساء هذا الشعر الرائع:

- نجاركي الله رب الأنام. نجركي من وراء وحوتكي (ثم جاءكي) من قدام.
- نجر ليكي إيدي بلا كيعان. ورقبة بلا وردان. وبطن بلا مصران.
- وأم فندوق البشيل الزاد الفقري مع الشيخات ما عنده مراد

وهذا البيت شبيه ببيت الشاعر الجاهلي علقمة بن عبده بن ناشرة بن قيس من بني تميم الملقب بالطبيب حين قال:

- فإن تسألوني عن النساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب
- إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب



الحكامات:

الحكامات مجموعة من الشاعرات الشعبيات يجدن بشعرهن في مناسبات الأفراح وأحياناً – كالحداي – بمبادرة منهن أثناء طحن العيش (الغلال) على المرحاكة (الرحى) أو خلال تأدية نشاط من النشاطات اليومية. وهن من أخطر عوامل دفع الرجال للقتال أو الحث على مكارم الأخلاق أو توجيه سياسة القبيلة. فهن يلعبن دوراً متعاظماً من وراء حجاب في توجيه دفة القبيلة.

وتشكل أشعار الحكامات جلّ أغنيات المردوم والدراملي والرقصات الشعبية الأخرى. ويمتهن المدح والذم ويخشاهن الناس لسلاطة ألسنتهن ويتوددون إليهن. وأول ما يقدم العاج من صيد الفيل للحكامات اللائي يبدأن في الثناء والمدح للمجموعة التي نلمت (خرجت لصيد الفيل). ويتلقين الهدايا عادة بمناسبة ومن دون مناسبة من مختلف الناس. فهن كالحداي لسان القبيلة وإعلامها الكبير ومنهن (عائشة الرصاص) وهي إن أصابك لسانها فأنت لا محالة ميت «اجتماعياً» حتى تحسن علاقتك معها بعمل شجاع يرد اعتبارك.



رحلات الصيد:

كان شبان المجلد وكهوَلها ينظمون رحلات صيد. وكان الصيد منتشراً في تلك المنطقة ولا يحتاج لكبير عناء. فالغزلان بأنواعها: أم سيحان والكتنمبورو والدبوية (التي لا تحبها العرب لتواجدها كثيراً داخل المقابر) والثيتل والجاموس والشيكان (جمع أبو شوك – النيص) والأرانب والزراف تملأ البرية وكذلك الطيور بأنواعها من الوزين الكبار (أم قرن) إلى الوزين الصغار (أم كر) ودجاج الوادي والحبارى إلخ.

ويخرج شبان المدينة أحياناً إلى البواط (غدران الماء) القريبة من المجلد في رحلات ومعهم الخراف. ويقضون كل النهار ويعودون إلى المدينة في المساء. وهنا تظهر مواهب بعض الشبان ونخوتهم في الذبح والسلخ والطهي وتقديم الطعام. فقد كان الشاب الظريف عبد القادر محمد سليمان غندور آنذاك ممن يجيدون كل ذلك إجادة تامة وكان واسطة العقد في رحلاتهم مع أصدقائه أحمد أبو شعير – رحمه الله رحمة واسعة– وغيره.

في أحد الأيام خرج موظفو وعمال مصنع ألبان البابنوسة في رحلة (نزهة)، فذبحوا وشووا اللحم وأكلوا وشربوا الحلال والحرام، ولسوء حظهم مَرّ عليهم أحد الأعراب. والأعراب مشهورون بحب الاستطلاع، فسلّم عليهم، ثم دعوه فجلس، وأكل اللحم وشرب الشاي، ثم رآهم يشربون شيئاً لم يعهده من قبل فسألهم عنه فأخبروه بأنه يساعد على هضم اللحم، فطلب أن يسقوه ذلك الشيء. كان ذلك الشيء فودكا كحول مائة بالمائة. وسرعان ما سكر البدوي ولم ينتبه إليه الجلوس.

أخذ البدوي حربته (رمحه) وراح يطعن يمنة ويسرة فانفض المجلس وتسابق الناس في كل اتجاه خوفاً من رمح البدوي. وبعد لأي تمت السيطرة عليه وأراقوا عليه كثيراً من الماء وسقوه قهوة ففاق ولم يكد يعرف نفسه.

وساعتها لم يخبره الناس بأنه شرب المسكر، وإلا لكان الأمر أدهى وأمرّ. لكنه قال بعد فينة:

- والله داهيكو ده بزيد الزول فحالة (شجاعة) !!

فضحك الناس من حديثه وكانت آخر مرة يسقون فيها بدوياً مسكراً !!

كنا عندما نأتي في الإجازات المدرسية نذهب مع عمنا المرحوم عبد الله الحافظ إلى برية ضيلم بالقرب من المجلد . وكان ذلك الرجل الشهم الباسل قد خاض معارك الحرب العالمية الثانية في طبرق والكفرة وكرن، وعندما تقاعد لازمه حبه للجندية والمشي بياده (أرضاً). فكان يقطع بنا بيادة (مشياً) مسافات ترهقنا ولا ترهقه رغم كبر سنه.

وكان يطلب منا ألا نأخذ من الزاد شيئاً سوى كفتيرة (إبريق) الشاي والشاي والسكر والدقة (الشطة والملح وأشياء أخرى) فقط، حيث كنا نفطر بدجاج الوادي المشوي أو أنواع من الطيور الأخرى ثم نتغدى بغزال أو أرانب ونعود في المساء حاملين بعض الصيد. كان - رحمه الله رحمة واسعة - لا تخطئ رصاصته هدفها إلا نادراً جداً.

أخذنا عمنا عبد الله الحافظ في رحلة صيد ليلية في كباو (أدغال) – كباو جمع كبو والكبو هو الدغل- ضيلم القريبة من المجلد. وكان العم عبدالله يستخدم طلقات الخرطوش (الرش) في صيد الغزلان بالليل حيث تنام اثنتين اثنتين. كان يوقف سيارة اللاندروفر ثم يدور بها فيسقط نور مصابيحها على الغزلان تحت الأشجار فتلمع عيونها فيصوب خرطوشه نحوها ويرديها. ويبدو أن صيد الليل أسهل من صيد النهار رغم مخاطره، فقد تسلط مصابيح السيارة على نمر أو أسد خصوصاً في تلك الأدغال التي جاء منها اسم ضيلم (أي الظلام من شدة كثافة الأدغال).

وبعد أن حصلنا على أكثر من ستة غزلان في تلك الجولة الليلية، أزمعنا العودة، وأثناء صيدنا- ولسوء حظنا - تلبدت السماء بالغيوم الداكنة فحجبت عنا النجوم التي كان يهتدي بها عمنا عبد الله الحافظ وضاعت منا الاتجاهات.

بدأنا ندور في حلقات مفرغة. ثم قررنا التوقف حتى لا ينضب الوقود. ولكن مردود التوقف كان سيئاً للغاية؛ فقد فاحت روائح الدماء مع البارود فكتمت أنفاسنا، خصوصاً ونحن داخل السيارة: عبد الله الحافظ ومحمد النذير وصالح عبد الكريم وعبد الله جبريل القوني وأحمد صالح الطاهر وشخصي الضعيف - إن لم تخنى الذاكرة. ولا يمكن التنبؤ بما يحدث إذا نزلنا من السيارة في ذلك الليل المدلهم ووسط تلك الأدغال.

انتظرنا لساعات حتى انجابت السحب عن القمر والنجوم فاهتدينا إلى طريق المجلد. وفي طريقنا اجتزنا سهلا مخضرا يعج بالأرانب البيضاء وذلك بعد أن نفدت رصاصات الخرطوش، فاقترح أخي محمد النذير أن يعتلي صدام السيارة ويُعمل عصاه في الأرانب. وقد أفلح ولكننا خشينا عليه من تلك المغامرة فطلبنا منه العودة إلى داخل السيارة. وعند عودتنا زودنا أهلنا داخل الحوش وخارجه بما جلبناه من صيد.

كان عمنا بريمة حمودة بسيارته الميركوري (بك أب) الأمريكية وابنه أحمد بريمة أيضاً من أبرز محبي رحلات الصيد. وهناك آخرون من محبي هذه الهواية التي يساعد عليها وفرة الصيد بالمنطقة.

خرج عبد الكريم جبريل القوني يوماً مع ابن أخته جبريل يعقوب عبد الكريم من ضيلم في رحلة صيد لم يكن مخططاً لها، وفي الطريق رأيا غزالاً قريباً من الحي فأطلق أحدهما النار عليه. ولكن الغزال دخل الغابة وهو يعرج فتتبعاه وقد انفتحت شهيتهما للصيد بعد أن رأيا الإصابة التي أعرجته، ولسوء حظهما فقد تاها في الغابة وتلبدت السماء بالغيوم فلم يعرفا الشرق من الغرب.

ظلا يتابعان السير. وكانا في الواقع يبتعدان رويداً رويداً عن قرية ضيلم. ثم بدأ الليل يرخي سدوله في تلك الأدغال، وهنا أيقنا أنهما تاها وبدآ يرتبان للمبيت في العراء الموحش الخطر.

جلسا في أول الليل على صعيد من الأرض. وحين أحسا بمضايقة الضباع لهما في تلك البقعة جهز أحدهما السلاح الناري وتبين أن لديهما طلقاً نارياً واحداً فقط!!!

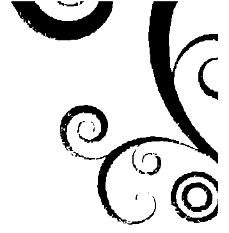
ويبدو أن تلك البقعة كانت مقصداً للأفاعي وغيرها من هوام الأرض التي تبحث عن مكان جاف وسط فيضان الماء الذي غمر كل شيء. أحسا بدنو ثعبان ضخم منهما فغادرا مكانهما إلى اتجاه آخر.

ثم قررا أن يصعدا شجرة ويبيتا فيها بين الأغصان، وهنا واجتهما مشكلة وهي الخوف من السقوط عند النوم. وعلى أي حال، فقد جازفا فصعدا الشجرة حيث لا توجد خيارات أخرى متاحة. ولكنهما حرصا على أن ينام أحدهما ويظل الآخر مستيقظاً. وقد نجحا في مسعاهما حتى أطل الفجر وزقزقت عصافير الصباح وسط الأدغال. فهبطا من الشجرة وظلا يتابعان السير حتى عثرت عليهما ضعينة (ظعينة) كانت في طريقها إلى المجلد فعرفتهما وأعادتهما إلى ضيلم سالمين.

وصلنا الخبر في اليوم الثاني ونحن نتمرن في ملعب فريق الجهاد لكرة القدم. وكانت السماء ملبدة بالغيوم والمزن الثقال. طلبنا من معظم السائقين نقلنا إلى ضيلم، إلا أن طلبنا رفض لصعوبة الطريق الموحل تحت تلك السماء الملبدة بالغيوم ودمدمة الرعد بين الفينة والأخرى والتي تنذر بقرب هطول أمطار غزيرة.

ولكن كما قيل: «لكل مقام مقال ولكل زمان رجال». فقد انبرى السائق عثمان روثمان الذي كان يقود لوري (شاحنة) عمنا بشير التجاني (خال الدكتور جلال يوسف الدقير، وزير الصناعة في حكومة الإنقاذ) ومن دون أن يستشير صاحب الشاحنة أركبنا وانطلق بنا في الطريق إلى ضيلم.

وصلنا ضيلم في زمن قياسي في ظل تلك الظروف المحبطة. وبعد أن علمنا بوصول الشابين سالمين والحمد لله غادرناها (أي ضيلم) على عجل ومعنا الشابان إلى المجلد. وقد علمنا، فيما بعد أن السائق عثمان الملقب (بروثمان) هو سليل الشيخ إسماعيل الولي (قنديل كردفان) جد الزعيم الأزهري وصاحب القبة الشهيرة في الأبيض. «حقاً الناس معادن»!!



المراجيح:

المرجيحة والطوطحانية والمدريحة هي إحدى وسائل التسلية في الأعياد، حيث ينصب نفر من أبناء الفلاتة أشهرهم (أوشي) المراجيح الخشبية في معظم الأحياء فتصبح كخلية النحل وهي تعج بالأطفال الذين يتوافدون إليها في هذه المناسبات القليلة النادرة. وكذلك الطوطحانية وهي الصناديق الخشبية الدوارة التي يجلس الأطفال داخلها وتدور بهم إما دائرياً أو من أسفل إلى أعلى.

وتستمر هذه المراجيح حتى المساء حيث ينفض السامر ليعود في اليوم التالي وكذلك الحال حتى تنقضي أيام العيد. و يروج سوق استئجار الدراجات الهوائية أيضاً من محل البشاري - الذي يقع في مرتفع خلف دكان الفكي جبريل القوني - في النهار والليل خصوصاً إذا كانت الأيام مقمرة.



البرامكة وجلسات الشاي:

كانت جلسات (البرامكة) - التي يبدو أنها انتقلت معهم من العراق أيام خالد البرمكي، وزير هارون الر شيد - فيما مضى، جلسات شراب من نوع آخر ولهو غير بريء، ولكن البقارة حولوها إلى جلسات للشاي والأنس البريء والفصاحة الشعرية وغيرها.

والناس صنفان عند البرامكة: (الحريف)، وهو الشخص النظيف الثياب والبدن والظريف الذي لا يأتي المستهجنات حسب عرف القبيلة. و(الكمكلي)، وهو عكسه تماماً. ومن الأكواب التي كانت سائدة في بداية الخمسينيات من القرن العشرين: كباية (كوب) صلب الملكة (فكتوريا). ويمدح الشاي بأنه (دم الدكاترة) — أي رائق كدم الدكاترة. ويسبون المرأة «الكمكلية» بأن (خشمها «فمها» عفن تقول مستراح «أدبخانة» أفندية)!!

كانت حمدة بنت زكريا من الشيخات في المنطقة. وقد تزوجها عدد من أعيان المجلد - من بينهم الناظر على نمر والفكي جبريل القوني - لكنها لم ترزق من أي منهم بطفل.

ومن النوادر أن أحد الأعراب ذهب إلى الخرطوم فوجد كوباً طويل الساق — يبدو أنه كان لشرب الخمر وخلافه — فحصل عليه غير مصدق وعاد به إلى العرب في البادية وبدأ يرشف الشاي من كوبه هذا الذي أصبح مضرب المثل. وقد أطلق عليه العرب (كوب ساق النعامة).

ومن أشعار جلسات البرامكه قولهم في الكمكلي:
(الكمكلي نهم (نادى) كلابه كيس وجرقاس وأربد ودقش الغابة. كتل (قتل) قطتين وثالثهن أرنب. وجا (وجاء)

- للحلة من غرب (وهي علامة شؤم وتطير). لقى الحرفاء منتمعين (مجتمعين). قال لهم: سلام عليكم لعل الدنيا ما فيها خراب!!)

- ردوا عليه قائلين: (كو (لا) الدنيا ما فيها خراب. لكن ده أبو شعيرة (الشاي) ذهب (تم تحضيره). وناولوه كباية (كوب) كبايتين وثلاث قطعهن طب).

- قال لهم: (يالحرفاء شاهيكو ده ما عرف (عرفت) ليه (له) مذهب!)

- قالوا له: أنت الشاي بتعرف ليه (له) مذهب؟. أنت محلك محل فلان عض وفلان ضرب. ونحن محلنا ده محل الطرب).

قال أحدهم يوصي أخته ويحذرها من الكمكلي:

- (عاشة (عائشة) أختي. (الكمكلي) إن جاكي في السرير لا ترقدي وفي البرش (حصير من السعف) لا تقعدي).

- ردت عائشة قائلة: (الكمكلي كيف أعرفه؟)

- أجابها قائلا: (عاشة أختي، الكمكلي أحدب وأغضب وفي عنقرته (قفاه) مشجشجب (أي عليه آثار جروح) وعفنته عفنة ضبان (ذباب) كن(إذا) سرب. نجار سروج تقول بعرف بركب).

وقولهم في الشاي:

- (أبو شعيره الهني المو شراب دني).

- و(الدندلوك شراب الملوك؛ تشوف أمك وأبوك تقول عدوك).

- (الشاي أن عطيته للفقير (الفقيه) بكتب ليك آية البسملة.وإن عطيته للصغير بترسل ليك عجلة عجلة. وإن عطيته للهايف أبو رقبة بيقول ليك: البيت ده فوقه عزبة، والبيت ده فوقه عزبة، وأنا أختي ذاتها هني عزبة!!).

- كلكتا بصاق الجرادة!!

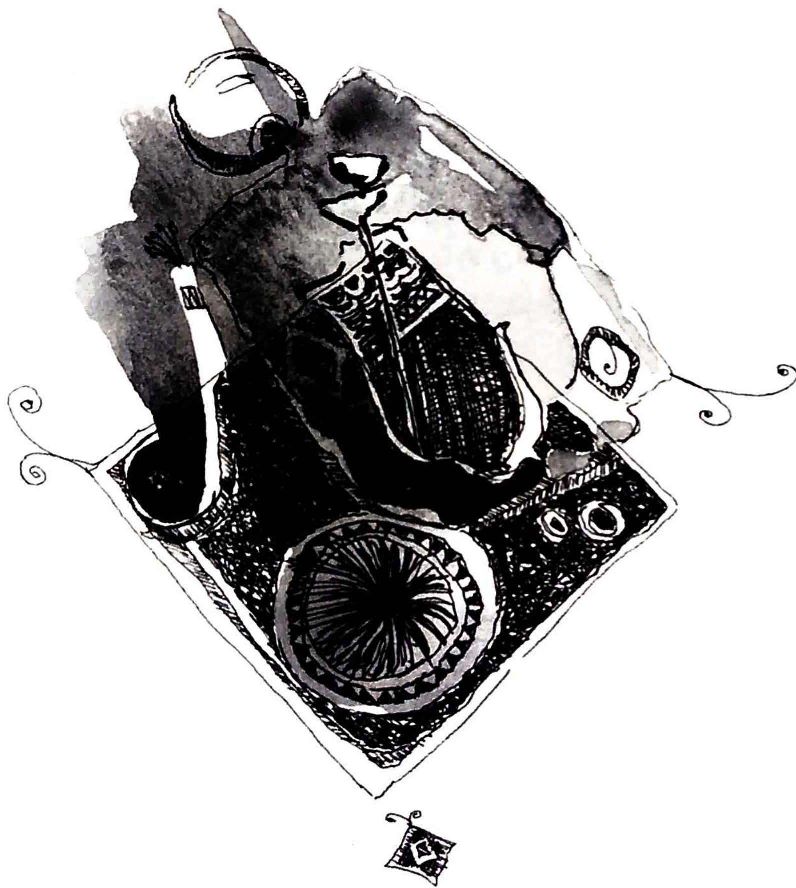
وقولهم:

- أبو شعيره أخير ليه(له) من حجالة (العزبة الهنجوكة) عيالها كثير. كن رقدوا بملو (يملأوا) السرير. وكن دقشوا (دخلوا) زرعك بياكلو أكلة حمير.

ويشكل الشاي أحد أضلاع المثلث المستحيل على المسكين تحقيقه حسب قول الشاعر:

- الشاي والشية وشلوفة (شفة) البنية المسكين ما بتلقن ليه!!

الفصل السابع
طرائف محلية



الفصل السابع
طرائف محلية

وضع الرمبية:

جاءت ذات مرة إحدى الأعرابيات بصحبة زوجها تشكوه للفكي (الفقيه) جبريل القوني، وتقول حسب عباراتها (إنه يحوم الليل) أي يقصد نساء أخريات في الليل. و(الحوامة) مصطلح معروف في المنطقة لمثل هذه الممارسات. وتقول إن السبب هو حملها الكبير. فما كان من زوجها إلا أن قال إنها حامل، وهذا سبب كافٍ لأن يقضي وطره مع أخريات وأظنه لم يكن يفطن لحرمة هذه الممارسة كمعظم البدو.

ولتبطل حجته قالت: أمانة تجيكم (أي استحلفكم بالله) الحوض لمن يتملي (يعبأ) أين يضعون الرمبية (الدلو)؟؟؟ فما كان من الحاضرين.. حسب معرفتهم بثقافة سقي الماشية والعد (مجمع الآبار) حيث يكون بجانب كل بئر عدة أحواض ملحقة بالبئر عن طريق قناة صغيرة، وتعبأ هذه الأحواض من البئر عن طريق صب الماء في القناة التي تنقلها بدورها للحوض، إلا أن قالوا: كتاب الله بره (أي لا نكتم شهادة). الحوض.. لما يتملي بختوا (يضعوا) الرمبية (الدلو) في المصفاة (القناة الرابطة بين البئر والحوض)- وهنا انظر لفصاحة هذه الأعرابية وتشبيهاتها الضمنية حيث قالت على الفور: «أنا بدوره يخت (يضع) الرمبية في المحل اللي قلتوه»!!!

معاشرة الضخام:

ذات مرة حضر من داخل حلة الجلابة أحد الأعمام بصحبة زوجته. وكان ضخم الجثة، ويعاني مرض القلنج (كوكة) – أي مرض يصيب خصيتي الرجل فتكبران بشكل مبالغ فيه حتى تعيقانه عن السير وممارسة كثير من الأعمال. وعادة ما يخاط كيس لهما مزود بحبل من القماش يلبس حول الرقبة.
اشتكت زوجته قائلة إنه (بقطع نفسها)، ففهم كبارنا المشكلة فوراً وأمروه ومنذ تلك الليلة أن يستلقي وتكون هي من فوقه!!

المحرش ما بكاتل:

المثل السوداني بيقول المحرش ما بكاتل (أي أن المدفوع دفعاً للقتال لا يقاتل). إلا أن المثل في هذه الحادثة أثبت عكس ذلك.

فقد جاءت أعرابية تشكو عدم قدرة زوجها على أداء (الواجب المنزلي) وأنه كبر وأن وجوده معها في البيت أصبح زي بعضه (زي عدمه) ولا يغرنكم الجبة الكبيرة التي يلبسها!! فحالهما معاً كحال امرأتين في منزل واحد!!

فعلم الناظر أن هذه المرأة سيئة الخلق لئيمة الطباع وليست (بنت رجال) – أي ليس فيها نخوة بنات الرجال الزينين - كما يقول السودانيون، وإلا لما فضحت زوجها علناً أمام الناس في المحكمة.

وهنا أضمر ناظر العرب الانتقام لذلك الشخص من تلك اللئيمة بعدما عرف أن ذلك الشخص كان مشغولاً بأبقاره جُلّ وقته والتي كان المسيرية يطلقون عليها وصف (الفضة أم صوف). وأنه يقضي سحابة يومه خلفها رعاية وسقاية.

سأله الناظر من باب إقرار واعتراف الشخص بذنبه. فوجد في وجهه علامات الغضب العارم. وأضرمها الناظر ببعض الكلمات المهينة لرجولته:
- فلان فضيحتك دي فضيحة شنو؟ انحن كنا عادّنك (نعدك) من الرجال الزينين ومالين أيدينا بيك، أتاريك

(في حقيقة الأمر إنك مجرد) بو (جلد عجل نافق يحشى فيبدو كأنه حي ليه وه به على أمه حتى يدر ضرعها فتحلب) ساكت!! ونحن قايلين الجبة الكبيرة دي داخلها راجل! يا خسارة!!

ولما استيقن الناظر من أن الغضب قد استبدّ بالرجل، أدناه منه وهمس في أذنه قائلا:

- المرة (المرأة) دي لئيمة، وما مرتك (ليست جديرة بأن تكون زوجة رجل فاضل مثلك). أخير تطلقها. لكن قبل ما تطلقها أديها (لقنها) درس ما تنساه عمرها. أنا توا (الآن) بخليك تدخل معاها في الأوضة (الغرفة) المجاورة وبدورك تفتها فتة ديك لجدادة (دجاجة) ونحن بنضلل (نظلل) عليك بأكمام (أردان) جببنا (جمع جبة) !!

ثم أشار الناظر للمرأة بأن تدخل الغرفة المجاورة ريثما تنظر المحكمة في قضيتها وأمر الرجل بأن يذهب إليها.

وما هي إلا لحظات حتى سمع الناس صراخ المرأة تستغيث بالناس. فقامت المحكمة بكاملها وفردت أكمام (أردان) جببها الكبيرة داخل الغرفة حتى قضى ذلك الشخص وطره فقام منها منكسرة وهو يسبها قائلاً:

- بت (بنت) الكلب توا (الآن) شفتي (رأيتي) ولا كو(لا) !!!



المسيرية وقيادات الانصار:

عندما رجعت خالة أحد إخوتي الأكارم بعد أن حضرت اللقاء المفتوح الذي تحدث فيه السيد الصادق المهدي في المجلد، ذهبت تحكي قائلة:

- « والله السيد اليوم قال كلام حلو حلاه عجيبة».

فلما سألوها ماذا قال أجابت قائلة:

- " هي أنا كلام سيدي بنعرف لي!!! "



الشجرة فيك:

كان الشيخ إبراهيم موسي مادبو، ناظر الرزيقات - رحمه الله - شيخاً تقياً ورعاً. وكان يقود الرزيقات وفق المنهج الرباني الإسلامي حتى في أثناء فترة حكم الاستعمار البريطاني. فكان الصيد عنده ممنوعاً في الأشهر الحرم فقط وليس حسب تعليمات الإنجليز.

كانت الضعين خالية من بيوت الخنا والخمور، حيث لا يجرؤ صعلوك أو (مطلوقة) من دخولها. حتى أن مساعدي سائقي اللواري (الشاحنات) حينما يقصدون الضعين فإنهم يهذبون من شعورهم ويحرصون على ألا يتفوهوا بكلمات بذيئة أو يسبوا الدين كما يفعلون في مناطق أخرى.

يقال إن أحد المفتشين الإنجليز في دارفور آنذاك أصدر تصريحاً لواحد من أبناء الفرنجة (الحمرة الأباها المهدي) بفتح بار (خمارة) في الضعين. فجاء ذلك المسكين من دون أن يدري أن شيخ الرزيقات لا يسمح بمثل تلك التفلتات.

بدأ الرجل في بناء الخمارة التي لم يعرفها العرب في بادئ الأمر حيث إن لفظة (البار) تعني البقر عندهم. ولكن خبرها وصل إلى الناظر إبراهيم موسي مادبو فدعا الرجل وسأله عن صحة الخبر، فأجاب الرجل بأنه يبني باراً (خمارة) وأن لديه تصريحاً من المفتش الإنجليزي.

هنا طلب الشيخ إبراهيم موسى مادبو من الرجل وقف البناء وأن يعود إلى من أصدر له التصريح ويخبره بأن الشيخ إبراهيم موسى مادبو رفض بناء الخمارة في دار الرزيقات.

رجع الرجل بعد فترة وعاود البناء في الخمارة للمرة الثانية، وعندئذ طلب الناظر إبراهيم موسى مادبو إحضار الرجل أمامه وسأله: ألم أمنعك من بناء الخمارة؟ فأجاب الرجل بأن المفتش الإنجليزي هو الذي أمره بأن يعود ويبني الخمارة.

هنا أمر الناظر إبراهيم موسى مادبو بجلد الرجل خمسا وعشرين جلدة قائلاً:

- شيلوا النصراني فوق.

وضرب الرجل حتى صار لونه أحمر كالطماطم. وأمره بالعودة من حيث أتى. ثم فوجئ الناس بعد فترة بعودة الرجل مرة أخرى ومعاودة بناء الخمارة. فأمر الناظر بجلده مجدداً وبأن يعود من حيث أتى ولكن الرجل عاد للمرة الثالثة إلى الضعين بعد مدة. وهنا ثارت ثائرة شيخ العرب وأخبر الرجل بأنه لو عاد مرة أخرى فسيقتله ضمة (ذمة).

لم يعد ذلك الرجل ولكن جاء المفتش الإنجليزي بنفسه هذه المرة وسأل شيخ العرب لماذا لا يذعن لأمره وقد أصدر تصريحاً للرجل ببناء الخمارة. هنا قال شيخ العرب للمفتش الإنجليزي:

- الشدرة (الشجرة) دي فيك إن ما بنيتها أنت ذاتك.

فغضب المفتش الإنجليزي ولكنه تمالك نفسه وعاد من حيث أتى مهدداً الناظر.

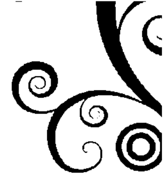
ويبدو أن الإنجليز انتبهوا لهذا الأمر ولما سينتهي إليه من نتائج لا تحمد عقباها لمعرفتهم بشيخ الرزيقات وأمروا بنقل المفتش الإنجليزي من دارفور.

عاد المفتش الإنجليزي بعد مدة حاكماً على دارفور كلها. وقام بزيارة الشيخ إبراهيم موسى مادبو وأراد أن يريه بأنه أصبح حاكماً كبيراً. فقال لمادبو

- مادبو. أنا بقيت مامور كبير.

فأدرك شيخ العرب بفطنته المعهودة ما يرمي إليه هذا النصراني فأجابه قائلاً:

- الشدرة (الشجرة) ذاتها كبرت!!!



عضو محكمة محترم:

اقتحم بدوي محكمة ناظر العرب فجأة والشرر يتطاير من عينيه، فهدأه ناظر العرب ثم سأله ما الذي أغضبه.

فقال البدوي:

- الناظر، الفلاتة من اللعد (من قبل) كانوا برسلوا عيالهم الصغار بينقلبوا (يتحولوا) مرافعين (ذئاب) صغار وبياكلوا السخلان والحملان. لكن البارح (البارحة) جاني الفلاتي الكبير القاعد جنبك ده ذاته، مرفعين بلتو (ضبع كبير) وأكل غنمي. توا (الآن) أنا بدوره (بطلب منه) يغرمهن لي!!

لم يستح هذا الأعرابي الجلف من أن الشخص الذي يطلب منه أن يغرم له أغنامه هو عضو محكمة محترم.

هنا شعر الناظر بالحرج فنهر البدوي وأنبه على كلامه وبيّن له استحالة أن ينقلب (يتحول) شخص من بشر إلى حيوان كاسر وسط قهقهات بعض أعضاء المحكمة ومن بينهم الفلاتي الكبير المتهم بأنه بلتو (ضبع) كبير!!



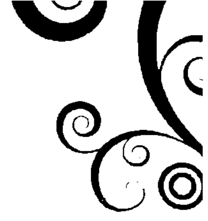
وجهان يجب الابتعاد عنهما:

تؤكد الأعراب أن وجه البندقية ووجه العربية (السيارة) هما وجهان يجب الابتعاد عنهما. وتقول الأعراب أيضاً إن الناس ثلاثة أصناف:

- شخص تلمح له فيفهم ما تريد ويمتثل.
- وشخص لابد أن تغلظ له القول حتى يمتثل.
- وشخص لا هذا ولا ذاك، فهو لا يفهم ولا يمتثل حتى تضع فوهة البندقية على صدره.

حضرتني طرفة لخال أحد أصدقائي ممن كانوا يؤمنون بالابتعاد عن وجه البندقية. ففي استراحة بعد رحلة صيد شاقة استلقى الخال المشار إليه على سرير لينال قسطاً من الراحة. وكان هناك من يحاول المزاح معه بتسديد البندقية إليه، فطلب منه خال صديقي أن يوقف هذا المزاح الذي يعدّه منطوياً على مخاطرة كبيرة. وسأل من يمازحه هل: هناك طلق ناري في البندقية أم لا فأجابه بالنفي. إلا أن خال صديقي لم يطمئن لنفي من يمازحه وطلب منه أن يبعد عنه وجه البندقية.

ويبدو أن هذا المازح لم يكن يدري أن بالبندقية طلقاً نارياً، فصوبها تجاه جانب من الغرفة التي كانوا بداخلها ثم قدح زناد البندقية التي انطلقت مدوية. هنا سقط خال صديقي في الحال مغشياً عليه من هول المفاجأة وكدنا أن نفقده إلى الأبد حتى عاد إلينا بعد فترة من الإغماء وهو يؤكد عدم الوقوف أمام وجه البندقية ووجه العربية (السيارة).



الدعافيس:

ومن طرائف العرب أيضاً أن أحدهم سأل صديقه هل يأكل دعافيس الخلا (القبيح من هوام الأرض) فأجاب بالنفي ودار بينهما الحوار الآتي:

- فلان بتاكل دعافيس الخلا ولا كو (لا)؟
- كو (لا).
- بتاكل جلب ولد ألمي «الماء» (الضفدع)؟!!
- واي (نعم/أي) باكله لكن دعافيس الخلا الآخرات ما باكلهن
- بتاكل الضب أبو صديراً منضب وبنط من شعبة لشعبة جلب جلب؟!!
- واي (نعم) باكله لكن دعافيس الخلا الآخرات ما باكلهن
- بتاكل قدالة أم شعيقات برامة العينين (الحرباء)؟!!!
- واي (نعم) باكلها لكن دعافيس الخلا الآخرات ما باكلهن

وباستمرار الحوار بينهما، تبين أن الرجل يأكل كل الدعافيس ولا ندري أي استثناء يقصد!!!



ألغام أولاد سالم:

كان أولاد سالم – يقطنون حي أولاد سالم، ذلك الجزء الذي يقع جنوب حلة الفكي جبريل القوني في المجلد - مشهورين بصنع البرام (قدور الفخار) للطبخ وحفظ ماء الشرب. ولتجويد هذه الصنعة كانوا يجمعون روث الماشية – الذي يحترق بهدوء ولمدة طويلة – ويطبخون به هذه القدور الفخارية بدفنها تحت الأرض. فكانت أشبه بحقل الألغام لمن لا يعلم مكانها.

وصادف أن مَرّ أحد الشبان وكان مخموراً. ومن دون أن ينتبه كان في وسط هذا الحقل من الألغام ولم ينقذه إلا صراخه الهستيري بين كل نزلة وأخرى في حفرة من حفر (البرام) المتقدة ناراً. وهنا طارت السكرة وجاءت الفكرة، ولكن بعد أن احترقت رجلاه وقضى مدة طويلة في علاج قدميه وساقيه!!



نعال البدوي:

في الطريق من المجلد إلى أبيي وبالقرب من كبري (الجنقاي) ضرب أحد البدو بيده بقوة على ظهر كابينة سائق الشاحنة أثناء سيرها مطالباً بإيقافها قائلاً:

- اربط، أربط ، أربط

استغرب ركاب الشاحنة كيف عرف البدوي مضارب أهله في تلك الناحية وفي تلك الليلة الظلماء الحالكة السواد والتي لا يرى منها شيء سوى ومضات البرق بين الفينة والأخرى ولا يسمع منها سوى دمدمة الرعد المتكررة التي تنذر بقرب هطول مطر غزير.

ولما كان الركاب القلائل - الذين يعتلون ظهر الشاحنة التي كانت تحمل أكياسا (شوالات/جوالات) من الذرة - خائفين من هطول الأمطار التي قد تتسبب في وحل الشاحنة وتأخيرهم بعد أن رأوا معاناة السائق والشاحنة في اجتياز المسالك الطينية الوعرة في تلك الناحية، فقد قابلوا بامتعاض طلب البدوي إيقاف الشاحنة.

أجاب سائق الشاحنة طلب البدوي على مضض فأوقفها وطلب من البدوي أن يسرع بالنزول من فوقها.

نزل البدوي على مهل وهو يحمل بعض أمتعته وقد ساءه غضب سائق الشاحنة والركاب. ويبدو أنه أثناء النزول نسي إحدى نعليه على ظهر الشاحنة.

فطلب البدوي من الركاب أن يبحثوا عن نعاله في المكان الذي كان يجلس فيه على ظهر الشاحنة، فبحث الركاب ولم يحالفهم الحظ في العثور على النعال. وهنا ضاق القوم ذرعاً بهذا البدوي وقد أحسوا بقرب هطول المطر.

فطلبوا منه أن يرحل من دون النعال بعد أن بحثوا عنها ولم يتمكنوا من العثور عليها، وأن يقدر الظرف العصيب وقرب هطول المطر.

وهنا ثارت ثائرة البدوي الذي رأى في طلبهم استخفافاً به وبممتلكاته بعد أن قال أحد الركاب:

- نعالك دي أصلها باتا!! ما هي (أم جنق) بس. أنت لابسها والكلب حارسها (أي نعال محلية تصنع من جلد الزراف أو البقر وعادة ما تترصدها الكلاب وتخطفها خصوصاً عندما تصيبها الرطوبة).

فأجاب البدوي بغلظة وغضب:

- الزول حر في شغلاته. لكن والله العظيم العربية (الشاحنة) دي ما تتحرك إلا بعدما أشوف نعالي بعيني.

وأردف البدوي قوله بحركة لم تكن متوقعة، وقام بضغط كوكاب سلجاي (رمح حاد) على لستك (دولاب/إطار) الشاحنة وأوشك أن يثقبه مما أثار مخاوف السائق والركاب.

نظر السائق إلى (لستك) الشاحنة وإلى البدوي وهو يضغط عليه برمحه الحاد. فأيقن السائق أن هذا البدوي ينوي شراً، فطلب منه بلطف أن يزيح الرمح الحاد حتى لا يثقب اللستك. ولكن البدوي أصرّ على موقفه وزاد من الضغط على اللستك.

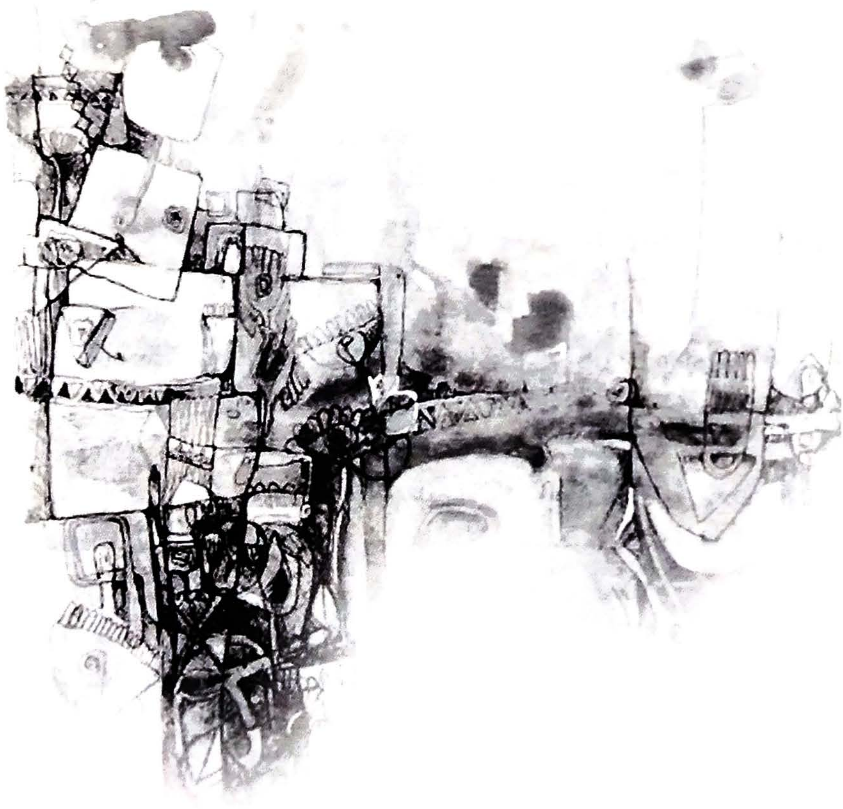
هنا طلب السائق من الركاب أن يبحثوا عن نعال البدوي وأن يرموها إليه، فانهمك الركاب مرة أخرى في البحث عن نعال البدوي، ولكن محاولاتهم باءت كذلك بالفشل ولم يعثروا عليها.

وعندما يئس السائق من البدوي ولم يتمكن من إقناعه بالعدول عن رأيه والمغادرة من دون نعاله، نزل وفتح الباب الخلفي للشاحنة وطلب من الركاب المساعدة في إفراغ الشاحنة من حمولتها. كل ذلك والبدوي لم يحرك ساكناً ولم يتزحزح عن موقفه ولم يخفف ضغط رمحه على اللستك.

استغرق إفراغ الجزء الأخير من صندوق الشاحنة أكثر من ساعتين وعثر الركاب أخيراً، على نعال البدوي التي تسللت بين أكياس الذرة إلى أرضية صندوق الشاحنة، فقام أحدهم برميها بحنق إلى البدوي الذي تناولها واختفى في الظلام الدامس قائلاً:

- كلب. ما قلتو ما بتخافوا !!!

الفصل الثامن
من نوادر سوق المجلد



الفصل الثامن
من نوادر سوق المجلد

الدرنقل:

الدرنقل (حصير ينسج من رقائق الخيزران بالسيور يلف ليحمل) يبسط على سرير العرب الرحل الذي ينصب على ست أو ثماني شعب تحفرها البدوية وعيالها ثم تضع عليها هذا الحصير وتضع فوقه الدلاء (جلد بقر مدبوغ كبير الحجم) ثم تضع الوسائد المحشية بأعشاب زكية الرائحة.

يخصص جانب من الدرنقل ليكون مخدعاً للمرأة وزوجها وجانب للأطفال الصغار. وأحيانا تتحرك الكلاب والسخلان والدجاج تحته بحرية كاملة أو تنام تحته إن شاءت وذلك لعلوه من الأرض وحفظ من عليه من هوام الأرض.

ويحكى أن أحد (الغشماء) حاول معرفة طول (درنقلهم) واختلف مع زوجته فقرر أن يرقد على درنقل معروض للبيع في السوق أمام الناس ليحكم عليه. فكان مدعاة لسخرية المتسوقين وضحكاتهم !!!

ومن نوادر سوق فجفتيني (سوق الخميس) أن بدوياً أضاع والدته في زحمة السوق فراح يجوبه طولاً وعرضاً وهو يحاول جاهداً إسكات الناس لينادي على والدته وسط قهقهات الناس من حوله!!!



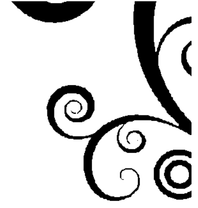
الكبس:

وبدوي آخر لم ينتبه لما يقول فكان أضحوكة المتسوقين أيضاً. فقد كان ذلك البدوي في عجلة من أمره ليحصل على حذاء (كبس) لابنته التي كانت تهرول من خلفه محاولة اللحاق به وهو يمر مروراً سريعاً على المحلات التجارية قائلا:

- بتي (بنتي) بدور الكبس. بتي بدور الكبس.

لفت نظره أحد كبار السن قائلاً:

- (قول بتي بدور نعال كبس وليس الكبس فقط!!!)



الأضيـة:

ومن النوادر أيضاً يحكى أن بدوية من بدو (البقارة) غاضبت أحد أبنائها فسافر إلى الخرطوم وهي لا تعلم أين ذهب. ولكن يبدو أن البدوية أم ذلك الشاب لا تعرف عن الجغرافيا شيئاً.

وفي إحدى أيام سوق الخميس أثارت إحداهن حفيظتها وذكرت لها أن ولدها سافر إلى الخرطوم، فما كان من تلك البدوية ألا أن قالت وهي غاضبة:

- الخرطوم القريبة دي، إن شاء الله يمشي «الأضية».

وهي لا تعلم أن (الأضية) لا تبعد كثيراً عن المجلد. وأن الخرطوم أبعد كثيراً عن المجلد!!

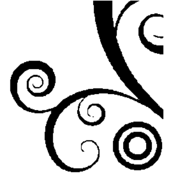


الرفاع:

غضب أحد الأعراب من عشيرته في المجلد فقرر الهجرة إلى الخرطوم التي لا يدري عنها شيئاً، فسأله أحدهم: ماذا تعمل في الخرطوم؟ فقال:

- بشتغل في عزيز كفوري بحلب اللبن ولا شركة النور
- وكن (إذا) ما لقيت شغل فيهن؟
- إن شاء الله أمشي بربر وأشتغل رفاع!!! (وهذا أسوأ شيء ومستبعد تماماً في نظر الأعرابي).
- شني (ما هي) خدمة الرفاع؟
- برفع كراع العيين (النساء) السمينات للضراط.

لا يعرف حتى الآن من أين جاءت هذه الفكرة إلى بادية المجلد! وكيف علموا أن في بربر نساء سمان لا يستطعن حتى تحريك أوراكهن السمينة للتخلص من الريح!!



أبكر قروش!!!

أبكر قروش شخصية مثيرة للجدل في المجلد. فقد اعتاد أن يحول كل شيء يلمسه إلى قروش (فلوس). ويعلم الناس أنه يستعين بالجن لفعل ذلك. ويعلمون كذلك أنه يقيم الولائم للجن في منزله القريب من التبلدية (أم قور) الضخمة حيث تسمع أصوات ولا يرى شيء.

زارنا أبكر قروش يوماً في أحد الأعياد ونفح أخي عبد الكريم ورقة نقدية من فئة الخمسة والعشرين قرشاً (طرادة) بلمسة للشملة، فدهش (عبده) ساعتها ولكنه كان يعلم أن أبكر قروش يفعل أشياء كهذه. آثر (عبده) أن يحتفظ بهذه الورقة النقدية لبعض الوقت ليستبين الأقاويل التي كانت تروج بأنه يسرق هذه الفلوس من تجار المجلد أو الذين لا يدفعون الزكاة فتتحول إلى ورق عادي مع مرور الوقت. احتفظ عبد الكريم بتلك الورقة النقدية إلى حين من الدهر ولكنها لم تتحول إلى ورقة عادية أبداً !!

كان الصبية يزفون أبكر قروش أينما رأوه، لأنه كان يمنحهم بعض الفكة (الصرف من الفئات الصغيرة).

قصد أبكر قروش السوق لشراء حاجياته في أحد أيام سوق الخميس، إذ كانت لديه حينذاك رغبة في شراء ديك. وكانت هناك أعرابية تضع أمامها بعض الدجاج والديوك المقيدة، فقصدها أبكر قروش ونزع ريشة من أحد الديوك وسرعان ما تحولت الريشة إلى ورقة نقدية من فئة الجنيه. ذهلت المرأة ولم تستوعب الموقف لكنها ظنت أن ديكها هذا معجزة وأن ريشه لا يعدو كونه قروشاً متحركة!!!

وهنا وقفت المرأة بإباء أمام أبكر قروش ورفضت بيع الديك. ضحك أبكر قروش وسار في حال سبيله وقصد

بدوية أخرى حيث اشترى ديكاً آخر تحت نظر وذهول تلك البدوية التي يبدو أنها لم تستوعب الموقف بعد!!! وبعد أن خف الناس من السوق أخذت البدوية ديكها خلسة خلف السوق وبدأت تنتف ريشه واحدة بعد الأخرى متوقعة أن يتحول الريش إلى عملة ورقية والديك يصيح والناس يضحكون من فعلتها!!

ويقال إن أبكر قروش كان يسافر في القطار من دون حجز أو تذكرة حيث يجد اسمه محجوزاً في مقصورات (النوم). ويمد يده إلى الخارج حين يأتي كمساري القطار أو المفتش فتوضع على يده العديد من التذاكر فيأخذ إحداها ثم يرمي بالبقية إلى الخارج أمام الكمساري أو المفتش المذهول!!

ويقال أيضاً إنه كان عندما يدخل السجن يجده الحراس في اليوم التالي جالساً خارجه. والسجن مغلق تماماً كما تركوه آخر مرة.

ومن الطرائف أيضاً أنه كان يمزح مع بعض الأشخاص في السوق فيذهب أعضاءهم التناسلية. وحين يغدو أحدهم إلى الأدبخانة (دورة المياه) لا يرى (بضاعته) فيعود مذهولاً من هول المفاجأة ويستعطف أبكر قروش لرد (بضاعته) إليه!!!

وحدث أن تخاصم مصطفى حجير، سائق بص (حافلة) المجلد البابنوسة، مع أبكر قروش. فنام تلك الليلة حتى صحا على جيف الحيوانات النافقة والقاذورات تملأ حوشه. ثم بدأت معركة حامية الوطيس بالبنادق وأصوات الرصاص داخل حوشه، ذعر الجيران وحلة الجلابة بأكملها جراءها. وفي صبيحة اليوم التالي أخذوه عنوة ليصالح أبكر قروش غير راغبين في قضاء ليلة كتلك التي مضت!!!



رفض الصلاة:

دخل أحد الأعراب إلى دكان عمنا إبراهيم الخليفة وجلس على مقربة من أعمامنا: الناظر بابو نمر وإبراهيم الخليفة وعيدو جورج وغيرهم. ثم نادى المؤذن أن حي على الصلاة، حي على الفلاح، فاستعد الناس للصلاة بالوضوء والخروج إلى المسجد.

هنا سأل أحدهم ذلك الأعرابي لماذا لا يستعد للصلاة. فقال الأعرابي:

- أنا بصلي بدور شنو؟!!! الصلاة يصليها الناظر بابو نمر وإبراهيم الخليفة وغيرهم الذين عطاهم الله هدوم (ملابس) حتى سووها ملايات (شراشف)!!! أنا خلقي (ثوبي) واحد في رقبتي وقديم!!!

احتجاج من نوع غريب مهلك لا يعلم عنه ذلك الأعرابي شيئاً !!!



سليمان سمبكسة

أ. حادثة السوق:

ومن نوادر سوق (دينقة أم الديار) أن أحد أبناء المنطقة غاب سنين طويلة كان خلالها مسجوناً في (كوبر) وحصل على (شلخ) كبار المجرمين على خده الأيمن كعلامة على إجرامه. وعاد هذا الفتى بعد سنين إلى المجلد، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها. وقد كان ذلك الشخص مزوداً بكل أساليب إجرام المدن ومن بينها السرقة والملاكمة وما خفي أعظم.

وفجأة ظهرت سرقات للدكاكين من خلال ثقبها من سطحها المغطى بألواح (الزنك) وفتح الخزائن. كانت حوادث أثارت دهشة أهل المنطقة الذين لا يعرفون مثل هذه الأساليب. انتبه عمنا الذكي الحصيف الناظر بابو نمر إلى نوعية الجرائم التي حدثت في تلك الآونة، فطلب من عيونه في المدينة البحث عن الأشخاص الغرباء الذين وفدوا إلى المدينة حديثاً. إلا أن العيون لم تهتد لهذا الشخص الماكر.

وكان (يوم الخميس) حيث جاء البدو بالصمغ لعمنا التاجر (بريمة حمودة) الذي اشتراه منهم ودفع لهم الثمن. وهنا كان (سمبكسة) – وهو اسم ذلك الشاب الشقي- يراقب البدو وهم يعدون نقودهم، فتسلل إليهم وسرق من أغلبهم النقود. لكن أحدهم رآه فصاح منبهاً الآخرين الذين تكأكأوا عليه شاهرين سكاكينهم. فما كان من سليمان (سمبكسة) إلا أن أعمل فيهم (تقانة) اللكمات وجندلهم صرعى كل يئن من شدة الضربة، وقد كسر أضلع بعضهم.

أخذ البدو إلى (شفخانة) المجلد – المشفى الوحيد – وهناك كان العجب العجاب. حيث سأل أحد البدو أخاه قائلاً:

- فلان شنو الفضيحة السويتوها دي؟!!! زول واحد يرقدكم كلكم ويكسر ضلوعكم. ويفعل فيكم كل الفعايل دي!!!

- والله يا فلان أنا عمري العامر كدر(لم يدر بخلدي أن) أم دلـدوم (اللكمة) بترمي ليها زول ما عندي خبر!!!

استدعى عمنا الناظر بابو نمر الشاب الظريف سليمان (سمبكسة) وبحكمته المعهودة ذكره بأن هؤلاء القوم أهله وأنه مرحب به في المجلد وأنه إذا طلب أي نوع من الأعمال الشريفة فسيوفره له حالاً، على أن يترك هذه الممارسات.

استجاب سليمان لفترة فعمل في المطاعم والمقاهي ثم عزف عنها. فبشره عمنا الناظر بابو بأن يتوسط له عند المسؤولين ويلحقه بعمل في الخرطوم رغم منع السلطات له من دخولها، فعمل في مواصلات العاصمة المثلثة، وكان سائقاً ماهراً لحافلاتها.

ب. الشهامة:

وذات يوم – أثناء الدراسة الجامعية - كنا نقف أنا وصديقي عاصم بابو نمر في شارع الجمهورية متوجهين إلى سينما (كلوزيوم)، فمرت بجوارنا حافلة. وفجأة سمعنا (أوسخ) فرملة. وقفت الحافلة فجأة وسط استنكارات الركاب وهرجهم ومرجهم، وهبط منها الأخ العزيز سليمان(سمبكسة) واحتضننا بسلام حار ووجه لنا دعوة للغداء في منزله والتعرف على عائلته. وكان حقيقة في منتهى الشهامة والرجولة والفتوة. ولم يعر بالاً للركاب الذين كانوا يصيحون من حوله. ثم في هدوء تام دلف إلى الحافلة وانساب بها وهي تتهادى في شارع الجمهورية.

ج. المطيب:

في أول مجيء سليمان (سمبكسة) للمجلد كان يقطن في حلة (أولاد سالم) الامتداد الطبيعي لحلة الفكي (الفقيه) جبريل القوني. وفي إحدى جلسات السمر اقترح أحدهم أن يعلم سليمان (سمبكسة) شباب الحي الملاكمة فكان أول المتطوعين لملاكمة (سمبكسة) أخونا (المطيب) الذي كان يعاني عطباً في إحدى عينيه. ويبدو، أن المطيب لهذا السبب لم يتمكن من رؤية سليمان (سمبكسة) الذي وجه إليه لكمة أطاحت به كما يقول أهلنا (وقع ضب أم فهق) لا يحرك ساكناً.

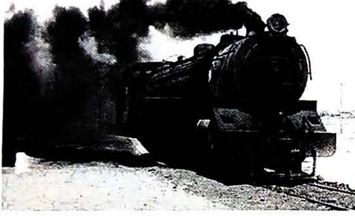
لقد كانت مفاجأة كبيرة حيث تجمهر الشباب وخرج الرجال والنساء من البيوت إثر سماعهم صياح الشباب. وبكت النساء (المطيب) الذي حسبنه قد فارق الحياة. كانت لحظات حرجة. وبعد ساعات عاد إلينا (المطيب) من غيبوبة طويلة ظنناها دهراً !!!

الفصل التاسع
من غرائب التكنولوجيا



الفصل التاسع
من غرائب التكنولوجيا

القطار:



سمعنا يوما عن وصول القطار إلى محطة رجل الفولة وشاع خبر وصول الفنان الذري إبراهيم عوض – صاحب شقة (تسريحة الشعر المشهورة – في ذلك القطار. فكانت مناسبتان سعيدتان: أن نرى القطار وإبراهيم عوض معا ولأول مرة!!

وقد سبق وصول القطار إلى المنطقة أساطير كثيرة، منها أنك إذا شاهدته في الأفق فلا تحاول قطع السكة الحديد، لأنه من دون أدني شك سيصدمك. وأنك إذا وضعت إبرة على قضيب السكة الحديد سينزلق القطار ويسقط. وأدخله البدو في ثقافتهم فقالوا: (الله واحد عين ديزل) سبحان الله!! فقد عانى سائقو القطارات من البدو كثيراً. وقتل الأعراب بعض السائقين؛ لأن القطار صدم ثيرانهم أو أبقارهم.

خرجت مجموعة من طلبة مدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى - وكنت من بينهم - قاصدين محطة السكة الحديد القريبة منها. ورأينا القطار يلوح في الأفق من بعيد وفوقه سحابة من الدخان الأسود ونحن نزداد شوقاً لرؤيته كلما اقترب. حتى وصل أخيراً فتجمهرنا حوله لنرى هذه الآلة لأول مرة.

كنا كالهنود الحمر متحلقين حوله ونحن مأخوذون بالصوت الذي يحدثه والبخار الخارج منه وحركة الآلات. وفي غمرة اندهاشنا، فاجأنا سائق القطار بجذب الصافرة التي دوت عاليا. وفي لحظة، ويا للهول!!! لم يكن هناك طالب واحد بالمحطة. ركض الجميع عبر غابة أشجار (الغبيش) التي كانت تفصل بين المدرسة والمحطة غير

آبهين لفروع الأشجار والشوك. وظللنا نركض لأكثر من خمس دقائق، لم يلتفت أحد منا خلالها وراءه ليستطلع ما الخبر.وخلت المحطة تماماً من الطلبة!!!

لم نعد للمحطة ولم نر الفنان إبراهيم عوض. وكنا نتساءل: ما الذي حدث؟!!!

ويحكى أيضاً أنه أثناء وقوف القطار في إحدى المحطات في تلك المنطقة، ذهبت إحدى البدويات لدورة المياه. وبينما هي هناك، تحرك القطار فطار صوابها وظنت أنه تحرك من دونها وتركها. فأخذت تصيح وتضرب باب دورة المياه بقوة حتى هب الركاب لنجدتها وطمأنتها بأنها داخل القطار وليست خارجه!!!



الإستك (الشريط المطاطي)

ومن النوادر أيضاً ومفاجآت التكنولوجيا، كان ظهور استخدام شريط الإستك (المطاط) في الملابس الداخلية النسائية (اللباسات/الكلسيونات). فقد كانت الملابس الداخلية النسائية فيما مضى يعالجها الخياطون (الترزية) بتكة (شريط من القماش) توضع على الجانب وتربطها المرأة متى ما لبست اللباس (الكلسيون).

ولقد أحدث ظهور شريط المطاط (الإستك) انقلاباً فكرياً وحضارياً في بادئ الأمر. وأشكل على الناس، فنظر الناس إليه بتوجس وشك. وحذر بعض الرجال نساءهم تحذيراً شديداً من لبس السراويل المزودة بالإستك، فكانت التي تلبس ملابس داخلية مزودة بشريط مطاط بدل (التكة) تعدُّ امرأة مشكوكاً في سلوكها لسهولة فك الملابس الداخلية. وصارت كل من تلبس ملابس مزودة بشريط (مطاط) تعيّر بأنها (أم أستك).

وبقينا على ذلك الحال زمناً حتى انفرجت المسألة تلقائياً. كيف؟ لا أدري. واعتاد الناس من يومها لبس النساء للملابس المزودة بشريط (الإستك).



الراديـو:

ومن مفاجآت التقنية أيضاً دخول الراديو (المذياع) إلى المجلد في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين. وإن لم تخني الذاكرة، فقد كان بالمجلد أول الأمر راديوهان فقط: واحد يملكه عمنا المرحوم الناظر بابو نمر والآخر يملكه أخونا عثمان جبريل القوني.

كان الراديو قديماً في شكل صندوق كبير الحجم (مثل السحارة التي كانت خزانة بدائية لحفظ الملابس). كان الراديو أطول منا ونحن في عمر الخامسة. لذا كنا مقتنعين تماماً بأن هذا الصندوق الكبير الذي يقول «هنا أم درمان» يحوي شخصاً بداخله وليس آلات فقط.

وكانت بطارية الراديو تؤخذ إلى طاحونة الغلال الوحيدة في المجلد وتوضع هناك لساعات طويلة لا ندري لماذا، ولكن علمنا، فيما بعد أن الغرض من وضعها هناك هو لشحنها.

عرف أخونا عثمان (رحمه الله) من أعيننا ما يدور بداخل رؤوسنا الصغيرة، فأصدر أوامره الصارمة بعدم قرب العيال هؤلاء (وكنا ثلة) من الراديو. لقد كان محقاً تماماً. فلو غفل للحظات لفتحنا ذلك الصندوق الكبير وربما أعطبناه نهائياً بسبب حب الاستطلاع الذي كان قوياً في دواخلنا لرؤية ذلك الرجل الذي يقول: «هنا أم درمان»!!!

كنا نكتفي بالجلوس قرب الراديو في الليل والنظر إلى صورنا المنعكسة على ظاهر الرتينة (مصباح يعمل بالكيروسين وبصيلة دائرية أشبه ما تكون بالشبكة مصنوعة من القماش محاطة بألواح صغيرة من الزجاج

تشكل دائرة لتقي البصيلة من هبوب الرياح). وكان الانعكاس على ظاهر خزان وقود الرتينة المطلي بالنيكل المصقول مثار إعجابنا فتارة تكبر أعيننا وتارة خدودنا وتارة شفاهنا حسب موقعنا وقربنا من (الرتينة).

تميز أخونا عثمان بابتكارات عجيبة في شبابه، فقد بنى غرفة وألحق بها درجاً يؤدي إلى سطحها. وهناك في السطح هيأ جلسة ظريفة تناثرت من حولها المجلات، ووضع كل رتينة في زاوية من السطح. فكنا نصعد الدرج لنلقي نظرة من فوق على البيوت حولنا. لكن الغرض الأساسي من صعودنا كان هو إمعان النظر في مجلة (الصبيان) التي كانت أهم مجلة بالنسبة إلينا ونحن في ذلك العمر فضلاً عن الاستمتاع بالنظر إلى صورة (أبو سنينة يضحك على أبو سنينتين). وصورة عمك (تنقو) رغم أننا كنا لا نقرأ ولا نكتب.

وزاد عثمان على ذلك بحفر بركة ماء كانت مليئة أغلب الأوقات بالبط والوزين (الإوز) البري الذي يقصدها للسباحة. فقد كثر البط في (حلتنا)، لأن أحد أبناء عمومتنا وهو مهدي أحمد الرفاعي كان متزوجاً من علوية التي تمت بصلة لمصر، فأكثرت من البط ولأول مرة نشاهد الفرن البلدي على الطبيعة حيث تصنع الخبز. فلقد كان بالمجلد كلها فرن واحد (فرن يوسف الفران) يصنع الخبز والغريبة و(رأس النيفة) في المساء وأشياء لا نعرفها.





دورة الميـاه:

في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي كان هناك عدد من شبان البقارة يعملون في شركة (سفريان) في الخرطوم. وكعادة البدو عندما يعرفون أن أحدهم يعمل في مكان ما يحاولون اللحاق به في تلك المؤسسة خوفاً من المجهول ولعدم درايتهم بأساليب المدينة وخبرتهم المحدودة.

فمثلاً كان هناك عدد معتبر في مزرعة ألبان (عزيز كفوري) في الخرطوم بحري يعملون حلابين (حيث لم تخترع آنذاك تقنية الحلب بالأجهزة الحديثة). وبالطبع فإن مهنة الحلب تعدُّ من المهن التي يتفوق فيها البقارة بحكم البيئة التي جاءوا منها. ورغم سوء أحوال العمل في هذه المؤسسة إلا أنها اكتظت بالعديد منهم.

وكانت هناك شركة النور (التي تطورت فيما بعد فسميت الإدارة المركزية للكهرباء والمياه) في حي بري حيث يقومون بأعمال الحفر لتوصيل المواسير ونصب الأعمدة الإسمنتية الكهربائية – رغم استهجانهم هذا العمل، فكانت الرسالة من دار المسيرية عموماً توجه إلى مؤسسة عزيز كفوري أو شركة النور فتصل فوراً. هذان هما المركزان الكبيران لعرب البقارة في الخرطوم في تلك الفترة.

وكان نساء البادية اللائي يقصدن المدن وبخاصة العاصمة يعملن في مهن هامشية لا تحتاج لكثير من الخبرة. وكانت مهنة (الكمريرة) إحدى هذه المهن. والكمريرة يعتقد بأنها كلمة يونانية أو تركية إلخ. وهي تعني (المربية). فترى الكمريرات يجالسن الصغار ويعتنين بهم في منازل الجاليات البيضاء (الإغريق والأتراك والشركس والأرمن واللبنانيين وخلافهم).

ذهبت إحدى عماتنا للخرطوم لزيارة ابنتها وأحد أقاربها الذي كان يعمل في شركة (سفريان). ودخلت دورة المياه فلم تجد سوى غرفة نظيفة فتساءلت في قرارة نفسها أين الأدبخانة؟ سألت الشبان عنها وكيفية استخدامها فأخبروها. وبعد قضاء حاجتها تفحصت الغرفة مرة ثانية ووجدت حبلاً قصيراً يتدلى من خزان دورة المياه فجذبته فأحدثت (الأدبخانة) زمجرة أخافتها فسارعت إلى الخروج منها قائلة:

- (هاي العيال! داهيكو رطن وهراركو كله مرق بره!!)



سينما بابنوسة:

سمى المسيرية شجرة الأبنوس بشجرة (البابنوسة). وتميزت مدينة البابنوسة بكثرة أشجار الأبنوس بها. وهي أشجار متوسطة الطول تتميز بلب أسود. وقد كانت هذه الشجرة منذ عهود الفراعنة إحدى السلع المهمة (مع ريش النعام وعاج الفيل اللذين يكثران في سهول وأدغال كردفان ودارفور) التي تجلب من السودان.

وقد أتخذ كبار القادة العسكريين عصيهم الرسمية من هذه الشجرة منذ قديم الزمان. كما دخلت في كثير من صناعات التحف والزينة والأثاث. فهي شجرة لا تأكلها الأرضة (النمل الأبيض) مطلقاً.

بعد إنشاء الروس مصنع الألبان ومستشفى بابنوسة، ودخول السكة الحديد، أصبحت بابنوسة المحطة الثانية بعد عطبرة من حيث ورش البخار والديزل والنقطة التي تتفرع منها القاطرات المتجهة غرباً إلى نيالا وجنوباً إلى واو. وفي أواخر الستينيات أنشئت سينما بابنوسة لتكون مرفقاً للترفيه عن أهل المدينة.

تميزت سينما بابنوسة أول أمرها بعرض مكثف لأفلام الغرب الدامي وأفلام رعاة البقر (الكاوبوي) التي كانت تلقى استحساناً من بدو المسيرية - رعاة البقر. فتكاد عروض أفلام رعاة البقر تحتل الأسبوع بكامله. ولا يعجب بدو المسيرية فيلم غير أفلام رعاة البقر، فهم يضطرون مدير العرض أحياناً لتغيير الفيلم أثناء العرض باحتجاجاتهم القوية عندما لا ينتبه المدير إلى وجود أغلبية من البدو.

عند عرض أفلام رعاة البقر والغرب الدامي ينقسم المشاهدون تلقائياً إلى مجموعتين: مجموعة مع رعاة البقر ببنادقهم ويسميها البدو (البنداقة)، ومجموعة مع الهنود الحمر بأقواسهم وسهامهم ويسميها البدو

(النشابة). ولا يحتاج بدو المسيرية لترجمة على الشريط – كما يقال. فهم يترجمون الفيلم حسب فهمهم وتفسيرهم للمواقف. فيكثر الحديث والتعليقات الساخرة بصوت عالٍ.

يقول أحد بدو المسيرية بحماس بعد مشاهدة فيلم (ديجانقو): إن ديجانقو دخل الإنداية (الحانة) فقام بدفع أحد بابي الحانة الصغيرين المعلقين. فأحدث الباب صريراً عند دخول ديجانقو وعند رجوع الباب تلقائياً إلى مكانه. ثم نظر ديجانقو إلى الرجال الذين كانوا يحتسون الخمر والجالسين حول الطاولات وقال باستخفاف:

- ظمكو (أي ظمئت أمكم).

يقول الأعرابي كان هناك شاب يجلس وحده يحتسي الخمر في ركن من الحانة وقد غطى وجهه بقبعة كبيرة لم يعجبه كلام ديجانقو. رفع ذلك الشاب رأسه ونظر إلى ديجانقو قائلاً:

- ديجانقو أفرز. ما تعيّر من جم!

هنا تسلل من الحانة بعض الرجال لإحساسهم بقرب نشوب قتال ضار.

وما هي إلا لحظات حتى اشتبك القوم في قتال مميت سقط على إثره ذلك الشاب الباسل بعدما عاجله ديجانقو بثمانية وجوه (طلقات)!!!



مصنع ألبان بابنوسة:

في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات وفي عهد الجنرال عبود أنشأ الروس مصنع ألبان بابنوسة حسب إستراتيجية الحكومة آنذاك في إنشاء عدد من المصانع في أقاليم السودان المتعددة وحسب الموارد المتاحة في كل إقليم لإنشاء المصنع.

فكان مصنع تعليب اللحوم والأزرار في كوستي وربك، ومصانع الفاكهة ومناشير الأخشاب في كتري ويامبيو وانزارا في جنوب السودان، ومصنع الطماطم في كريمة ومصنع التمور في دنقلا في شمال السودان، ومصنع الكرتون في أروما والبصل المجفف في هيا في شرق السودان. كما قامت حكومة عبود بإنشاء المنطقة الصناعية الكبيرة في الخرطوم بحري. وكان نصيب منطقة المسيرية مصنع الألبان في بابنوسة.

وبإنشاء مصنع الألبان انتقل كثير من أهالي المجلد والمدن المجاورة للإقامة والعمل في البابنوسة التي بدأت تأخذ شكل المدينة الحديثة بزيادة وتنوع السكان وفرص العمل المتعددة ولا سيما أن البابنوسة لا تبعد أكثر من ٣٢ كلم فقط من المجلد أكبر المدن في المنطقة آنذاك.

ودخلت الكهرباء لأول مرة في المنطقة بدخول مصنع الألبان. وشاهدنا، ولأول مرة، موظفي المصنع – الروس والسودانيين – يلعبون الكرة الطائرة وكرة السلة والتنس ليلاً تحت إضاءة غامرة. واكتسى ليل البابنوسة، في جهة المصنع، بإضاءة رائعة.

ولكن يبدو أن دراسة جدوى إنشاء المصنع لم تأخذ في الاعتبار الموروث الاجتماعي من عادات وتقاليد المسيرية

بشكل أكثر عمقاً. فقد كان المسيرية لا يبيعون اللبن ويعدّون بيعه عيباً كبيراً. فكيف تباع النعمة كما يسمونها!!! فالنعمة إما أن تقدم مجاناً، أو يتصدق بها، أو تترك في ضروع أمهاتها لصغار الماشية والعجول، أو تقدم للكلاب سواء كانت حليباً أو لبناً رائباً، وأن أي ممارسة غير هذه الممارسات المذكورة قد تجلب الشؤم والنحس على الحلال (الماشية).

كان الاستثناء الوحيد هو تغير سلوك قلة من البدو عندما اضطروا لمجاورة المدن الكبيرة واحتاجوا إلى التعامل بالنقود لقضاء حاجاتهم الضرورية اليومية.

وكان الأغنياء من عرب البقارة في بادية المسيرية يفيضون ببعض الشوايل (البقرات الحلوبات) على الفقراء ليعيشوا عليها، ولا يحق لهم بيعها. وقد أنقذ هذا الموروث الاجتماعي الرائع كثيراً من الفقراء – في البادية والحضر على حد سواء – عندما ضربت المجاعة بعد الجفاف والتصحر تلك المناطق في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين.

اعتمد المسؤولون في المصنع بضع مليمات لرطل اللبن كسعر رسمي، فكانت تلك الخطوة قاصمة الظهر في نهوض المصنع بالصورة المطلوبة، ففي ذلك الوقت لم يكن البدو يعتمدون المال بشكل كبير في تعاملاتهم التجارية، لأن تعاملاتهم كانت أشبه ما تكون بالمقايضة إلا فيما ندر.

لم يحرك هذا السعر الزهيد في بدو المسيرية ساكناً، ولم يغير نظرتهم للنقود. فحاجتهم إلى النقود محدودة جداً. فهم يلجأون إليها عند دفع الضرائب ببيع صغار البهائم في أسواق المجلد وبابنوسة والمدن الأخرى، وعند شراء بعض مقاضيهم مثل: السكر والشاي والملابس وغيرها. ويقضون عدة أشهر لا يحتاجون خلالها إلى التعامل بالنقود.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان مفهومهم للثراء يتبين من خلال قطعان الماشية نفسها. فالغني عندهم هو الذي يملك أعداداً كبيرة منها وليس الذي لديه فلوس. وكان هذا عاملاً مساعداً آخر في عدم اهتمامهم بالنوعية الجيدة من الأبقار سواء كانت للحوم أو الألبان.

وثالثة الأثافي أن المصنع لم ينشئ مزرعة خاصة به لتلبي حاجته من اللبن في بادئ الأمر، حتى يتغير الموروث الاجتماعي تدريجياً عند المسيرية وتتغير نظرتهم للنقود أو يغير المصنع إستراتيجيته في التعامل مع عرب المسيرية.

لقد أنتج المصنع بادئ الأمر أنواعاً من الأجبان – الجبنة البيضاء والمضفرة «الرومية» - ومشتقات الألبان الممتازة، ولكنه فشل في حث العرب على بيع ألبان أبقارهم وأغنامهم.

كانت سيارات الداف (DAF) المجهزة لنقل الحليب تنطلق من البابنوسة إلى بحر العرب وتعود بكميات قليلة من الحليب. ومع مرور الوقت تحول المصنع لتصنيع الصمغ والكركدي بدلاً عن الأجبان والألبان ومشتقاتها!!!!



ظهور البترول:

في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي وإبان حكومة النميري تم اكتشاف البترول في منطقة المسيرية في حقول (أبو جابرة) و(الوحدة) و(هجيليج) وغيرها. ومع ظهور البترول شهدت المنطقة نزوح أعداد كبيرة من البشر إليها طلباً للعمل في حقول النفط والمجالات الأخرى، ما غير كثيراً من وجه التركيبة السكانية في المنطقة.

أحدث ظهور البترول في منطقة المسيرية تغييرات كثيرة في البيئة وأنماط العمل والتركيبة السكانية والتقنية. فلأول مرة تشق طرق كثيرة غير معبدة تلك المنطقة وتكثر حركة المواصلات. وتنصب أبراج آبار البترول، ويكثر هبوط الطائرات القادمة من الخرطوم وكينيا والولايات المتحدة والمغادرة إليها.

وكان لشركة شيفرون الأمريكية قصب السبق في اكتشاف البترول في المنطقة رغم تراجعها في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين وإيقافها عمليات التنقيب واستخراج البترول في المنطقة بحجة عدم الاستقرار في المنطقة نتيجة لحركة التمرد التي بدأت في جنوب السودان عام ١٩٨٣م.

كانت الأبقار تدخل في نوبة من الجاعورة (الخوار/ الجأر) عندما تمر قريباً من آبار البترول التي ردمتها شركة شيفرون – حين قررت مغادرة المنطقة - وتشم رائحة البترول الذي يرشح من تلك الآبار.

شاهد بدو المسيرية الأمريكان لأول مرة وأدركوا أن الأمريكان يختلفون عن الإنجليز في أشياء كثيرة. وقد عقدوا مقارنات بين الأمريكان والإنجليز، فتوصلوا إلى أن الأمريكان (عبيد خواجات). فالبدو يعتقدون أن

أخلاق الأمريكان سيئة، وأنهم يكثرون من السباب والشتم بسبب وبلا سبب. ولم يعهد البدو هذا النمط من السلوك عند الإنجليز.

كما تمكن البدو من معرفة بعض المصطلحات السيئة مثل كلمة (بل شت) التي تعني روث الثور والتي يكثر الأمريكان من قولها. فكان البدو يردون على الأمريكان عند قولهم (شت) قائلين:

- إن شاء الله تشت فيك النحلة (أم دلوا) (تتكور مثل دلو الماء) تقطع أضانيك (أذنيك).

كان الأمريكان - في رأي البدو — يختلفون عن الإنجليز المهذبين الذين عاشوا مع بدو المسيرية في تلك المنطقة ولهم ذكريات طيبة معهم. فقد كان الحكام الإنجليز من مجموعات مختارة ومثقفة بحكم تبعية السودان — أيام الاستعمار - لوزارة الخارجية البريطانية وليس لوزارة المستعمرات البريطانية.

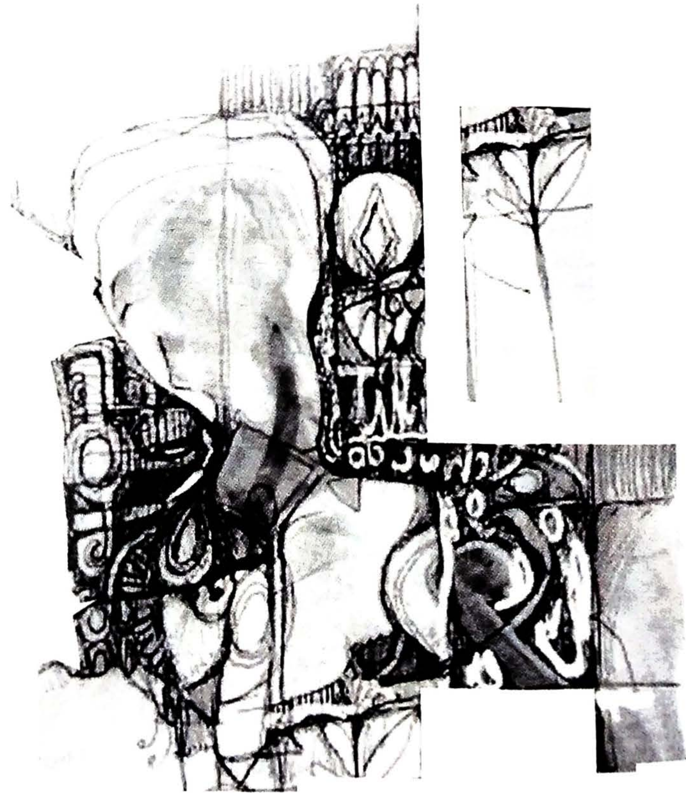
فبجانب الحكام الإنجليز أمثال مايكل تبس، كان هناك الباحثون الأكاديميون أمثال البروفسير إيان كنسون الذي استضافه الشيخ الجليل العمدة حرقاص — عمدة المزاغنة - لأكثر من أربع سنوات ولازم العمدة في الحل والترحال من المجلد إلى بحر العرب وبالعكس وكتب سفره الرائع عرب البقارة (Baggara Arabs) الذي أصبح مرجعاً في علم الاجتماع في جامعة الخرطوم.

وكرد فعل مبرر لجأ البدو لمضايقة الأمريكان ومعاكستهم. فكانوا يخفون براميل الوقود - التي يضعها الأمريكان على مسافات محددة للتزود بالوقود منها أثناء تجوالهم في المنطقة وفي طريقهم إلى بحر العرب - في حفر ويردمونها ثم يبيعونها للتجار ويقبضون ثمنها بعد وصف أماكنها لهم.

أما الذين عملوا مع الأمريكان في حقول النفط في مهن الحراسة والخفارة، فقد عانوا الأمرّين من الأمريكان الذين يمرّون عليهم ليلاً ليتأكدوا من عدم نومهم. فإذا وجدوا أحدهم نائماً فإنهم يعمدون لأخذ حذائه أو شيء من ممتلكاته كدليل على نومه ويفنشونه (ينهون وظيفته) في صبيحة اليوم التالي، فكان البدو يقولون:

- الزول يكالك (يجاهد) الدود (الأسد) ولا يكالك الخواجي مغضب الله. يمر عليك في الليل ويقول ليك (فنش) في الصباح.

الفصل العاشر
حكم وطرائف الناظر بابو نمر



الفصل العاشر
حكم وطرائف الناظر بابو نمر

مقدمة:


المرحوم الناظر بابو نمر
(ناظر عموم المسيرية)

كان الناظر بابو (عثمان) نمر ناظر عموم المسيرية واجهة عرب افتقدته دار المسيرية والسودان قاطبة؛ فقد كان رحمه الله يتميز بذكاء وقاد وحكمة وأناة. ونادراً ما يستعجل في أمر من الأمور من دون أن يعمل فيه عقله؛ لذا كانت قراراته صائبة في أغلب الأحيان. وكان يتمتع بقوة احتمال للغير لا توصف.

وكان – رحمه الله – إذا وفد إلى محكمته شخص من عائلة محترمة وأرومة طيبة لا يلجأ لمحاكمته على جرمه فوراً، بل ويعمل بالمثل القائل: (ارحموا عزيز قوم زل)، ويستعين علىذلك بمعرفته بأنساب الناس. ثم يسأل الشخص أسئلة استفهامية تعجبية منها:

- أت (أنت) ماك ول(ولد) فلان الفلاني؟
- نعم.
- وأت (أنت) أمك ما ها فلانة الفلانية؟
- نعم
- طيب يا ولدي أت ما خالك فلان وعمك فلان الفلاني!!!
- نعم
- يا ولدي المثلك ما بجيبوا محكمتي دي. تواً (الآن) قم داري فضيحتك دي.

فينهض الشخص وهو خجل فيعالج مسألته مع خصمه ويرضى بأي شيء حتى لا يعود لمحكمة الناظر الذي استنهض فيه الخصال الحميدة وذكره بمآثر أهله الطيبين بل إن ذلك الشخص يحرص على ألا يكون، بعد فعلته تلك، وصمة العار في تاريخ أهله.


المرحوم الناظر علي نمر
(ناظر العجايرة)

وبالإضافة لتلك الخصال الطبيعية التي حباه الله بها، كان الناظر بابو نمر وسيماً كشقيقه علي -رحمهما الله - وسيماً وأنيقاً ومهندماً، في كل الوقت ومثالاً لزعيم العشيرة. وله مقولات مأثورة في زعماء الإدارة الأهلية كقوله:" الإدارة الأهلية مثل قلم الرصاص الذي يؤدي الأدوار نفسها التي يؤديها قلم التروبن (Tropin) الأغلى ثمنا". وأنهم - أي زعماء الإدارة الأهلية - (هم الوقاية التي هي خير من العلاج). فغالباً ما يحتاطون للكارثة قبل وقوعها على عكس الشرطة التي تأتي متأخرة دائما بعد وقوع الكارثة وسفك الدماء.

وقد دأب – رحمه الله – على عمل اتفاقيات مع القبائل التي تجاور المسيرية وسرت تلك الاتفاقيات كالقانون فساعدت على توطيد دعائم السلام في المنطقة طوال فترة زعامته حتى جاءت حكومة مايو وبقرار غير مدروس ألغت الإدارة الأهلية وألغت معها السلام والاطمئنان في ربوع السودان قاطبة. ومن يومها لم يشهد السودان أمناً مستتباً ولا سلاماً. أفما كان الأجدر دراسة وتصحيح مسار الإدارة الأهلية في بلد ترتفع فيه نسبة الأمية ولا يعرف الناس ولا يثقون في غير زعماء عشائرهم!!!

وحينما ألغيت الإدارة الأهلية كونت لجنة لمحكمة المجلد من شخصيات معروفة في المجتمع، ولكن الأعرابي حين قدم ليعرض قضيته ولم يجد الناظر بابو نمر وإنما وجد أحد أعمامنا ويدعى بابو أيضاً ضرب كفاً بكف قائلاً:

- من الناظر بابو إلى بابو ده. قضيتي ذاتها خليتها!!!



غرامة الثور:

شكا أعرابي أحدهم متهماً إياه بذبح ثوره من دون وجه حق فاحتج الرجل بأنه ذبح الثور؛ لأنه خاف أن (يموت فطيسة) فحلله (إي ذبحه ليحل أكله) ولم يكن في نيته أن يذبحه لولا ذلك الظرف الطارئ، غير أن صاحب الثور أنكر أن ثوره كان على وشك أن ينفق، وطلب من الناظر أن يغرم الرجل ثمن ثوره. ولم يستطع ذلك الرجل الإتيان بشهود حين ذبح الثور.

نظر الناظر في المسألة واستيقن من صحة حجة الشخص الذي ذبح الثور، ولكنه احتار في كيفية إقناع صاحب الثور الذي لا يزال يتهم هذا الشخص البريء. وهنا ومَضَت في ذهن الناظر فكرة فقال مخاطباً صاحب الثور:

- السوق الجاي (أي سوق الخميس القادم) إن شاء الله فلان ده يجيب (يأتي بـ) ستة من ثيرانه الزينات وتعزل (تختار) منهن واحد.

فرح صاحب الثور وذهب يعد الأيام ليوم الخميس القادم حيث سيأخذ ثوراً من ثيران خصمه.

وفي يوم الخميس الموعود جاء الخصم المسكين بستة من ثيرانه وهو حزين مكسور الخاطر، وقام بعرضها أمام المحكمة ليأخذ منها غريمه الثور الذي يختاره.

خرجت المحكمة بكل أعضائها إلى حيث الثيران، وجاء صاحب الثور المذبوح. وهنا قال الناظر:

- فلان توا (الآن) أخوك جاب ثيرانه وبدورك تعزل (تختار) ليك واحد زين.

طار صاحب الثور المذبوح فرحاً بهذه البشرى. واتجه إلى حيث الثيران واختار أفضلها. وهنا سل الناظر سكينه

وقال آمراً صاحب الثور المذبوح:

- تواً دي السكين أضبحه (أذبحه)!!!!

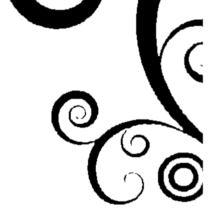
هنا أسقط في يده. ومن دون أن يدري قال للناظر:

- الناضر (الناظر) كيف أضبح (أذبح) الثور وحيدي (بمفردي)!!!!

في هذه اللحظة قال له الناظر:

- وكيف ضبح (ذبح) فلان ثورك وحيده (وحده) !!!

وعندئذٍ أيقن صاحب الثور المذبوح أن ذلك الرجل صادق في قوله وأنه لو لم يجد الثور على وشك أن ينفق لما استطاع ذبحه، ورضي بحكم المحكمة.



الحلة الخربانة:

ذات مساء حكى لنا عمنا الناظر بابو نمر حكاية «الحلة الخربانة» بأسلوبه الآسر فقال:

أراد الأسد والنمر والذئب والثعبان والثعلب السكن معا في كهف واحد. فقالوا: يجب أن نتفق على شروط حتى يطيب السكن. فسألوا الأسد عن شروطه في السكن فقال:

- «أنا ملك الغابة ولا أحب العوة (الضجة). فمن يساكنني يجب أن يلزم الهدوء في كل حركاته وإلا قتلته».

ثم سئل النمر عن شروطه فقال:

- «أنا بصطاد فرائسي وبخزنها ليوم أو يومين حتى تتعفن. ولا أحب أن يأكل لحمي (الزفر) أي حيوان منكم. ثم إني – بطبعي – لا أحب أن ينظر إلي حيوان أو إنسان في عيني. فمن نظر إلي والتقت عيني بعينه فلا يلومن إلا نفسه، لأني قاتله».

وسئل الذئب عن شروطه فقال:

- «أنا كثير الخروج والدخول لآتي لجرائي بلحوم النافق (الفطايس) من الحيوانات. لذا أحب أن أكون في أول الكهف وألا يأكل أحدكم اللحم الذي أجلبه لجرائي».

وسئل الثعبان عن شروطه فقال:

- «أنا حيوان زاحف أتغاضى عن كل شيء إلا الفجغة (الدعسة) لأنها تشل حركتي وتؤدي لموتي».

وأخيراً جاء الدور على الثعلب ليملي شروطه فقال:

- «حلتكودي (حلتكم هذه) حلة خربانة. وأفضل ألا أسكن معكم، ولكن سأكون بجوار الكهف، فإن استقر وطاب المقام بكم قد أفكر في السكن معكم وإلا فلا».

سكن الأربعة في ذلك الكهف زمناً. واحترم كل منهم حق الآخرين في السكن والتزم بالشروط المطلوبة. وبعد مدة يبدو أن النمر كان يخرج للصيد فيقمح (لا يجد ما يصطاده)، فيعود ليجد لحم جراء الذئب المتعفن فيتناول منه. وشعر الذئب وجراؤه بنقص اللحم فسأل الذئب جراءه عمن يأكل اللحم. فأجابوا بأن: عمنا النمر يلتهم بعضاً منه أحياناً.

حنق الذئب الذي أيقن أن هذه الفعلة هي من أفعال النمر ولا أحد غيره يحب اللحم (الزفر). وبدأ يختلس النظرات إلى النمر حانقاً وهو يدرك أنه بهذا السلوك يخل بشروط النمر.

وذات مرة التقت عينا الذئب بعيني النمر الذي قفز مزمجراً فقتل الذئب. وخرقت الزمجرة شرط الأسد الذي يلزمهم الهدوء. فهجم الأسد على النمر فقتله. وفي هجومه على النمر فجغ (دعس) الثعبان الذي لدغه فمات الأسد والثعبان!!!

ومن حينها ظل الثعلب إلى اليوم يصيح في البراري وينادي بأعلى صوته: « الحلة الخربانة» «الحلة الخربانة» «الحلة الخربانة»!!!



أعمار الحيوانات:

لخص شيخ العرب أعمار الحيوانات بأسلوبه الظريف قائلاً: « في بدء الخليفة منحت كل الحيوانات عمراً واحداً محدداً. فكان نصيب كل من الإنسان والحصان والجمل والكلب والقرد ٣٠ سنة.

قرر الحصان التخلي عن العشر سنوات الأخيرة من عمره وأن توهب لحيوان آخر. ورأى أن العشرين سنة كافية للمعارك والسباقات ولا داعي لزيادة التعب. ولما كان ابن آدم لا يملأ عينه إلا التراب، طلب هذه العشرة الإضافية فصار عمره ٤٠ سنة. لذا فإن الإنسان يتميز في سن الأربعين بقوة الحصان.

وقرر الجمل أيضاً التخلي عن العشرة الأخيرة من عمره ورأى أن العشرين سنة كافية للحمل والإناخة المتكررة وطي الصحاري والصبر الطويل على التعب. طلب ابن آدم الطماع كعادته أن يعطى العشرة الإضافية التي رفضها الجمل. فأعطيها وصار في سن الخمسين صبوراً كالجمل يتحمل الكثير من المسؤوليات بصبر عجيب.

ومنح الكلب ثلاثين سنة لكنه رفض العشرة الأخيرة وقرر أن عشرين عاماً كافية للنباح والحراسة ومطاردة الصيد و(بلاش وجع قلب). ومرة ثالثة يطلب ابن آدم العشرة الإضافية التي رفضها الكلب. فيصير ابن آدم في سن الستين في منتهى الحساسية ينبح - آسف (يصيح) لأقل إزعاج ويكثر من الطلبات والأوامر كالكلب في كثرة النباح. فتراه يحاول تنظيم العالم حسب رأيه ويكثر من الأوامر والطلبات: «يا ولد أفعل كذا، ويا ولد اذهب إلى هناك، ويا ولد اجلس ساكناً، ويا ولد ويا ولد»!!! لهذا يتضايقون كثيراً ممن هم في هذه السن.

وأخيراً جاء دور القرد الذي منح ثلاثين عاماً وبدوره رفض منها العشرة الأخيرة؛ لأنه رأى أن عشرين عاماً كافية

للقفز من فرع إلى آخر وتفلية (البحث عن قمل) رفيقة دربه والبحث عن الأشياء في الأرض إلخ...

قرر ابن آدم فوراً أخذ العشرة الإضافية الأخيرة، فصار عمره سبعين عاماً. عندها يصير الإنسان كالقرد تماماً يجلس بين الناس وهو في وادٍ والناس في وادٍ آخر. فيبدأ (تفلية) نفسه وملابسه من القمل. ويهرش (يحك) إبطيه بين الحين والآخر برفع يديه إلى أعلى وهو ممعن النظر في إبطيه كالقرد تماماً!!!»



ديك العدة:

كان شيخ العرب أقدم البرلمانيين إبان حكم الجنرال جعفر محمد نميري. وقرر أعضاء المجلس الاحتجاج على نميري في أمر من الأمور وشكلوا لجنة كان من ضمنها شيخ العرب.

كانت لهجة البرلمانيين متشددة وقد قرروا أن يقدم العريضة شيخ العرب. نظر شيخ العرب في العريضة ووجد أنها لغة ليست متسامحة ولن تعجب الحاكم أياً كان، وهو الإداري والبرلماني الحصيف العارف بأمور الحكم، فسألهم: أهناك شيء آخر تريدون تقديمه للنميري فأجابوا بأن هناك مصحفاً يودون تقديمه له، وهنا طلب منهم أن يوكلوا إليه هذه المهمة.

تعجب البرلمانيون من طلبه. - لكنه (شيخ العرب) كان يدري ما يفعل. وتخابث بعضهم قائلاً بأن شيخ العرب جبن عن تقديم العريضة. وساعتها قال لهم:

- «النميري ديك عدة ولو سلمتوه العريضة دي تسمعوا كلام ما بعجبكم».

وهنا انفجر المجلس في ضحك هستيري مستغربين كيف يشبه شيخ العرب النميري بديك العدة!!! فردّ عليهم شارحاً تشبيهه قائلاً:

- المرة (المرأة) قاعده تغسل في عدتها: كبايات (أكواب) القزاز (الزجاج) وصحانة (أطباق) الصيني. وفجأة يقفز ديك كبير فوق العدة على السرير الذي كانت تكفئ عليه العدة لتجف. فإن كانت عاقلة تترك الديك حتى ينزل من تلقاء نفسه حتى لو اتسخت بعض الأواني. ولكن إن كانت غشيمة تنهره وتقول ليه «كر». عندها سيكسر الصيني والقزاز ويعدمها الصحن!!!

ضج المجلس ثانية بالضحك ونقل الجماعة إياهم الخبر إلى النميري الذي يسكن في شارع ود البصير وشيخ العرب في شارع الدومة – مع أرحامه آل المهدي - بحي ود نوباوي.

طلب النميري شيخ العرب وكان يعرف ظرفه وذكاءه فأخبره شيخ العرب بالواقعة وأن البرلمانيين لا يعرفون عن الحكم شيئاً، وأن الحكم من الأربعة التي لا أمان لها «الحاكم ولو قرب منك». وهو أدرى بذلك بحكم زعامته لعشيرته، فأستأنس النميري بإجابة شيخ العرب رغم اعتراضه على التشبيه!!!



سبحة وبعر:

في أعقاب انقلاب هاشم العطا وبعد خروج النميري من قبضة زملائه كان أحد أبناء شيخ العرب قادماً من الخرطوم بحري عبر كبري شمبات (أم درمان – بحري)، فقبض عليه العسكر الذين كانوا يحرسون الكبري بالدبابات – إثر مشادة - وأنزلوه إلى قيادة المظلات تحت الكبري من الجهة اليمنى.

علم شيخ العرب بالأمر فذهب إلى النميري في بيته في شارع ود البصير في ود نوباوي. وللمرة الثانية وبظرفه المعهود قال للنميري:

- جماعتك بلمّوا سبحة وبعر!!!

طلب منه النميري أن يفصح، فقال:

- شايب كبير والدنيا مغرب بدخل غنمه في الزريبة. وفجأة انفرط (انقطع) حبل السبحة (المسبحة). فأخذ دائرة جلابيته وبدأ يجمع حبات المسبحة. ولما كانت الدنيا مغرباً والشايب شوفه جبك (على قدره)، كان يجمع حبات المسبحة وبعر الغنم لتشابههما. ربطهما حتى الصباح حيث يستطيع أن يميز بين حبات المسبحة والبعر فيأخذ حبات مسبحته ويرمي البعر. البارحة جماعتك جمعواسبحة وبعر. توا (الآن) الصباح أصبح شوف سبحتك وارم لي بعري!!!

ضحك النميري لظرف وذكاء التشبيه وأمر بإطلاق سراح ابن شيخ العرب.



وجه الشبه بين لندن والمجلد:

وصل شيخ العرب المجلد قادما من لندن مع الوفد السوداني حيث أنعم عليه بلقب سير (Sir) فاجتمع العرب حوله يسألونه أن يصف لهم لندن في الوقت الذي لم يغادر معظمهم المجلد أبداً، فأجابهم قائلاً:

- لندن مثل المجلد في الخريف!!!

هنا فرح العرب لعلمهم بجمال المجلد في الخريف. فقد قرّب إليهم شيخ العرب الصورة بمنتهى الذكاء!!!

ومن طرفاته أنه قال إن للإنجليز باقيات صالحات مثلنا: فالباقيات الصالحات عند الإنجليز هي : سوري (آسف)، وبليز (من فضلك)، وثانك يو (شكراً).

وموقف طريف آخر حين هبطت طائرتهم في مطار لندن وجاء حمال إنجليزي لحمل حقيبة أحد زعماء الإدارة الأهلية، عندها قال زعيم الإدارة الأهلية للحمال:

- لا يا جنابك بشيلها أنا.

ضحك الناظر وقال لزعيم الإدارة الأهلية:

- فلان الزول ده حمال بس.

فكانت إجابة زعيم الإدارة الأهلية:

- أنت شن عرفك باكر كن (إذا) جابوه لينا مامور كيف تعرفه؟!!!



أتو حمر ونحن حمر:

ومن الطرائف أيضاً أن السيد جقود مدير مصنع ألبان بابنوسة دعا شيخ العرب الناظر بابو نمر لمناسبة في المصنع بحضور عدد من الروس. فارتجل شيخ العرب كلمة قال فيها:

- توا (الآن) أتوا (أنتم) حُمر ونحن حُمر!!!

فلم يفطن لحديثه إلا القلة . فقد كان – رحمه الله – يقصد أن الروس (حُمر) - أي شيوعيون - ونحن أيضاً مسيرية (حُمر). ألا رحم الله شيخ العرب فقد كان ذكياً لماحاً.



الطيرة أم جناح:

بحكم أنه عديل السيد الصادق المهدي فقد كان الصادق المهدي والإمام الهادي المهدي – رحمه الله رحمه واسعة – ينزلان عنده أيام انشقاق الحزب إلى جناح الصادق وجناح الهادي في أواخر الستينيات من القرن العشرين.

فسأله يوماً الإمام الهادي المهدي عن موقفه السياسي وهل هو مع جناح الصادق أم جناح الهادي؟ عندها أيقن العرب أن شيخهم قد سقط في فخ يصعب عليه الخروج منه. لكن شيخ العرب بدهائه وذكائه المدهش أجاب الإمام الهادي بسرعة بديهة قائلاً:

- من الله خلقنا ما شفنا طيرة بتطير بجناح واحد!!!

ولم يزد على ذلك تاركاً المسألة لفطنة السامعين!



الدنيا أم عيوناً فوق:

عندما بدأت المظاهرات المضادة في أواخر أيام حكم الجنرال عبود - رحمه الله - كان شيخ العرب عند صديقه الرئيس إبراهيم عبود، فسرد لعبود كيف أن عيون الدنيا ليست في الأمام وإنما هي فوق رأسها. وهي عادة ما تتناول أي شخص وتضعه على كرسي الحكم من دون أن تراه. ومنذ تلك اللحظة تبدأ تلوليه (تهدهده) وهي ترفع يديها رويداً رويداً إلى فوق رأسها. وعندما يصل إلى موضع عينيها وتراه ترمي به فوراً قائلة:

- جع، هذا ليس بولدي. وتأخذ شخصاً آخر لم تره!!!

فسأله الرئيس عبود ممازحاً قائلاً:

- ماذا تقصد بهذا المثل يا شيخ العرب؟!!

فأجاب شيخ العرب قائلاً:

- أنا شايف يدين الدنيا قربن لرأسها وأخشى - وأنا في طريقي إلى المجلد - أن أسمع أخباراً لا تسر!!!

هنا ضحك الرئيس عبود وعرف ما يرمي إليه شيخ العرب. وفعلاً كانت ثورة أكتوبر وتنحى عبود عن السلطة. وجاء شيخ العرب فزار صديقه فاحتضن كل منهما الآخر وهما يضحكان من غرائب الدنيا أم عيوناً فوق!!!



تقرير مصير السودان:

ينسب إلى شيخ العرب كثير من المواقف الطريفة. وفي هذه الطرفة يقال إنه في يوم التصويت على مصير السودان بالبرلمان القديم في شارع الجمهورية أيام الاستعمار، أيقن شيخ العرب أن الشباب: إسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب ومبارك زروق وغيرهم من قادة الرعيل الأول لن يهابوا المستعمر وسينتزعوا منه الاستقلال انتزاعاً.

لذا قرر شيخ العرب في تلك الجلسة أن يدعم هؤلاء الشباب الشرفاء، فاحتدم النقاش وكان شيخ العرب يخطط للكيفية التي يساعد بها الأزهري وصحبه. فتوصل إلى وسيلة ذكية وقرر أن يحيد المتخاذلين من زعماء الإدارة الأهلية الذين أتى بهم روبرتسون – حاكم عام السودان – خصيصاً ليقفوا بجانبه. فقد كان روبرتسون حاكماً مهاباً.

وفي استراحة البرلمان قبل صلاة المغرب بقليل، ذهب النواب لشرب الفراولة والشاي في مقهى البرلمان فطلب شيخ العرب من مجموعة من زعماء الإدارة الأهلية الصلاة جماعة والتوجه إلى الله بالدعاء لينصر السودان وهو يعلم أنهم المتخاذلون أنفسهم!!!

أمّهم شيخ العرب في صلاة المغرب، ويقال إنه قرأ عليهم سورة البقرة وأطال حتى سمع المسؤول عن دخول البرلمان - وكان حينئذٍ عمنا زاهر الساداتي - يمنع أحدهم من الدخول بإنجليزية رصينة: نو (No). ويقال إن عمنا زاهر الساداتي – رحمه الله - كان من الإنجليز السود حزماً وانضباطاً، كغيره من أبناء جيله.

تأكد شيخ العرب من عدم إمكانية دخول هذه الفئة إلى البرلمان وحينها سلم من الصلاة. وتسابق أفراد هذه المجموعة إلى البرلمان حيث سمع صوت عمنا زاهر الساداتي للمرة الثانية يمنعهم الدخول. عندها عادوا لشيخ العرب يؤنبونه على تطويل الصلاة في وقت مصيري كهذا، وما علموا أن شيخ العرب قد حسب المجموعة الموجودة داخل البرلمان وعلم أنهم سيفوزون بصوت واحد أو صوتين على الأكثر إذا بقيت هذه الفئة في الخارج.

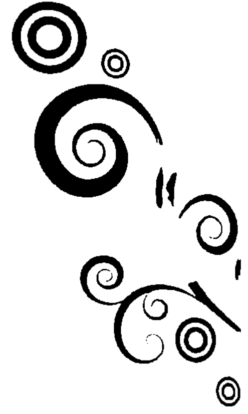
وقد اعتذر شيخ العرب لزملائه عن التطويل في لباقة قائلاً:

- أنا بقاري ولقيت سورة البقرة وسرحت بيها!!!

وبعد فترة وجيزة خرج الجمع من البرلمان وكان السيد عبدالرحمن المهدي من الغاضبين على غياب شيخ العرب من تلك الجلسة المصيرية التاريخية. فأخذ بيد شيخ العرب يلومه على عدم حضوره الجلسة. عندها أخذ شيخ العرب بيد السيد عبد الرحمن المهدي بعيداً عن البرلمانيين وأخبره قائلاً:

- أخير (أفضل) يغيب بابو والمجموعة المتخاذلة وينتصر السودان بصوت أو صوتين ولا أحسن يدخلوا ويفشل السودان؟!!

ذهل السيد عبد الرحمن من دهاء شيخ العرب. وسأله كيف عرفت أننا فزنا بصوت واحد فقط!!! وهنا أخبر شيخ العرب السيد عبد الرحمن المهدي القصة فزاد شيخ العرب عظمة وإجلالاً في نظر السيد عبد الرحمن المهدي!!!



منابت الخضراوات:

كنت وصديقي عاصم ابن شيخ العرب في منزل السيد عبد الرحمن المهدي بود نوباوي مستلقيين على سريرين نتبادل الآراء حول جمال إحدى زميلاتنا أيام الشباب في جامعة الخرطوم. كان عاصم يقول بجمالها وكنت غير واثق من هذا ومتشكك فيه.

وكان شيخ العرب يتوضأ في (البرندة) فأنصت لحديثنا وعلم بسرعة بديهته عمن نتكلم وعرف البنت التي كانت ابنة أحد أصدقائه من زعماء السودان وحكامه. فوافقني الرأي قائلاً:

- بنت فلان مش ممكن تكون جميلة. فهي أن أخذت رقبة أبوها أو وجهه أو رأسه أو قامته فلن تحظى بالجمال أبداً. عودوا غداً للجامعة وتفرسوا فيها. والبنات شوفوا بكيناتهن وما تشوفوا وجيهاتهن (أي انظروا لمنابت الخضراوات «البنات» وليس لجمال وجوههن).

فعدنا كما قال وتفرسنا فيها. فأيقنا أنه كان صائباً مائة بالمائة فيما قال، ولكن يبدو أن لونها فقط هو الذي راق في أعيننا. أما تقاطيعها فكانت كما قال!!!

رحم الله شيخ العرب، فقد كان عديله السيد سر الختم الخليفة رئيس السودان الأسبق - رحمه الله رحمة واسعة - يحبه ويجله كثيراً. وكان يلازمه عندما يأتي من المجلد إلى أم درمان ويقول إن شيخ العرب مدرسة فريدة من نوعها.

كان شيخ العرب يحثنا لكتابة التاريخ الذي يسرده لنا عن القبيلة وعن السودان. لكننا في ذلك الوقت - أوائل السبعينيات من القرن العشرين - كنا مشغولين بزهرة الحياة.



الفضة أم صوف:

البقارة كغيرهم من رعاة الماشية والإبل والغنم يحبون سعيتهم حباً جماً. فقد أطلق المسيرية على قطعان الماشية اسم (الفضة أم صوف)؛ فهي السلم إلى الوضع الاجتماعي المرموق وكما قال الشاعر:

إن الدراهم في الأماكن كلها	تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السلاح لمن أراد قتالا

لذا فإن المسيري لا يبيع أبقاره مهما كانت الحاجة، ولكنه يستعيض عنها بالغنم الأقل حجماً وشأناً. ويبدو أن المسيرية قد أخذوا بعض العادات الإفريقية من الدينكا (نقوك) الذين يجاورونهم في إجلالهم البقر على وجه التحديد.

كان المفتش الإنجليزي يعاني الأمرين في جمع الضرائب من المسيرية فاستخدم حيلة علها تغنيه عن المعاناة، فكان لا يأخذ الضريبة إلا عندما تحسب الأبقار قبل أن تقطع الوادي (منطقة بعينها). وكان الوادي يشكل حاجزاً طبيعياً عندما يمتلئ بالماء فينتظر المسيرية على ضفته حتى يخف زخمه ثم يعدّون بقطعانهم.

يغتنم المفتش الإنجليزي هذا الظرف فيبدأ في عدّ الأبقار ليفرض الضريبة بناءً على ذلك. لكنه لاحظ أن البدو يقسمون على كتاب الله بكل سهولة. ويتلاعبون في إعطائه العدد الصحيح لماشيتهم فضاق ذرعاً بهذا السلوك بعد أن علم أنهم يخفون الكثير من قطعان الماشية.

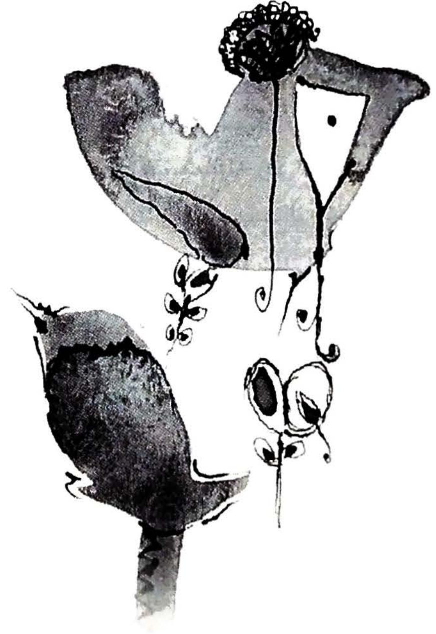
طلب المفتش من الناظر بابو أن يبحث عن وسيلة أخرى تقيد البدو حتى يتمكن من معرفة العدد الحقيقي لما يمتلكه كل مسيري من أبقار فأعمل الناظر ذهنه الوقاد وجاء بوسيلة أذهلت المسيرية.

فقد نحا الناظر بابو المصحف جانباً، وبدأ يطلب أصحاب القطعان فرداً فرداً، ويحرص على أن يكون معه بعض أقاربه في الفريق وغيرهم ممن يعرفونه. ثم يقول للمسيري:

- فلان قول بطلاق فلانة أنا بقري عددهن كده؟

فيقف البدوي وقد أخذته الدهشة، فيطالب الناظر بالمصحف ليقسم عليه. فيأبى الناظر. فيسقط في يد البدوي، لأنه يعلم أنه إذا أقسم بطلاق فلانة (زوجته) فإن المخاسرية (من يريدون له الخسارة) سيطلقونها فوراً منه. وعندما لا يجد بداً من القسم بالطلاق يلجأ إلى إعطاء العدد الصحيح وهو مغموم!!!

الفصل الحادي عشر
حكايات متنوعة



الفصل الحادي عشر
حكايات متنوعة

الأربعاء (أم قيني)

(الأربعاء عقاب شهر أو واحد العشارين):

الأربعاء (أم قيني) هي آخر أربعاء في الشهر. وكانت العرب تتطير منها، فلا يخرجون للصيد أو خلافه، فقد كان يعدُّ يوماً مشؤماً.

خرج أحدهم في ذلك اليوم الشؤم للصيد فوجد جدي غزال يرتع فصوّب بندقيته وفي اللحظة التي انطلقت فيها الرصاصة وقتلت الجدي، هجم عليه أسد كان متربصاً بالجدي أيضاً. وهنا لم يجد الرجل غير شجرة ليونة (مشهورة بلينها) قريبة منه ليصعد إليها.

انحنت شجرة (الليونة) ومالت نازلة به إلى الأرض فأيقن أن الأسد لا محالة مفترسه. وعندما وصلت أغصان (الليونة) إلى الأرض ضرب بكلتا رجليه الأرض وصعد بالليونة ثانية إلى أعلى وفي الاتجاه المعاكس. وظل يضرب الأرض ويطير مجدداً من جهة إلى أخرى حتى يئس الأسد منه فتركه وذهب.

استمر الرجل يكرر تلك الحركة تلقائياً حتى وجده بعض الأعراب. وبعد مجاهدة استطاعوا الإمساك به، وأنزلوه عنوة من شجرة (الليونة) وذهبوا به إلى (الفريق) وهو في حالة هستيريا وفقدان عقل. وكلما وجد فرصة غافلهم بالضرب بكلتا رجليه على الأرض!!!



طلع الشجرة بقفاه:

أبو (ناندية) بدوي كان مسافراً قاصداً فريقه فجنَّ عليه الليل في الطريق وهو يسير وحده فرأته الضباع فأغراها وجوده وحده في ذلك الليل البهيم فصوت الضبع الأول. ومعلوم أن الضباع إذا صوت أحدها جاءت الضباع الأخرى مؤازرة له.

وكان البدو يلجأون لجرح أحد الضباع فتطارده بقية القطيع حتى يلتهموه. وينجو البدوي منها. ولكن يبدو أن أبو ناندية لم يتمكن من طعن أحدها. ولكنه لجأ لحيلة أخرى عند البدو فربط خلفه فرعاً من شجرة شائكة حتى لا تهاجمه الضباع من الخلف أثناء سيره وأشهر حربته الكبيرة النصل أمامه ليهش بها الضباع ويدافع عن نفسه كلما اقتربت منه وسدت عليه الطريق.

ولكن يبدو أن كل الحيل أعيت أبو ناندية فلم يجد بداً من تسلق شجرة وهو ملتزم بظهره إليها. ومنذ ذلك اليوم ظلت الحكامات «مغنيات البدو» تهجو أبو ناندية وكيف أنه طلع (صعد) الشجرة بقفاه، وذلك إمعاناً في استهجان فعلته وتعييره بالجبن؛ لأن البدو في المنطقة لا تعدُّ الضباع والكلاب حيوانات مخيفة ومرعبة!!



صيد الفيل: العقيد وخبير قرجة

اعتاد البدو صيد الفيل كطقس من طقوس بلوغ الأولاد مرحلة الرجولة. فكان على الولد أن يمر بتجربة صيد الفيل مع أقرانه قبل أن يعطيه والده قطيعاً من الأبقار أو الأغنام أو الجمال ويزوجه ويفصله عن العائلة (يتُر/يفرز له عيشته) ليبني عائلته الخاصة به. ويبدو أنه طقس إفريقي أخذ طريقه إلى عادات البدو في منطقة المسيرية.

يتكون العقيد من خمسة وثلاثين (٣٥) ولداً، بقيادة رجل خبير بالأفيال يعرف تماماً أين تتواجد في البرية وأماكن رعيها. ولهذا سمي « خبير قرجة» . و«قرجة» تعني الفيل في مصطلحات البدو.

يبدأ هذا الخبير رحلته بهؤلاء الشباب من الفرقان المختلفة وهم على ظهور الخيل أو راجلين. وعندما يصلون إلى مواقع الفيلة، يختار الخبير أحدها. ويبدأ في التخطيط للمعركة. فيتجه هو إلى الفيل مباشرة «ليقوده» كما يقولون، ويطمعه فيه بالجري البطيء بالحصان ولا يرخي العنان لفرسه، ثم يأمر الشباب بالذهاب من خلف الفيل وأن يعملوا فيه حرابهم طعناً. وحين يكثر الطعن على الفيل يتجه صوب الشباب. فيتولى أحدهم مسؤولية قيادته مجدداً، ويعود الآخرون خلف الفيل طعناً بالحراب. وهكذا تكون المعركة مشايلة (كر وفر) إلى أن يجثو الفيل أو يقع على جنبه.

وتعدُّ جولات المطاردة من أخطر الجولات ، فهي تعتمد على مدى المهارة في ركوب الخيل ومهارة الروغان من فروع الأشجار بالتواري منها بجانب الحصان الأيمن أو الأيسر. وقوة ملاحظة طبيعة المنطقة. فقد تكون بالمنطقة أخاديد تشكل خطراً على الخيل. فيسقط الحصان بصاحبه وعندها يهجم عليه الفيل فيقضي عليه بكلكله. الجدير بالذكر أن صيد الفيل بغير الحراب ممنوع ويعد جبناً في عرف المسيرية.

عندما يسقط الفيل يبدأ الشباب أولاً باستخراج السنين العاجيين. ويعدُّ هذا العاج أكبر غنيمة، لذا فإنه يوزع بين الشباب ليعطوه (الحكامات) « مغنيات البدو» كعلامة على الفتوة والرجولة وطلباً للمدح منهن.

أما إذا لم يستطع العقيد أن يقتل فيلاً أو هرب من الأفيال، فتلك هي الطامة الكبرى. ولا يسلم العقيد من ألسنة الحكامات الساخرة طوال العام حتى يأتي العام القادم ويتحرك عقيد آخر إلى المهمة ذاتها!!



الضبيب ول (ولد) حميدان:

أذكر أنه في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، ذهب أحد البدو ويدعى (الضبيب ول «ولد» حميدان) إلى صيد الأفيال والزراف في بحر العرب، واستأنف رحلته إلى بانتيو ومديرية أعالي النيل. تم القبض عليه بعد أن دخل في معركة مع ضباط الصيد وقتل أحدهم. فحكم عليه ونفذ فيه الحكم شنقاً في ملكال؛ لذا فقد كانت فترة الخمسينيات فترة حافلة بالأغاني التي تمدح الضبيب وتبين شجاعته في مواجهة الحكم ومنها:

- الضبيب ول حميدان خريف الدرت الصب على البخات
- الميـــــت مـــــا خـــــلا عـــــوض بـنـات

من أطيب لحوم الصيد لحوم الغزلان والزراف التي كانت تعرض جافة في الطشاتة (جمع طست) في سوق المجلد وأحياناً تكون مخفية بعد أن منع المستعمر صيدها. يعنى من يصيدون الزراف بخيلهم عناية خاصة ولمدة قد تصل إلى الحول حتى يتمكن الحصان من اللحاق بسهولة بالزراف (ركوب الجن).

هذا، وتنطوي مطاردة الزراف في القراديد (السهول) على مخاطر كثيرة منها سقوط الفارس نتيجة ضربة فرع من فروع الأشجار أو دخول رجل الفرس في شق في الأرض إلخ. وهي تعتمد على مهارة الفارس في المقام الأول.

استعملت عرب البقارة في صيد الزراف الحراب في أول الأمر ثم لجأت إلى الأسلحة النارية، ومن بينها أسلحة محلية الصنع غير مأمونة العواقب يسميها العرب دق أبو زرطة(ضرطة) يعني سلاح أي كلام... وقد يرتد

الطلق الناري من هذه البنادق المحلية الصنع على صاحبه فيفقأ عينه أو يلحق به أضراراً كبيرة.

ومن طرائف الأشياء أن مخ عظم ساق الزراف مسكر لدرجة فقدان الوعي. وقد عرفت العرب هذه الخاصية؛ لذا فبعد صيد الزراف وأكل اللحم يبدأ الخبثاء منهم بكسر عظم ساق الزرافة وصب ما فيه في إناء ثم يطبخونه مع بعض اللحم ويتناولونه، وعندما تظهر عليهم أعراض السكر وفقدان الوعي، يبدأ الشباب في الهرج والمرج فيضرب بعضهم بعضاً بأي شيء في متناول أيديهم. لذا يحرص كبار السن على إبعاد كل الأسلحة وإخفائها في أماكن بعيدة عنهم عندما يرون أحدهم وقد بدأ في إعداد هذه الطبخة الخطيرة!!



قتـال الأسـد:

يبدو أن ملك الغابة يعرف مكانته. فإذا قتل معزة أو شاة تركها وانصرف ولا يقاتل دونها. أما إذا قتل جملاً أو ثوراً أو أياً من الحيوانات الكبيرة الحجم فإنه لا يذهب عنه ويستعد لمقاتلة كل من يتجرأ لإبعاده عن ذلك الحيوان. وهذا سلوك غريب تميزت به الأسود فقط. على عكس قطعان الذئاب الفوضوية التي تهجم جماعات وأفراداً وتفر أمام من يقصدها.

هناك سلوك آخر فريد لملك الغابة، وهو أنه لا يفعل فعل الضباع وقطعان الذئاب. فلا يقاتل كمجموعة، ولكنه يأتيك واحداً تلو الآخر حتى لو قتلتهم جميعاً؛ وقد علمت البدو هذا السلوك، ولهذا السبب فإنك تراها لا تخاف شق طريقها وسط مجموعة من الأسود المسترخية تحت الأشجار. ويظهر الأسد كذلك سلوكاً محترماً عند ورود الماء. فلا يشرب حتى تشرب اللبؤة والأشبال. لكل تلك الصفات بالإضافة لتميزه بالقوة الجبارة كان الأسد ملك الغابة.

عندما يصطف البدو لمقاتلة الأسد الجاثم فوق البهيمة الميتة (النافقة) ، يكون اصطفافهم حسب أولاد الصرة (أي أولاد الرجل الواحد) ثم الأقارب جنباً إلى جنب. ولا يترك وسط المجموعة شخص غريب عنها حتى لا يتوانوا في الدفاع فينال منهم الأسد. ويستبعد البدو من يستخدم يده اليسرى (الأعسر) لأن الأسد - وفي مرات عديدة - كان أول ما يبدأ بهذا الأعسر. يموه لقتل الأعسر بالهجوم على الجهة المعاكسة له ثم فجأة يتحول إليه فيضربه ضربة قوية تطيح به.

ينتظم البدو في نصف دائرة أمام الأسد وهم شاهرون رماحهم الكبيرة الأنصال، الطويلة القنا حتى يلزموا

(يصدوا) الأسد بعيداً عنهم. فإذا هجم عليهم (لزموه) بالحراب دفعة واحدة وهم ممسكون بها. ويوالي الآخرون الطعن حتى يجهزوا عليه.

«الدغارة» قبيلة في تشاد تستخدم أسلوباً فريداً في قتل الأسد؛ إذ يقوم رجلان فقط بقتله، إذ يتقدم أحدهما الآخر ويدخل الرجل الذي يقف خلفه نصل حربتين كبيرتين بين ذراعي الرجل المتقدم وجنبيه الأيمن والأيسر. وهنا يتقدم الأول نحو الأسد ومن خلفه القابض على قناتي الرمحين، وعندما يهجم الأسد على المتقدم يدفع الذي من خلفه النصلين في جوف الأسد، ويخرج الأول من مكانه ويقبض بإحدى الحربتين و(يلزمانه) حتى يخرج آخر أنفاسه.

يتخذ بعض البدو جلد الأسد بعد الدبغ للصلاة أو الجلوس عليه. ولكن من غرائب الأمور أن الكلاب لا تدخل أي بيت به جلد أسد حتى ولو كان مدبوغاً.!!!



أذنا الأسد:

هي أسطورة من دارفور استخدمها البقارة لمن تريد شغله عنك ببعض الأمور فيحلّ عنك. فيقولون: (فلان مسَّك فلان أضاني «أذني» الأسد).

تقول الأسطورة إن رجلين من الفور كانا مسافرين في طريقهما إلى بلدة ما. وباتا ليلة في العراء، وعند الفجر ذهب أحدهما ليطير الشراب (يتبول). وكان النعاس لا يزال محكماً عليه. فتخطرى شيئاً (أي رفع قدمه فوق شيء ما). كان ذلك الشيء أسداً هزبراً. نهض الدود (الأسد) فجأة ووجد الرجل نفسه معتلياً ظهر الأسد.
قبض الرجل على أذني الأسد بكلتا يديه، ثم خطرت له فكرة جهنمية فنادى زميله قائلاً:

– أبكر. تعال أمسك خليني أطير الشراب (أبول).

نهض زميله ويبدو أنه لم يستيقظ تماما. فأمسك بأذني الأسد اللتين تركهما زميلة إسحاق. عندها ناداه إسحاق قائلا:

– أبكر، أقعد عافية. إذا كديس خلاء (قط الخلاء) طلقاك نلاقو (نلتقي) في فاشر أبو زكريا!!!



ضابط الصيد:

في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي نقل ضابط صيد من البحر (من الشمال) إلى المجلد. .لم يكن ذلك الضابط الجديد يدري أن المنطقة تعج بالحيوانات المفترسة. وفي أول مشوار له إلى أبيي وجد قطيعاً من الأسود فأذهله عدد هذا القطيع ولم يكن يتصور أن تكون مهمته بهذا العسر، فرجع من توه وطلب نقله إلى منطقة أخرى وتم له ما أراد.

قرر المسؤلون في مركز المجلد أن يعينوا السيد أزرق زايد – رحمه الله - طالما أنه من أبناء المنطقة وعسكري من عسكر الحرب العالمية الثانية ويحب مثل هذه المهام فقدم العرض للسيد أزرق زايد الذي قبله بسرور.

وصادف في تلك الأيام أن أحد الأعراب طعن أسداً فقتله. لكن اللبؤة انتقمت من البدو شر انتقام حيث كانت تهجم عليهم من عصر كبير وتشق الفريق من كل الاتجاهات فتقتل الحيوان والبشر. ولم يستطع العرب الدفاع عن أنفسهم؛ لأنها عندما تدخل الفريق تكون مسرعة ولا يمكن رمي الرماح داخل الفريق خشية إصابة من فيه.

هنا عمد البدو لزيادة تنظيف الرقعة المحيطة بالفريق فقطعوا الأشجار والحشائش حتى يتمكنوا من رؤيتها من بعد قبل أن تداهمهم. رغم ذلك التحوط من قبلهم إلا أن الهجمات الليلية للبؤة كانت أسوأ؛ فأرسل البدو إلى مركز المجلد من ينقذهم من تلك اللبؤة الشرسة التي حبستهم لأكثر من شهر في مكان واحد.

أرسل المركز السيد أزرق زايد في سيارة لاندروفر لنجدة الفريق، فوصل إلى مشارف الفريق المذكور عند أول الليل وكانت اللبؤة على وشك أن تبدأ غاراتها الليلية. ولحسن الحظ سطع ضوء مصباح السيارة عليها فجأة وهي

تقطع طريق السيارة المحاط بالأشجار الكثيفة.

هنا أيقن السيد أزرق زايد أنها هي، لأنها كانت قريبة من الفريق. فجهز بندقيته «أم عشرة» وسار ببطء لعلمه أنها لم تبتعد كثيراً. وللمرة الثانية قطعت اللبؤة الطريق في الاتجاه المعاكس. فتوقف السيد أزرق زايد ورفع زجاج السيارة قليلاً من واجهة السيارة، وأدخل فوهة البندقية في الفتحة استعداداً لرمي اللبؤة التي كان متأكداً من أنها لن تصبر عليه طويلاً. ولم يخب ظنه. فقد انطلقت اللبؤة تجاهه بسرعة فائقة فعاجلها بطلقة وثانية وثالثة قبل أن تصل إلى مقدمة السيارة، وقبل أن تثب عليها، فانهارت قواها أمام سيارته. فنزل وألحقها طلقة رابعة ليطمئن قلبه.

سمع البدو في الفريق المجاور دوي الطلقات النارية في الليل؛ فعوت الكلاب وأشعل البدو النيران والمشاعل وتحسبوا لأسوأ الظروف. حتى وصل إليهم السيد أزرق زايد الذي قابلوه بالزغاريد وذبح الشياه والسمر حول النيران. لعلمهم أنه ليس من الذين يخطئون إصابة الهدف. وزادت فرحتهم عندما أبلغهم بموت اللبؤة الجاسرة!!!!

تنفس البدو الصعداء بعد شهر من المعاناة ودقوا (ضربوا) نقارة المسير في صباح اليوم التالي من تلك البقعة المشؤومة. وكلهم يجزل الشكر والثناء للسيد أزرق زايد.



فيل الدحل:

(أم مانتيك) هي بقعة كان فيها الماء دحلاً (ضحلاً) حيث اعتاد الناس صيد السمك في هذه البقعة. فترى أم مانتيك تعج بصائدي السمك كل صباح حتى العصر.

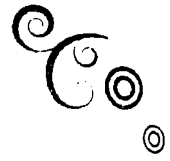
قضى أحدهم سحابة النهار يصطاد السمك في الدحل (الضحل) وقد أعياه العمل. وعند العصر والناس على وشك مغادرة (الدحل)، فوجئوا بجماعة تجري نحوهم ومن خلفها فيل كبير يزمجر ويلقي بالأشجار الصغيرة عليهم وهم يعدون بكل ما أوتوا من قوة.

انفض سامر (الدحل) وتفرق الناس ركضاً في كل اتجاه. وصادف أن ركض ذلك الصياد المجهد الذي أعياه صيد السمك أمام المجموعة التي تجري نحوهم. ومعلوم أن العرب في البادية يوصون بعضهم بأنك إذا رأيت شخصاً يجري نحوك فاركض في اتجاه آخر وليس اتجاهه، لأن الشيء الذي أخافه وطرده سيخيفك وسيطردك لا محالة. فأنت لست بأقوى أو أشجع من المطرود.

كان الفيل يرش الماء ويقتلع الشجيرات ويرمي بها الذين يركضون أمامه وكان صاحبنا صياد السمك في مقدمتهم أولاً ثم سبقوه، ولم يكن خلفه إلا شخص واحد ظل الفيل يرشه بالماء ويقذفه بالأشجار الصغيرة. وفجأة تخطى ذلك الشخص صاحبنا صياد السمك فأصبح الصياد في المؤخرة فعانى الأمرّين من رش الماء والشجيرات التي تتساقط من أمامه وخلفه وعلى جنبيه. ولحسن حظه سقط الرجل الذي تخطاه والذي كان يعدو أمامه فتوقف الفيل عند الرجل الذي سقط، ونزل عليه بكلكله سحقاً حتى قضى عليه.

انتهت المطاردة فعاد الناس وأخذوا أشلاء الميت ودفنوه وأقاموا العزاء. فكان الناس يسألون صياد السمك: كيف كان شعورك وأنت في المؤخرة والفيل يرشك بالماء ويقذفك بالشجيرات؟ فكان يقول:

- والله الضيقة اللي كنت جاري بيها لو كات (حتى) الميت ده ما ضاقها (ذاقها)!!! ويضحك الناس كيف يقول إن الميت وقد قضى أجله لم يعانِ تلك المعاناة التي تعرض لها هو؟ أهناك معاناة أكثر من الموت؟!!



مكوج (الحجالة أم تو):

مكوج من دينكا (نقوك) كان يعمل راعياً عند جماعة في (ضيلم). وسميت ضيلم بهذا الاسم لكثافة غاباتها حتى أصبحت مظلمة.

اعتاد مكوج أن يخرج بالأبقار إلى المرعى كل صباح، ويقضي معظم النهار في المراعي مع الأبقار ولا يعود إلا عند المغيب. فيدخل الأبقار ويحلبها ويربط العجول ويغلق الزرائب ثم يذهب لينام.

مضى على هذا الحال زمن. وفي أحد الأيام تأخر مكوج في المرعى. وعادت الماشية وحدها. فسأل الجماعة عنه ولكنهم لم يجدوه. وفجأة لمحوا شخصاً يعدو سريعاً نحوهم ولكنهم لم يتبينوا ملامحه في بداية الليل. قفز ذلك الشخص إلى داخل الزريبة العالية واستقر داخلها غير مكترث لأن يصيبه وتد من الأوتاد التي تربط عليها البهائم أو قرون الأبقار الحادة.

ذهل الجماعة لهذه القفزة العالية غير المسبوقة، ولم يكن يدور بخلدهم أن شخصاً يستطيع القفز فوق تلك الزريبة العالية من دون أن يخشى الأوتاد وقرون الأبقار. دخل الجماعة الزريبة فوجدوا مكوج مكورا يرتجف بشدة وفي حالة من الهذيان فانتظروه حتى يهدأ ويعي ما يقول ثم سألوه:

- مالك يامكوج؟ فنظر إليهم غير مصدق أنه نجا.
- طردني.
- ما الذي طردك؟
- ده الله ذاته!!!

- استغفر الله. استغفر الله. استغفر الله!!!
- خليك من الكلام ده. الطردك شنو؟
- شغل في الخلاء. يرش موية (ماء) ونار.
- فيل؟
- لا لا لا.
- ما في غير الفيل اللي يرش موية. وحكاية النار دي شنو؟
- ده الله ذاته!!!
- مكوج أنت جنيت ولا شنو؟
- أنا ما جنيت. لكن الشغل ده هو الله ذاته!!!
- استغفر الله. الظاهر أن مكوج فقد عقله.

ومكث مكوج دهراً وهو يعتقد أن الذي طرده هو الله ذاته – سبحان الله. ولم يصل الناس إلى حل للغز الشيء الذي طرده. وقد أسلم مكوج فيما بعد وعلم أنه ما كان ينبغي له أن يقول قولته تلك. لكنه كان يشك في قرارة نفسه ويتساءل: ما الذي طرده؟!!



كافوتا:

كافوتا رجل (غلبان) وبه نوع من الخبل، وكانت زوجته (بحر النيل) شبيهة به. وكما يقال (وافق شن طبقه).

وفي إحدى الأمسيات استيقن كافوتا بأن هناك رجلاً مع زوجته داخل المنزل. نادى كافوتا الرجل قائلاً:

- أطلع بره
- ما طالع. كان راجل ادخل.

(خشي كافوتا أن يدخل رأسه فيضربه الرجل)

- أنا ما داخل. لكن أنت أطلع بره.
- ما طالع.

ولما أعيته الحيلة في إخراج الرجل قال:

- اليوم ده وبس. ما تتعلم (تتعود) عليها ثاني!!!

فضحك الناس من (غشامة) كافوتا والطريقة التي يعتقد أنه حلّ بها المشكلة!!!

ما

السبنـدية:

تورمت قدم بدوي فأراد الناس علاجه بالكي. والكي يتمُّ عندهم بآلة تسمى (السبندية) حيث تدخل هذه الآلة في الجمر حتى تحمر ثم يكوى أو يخرق بها موضع الورم.

بحث البدوي عن وسيلة تخلصه من هذه الورطة. وأثناء تجمهر الناس عليه والسبندية وسط الجمر، جاءت حماته وشعرت بأن زوج ابنتها مرعوب من السبندية فحاولت أن تقوي عزيمته وتثبته على تحمل الألم فلم يعجبه كلامها الذي يحوي ضمنياً تأكيد الكي، فرد عليها قائلاً:

- مما دخلت خشيمكي ده. أنا بعد ده ما بنكوي!!!

ثم نهض وذهب في حال سبيله غير مصدق أنه نجا من الكي.



عملية جراحية:

كان أحد الأعراب جالساً في مجلس شيخ العرب الناظر بابو نمر عندما دخل عليهم طبيب يعمل في مستشفى رجل الفولة، فلاحظ الطبيب أن ذلك الأعرابي يعاني شيئاً ما. فسأله عمّا يشكو، فأجاب الأعرابي بأنه يعاني من (فتاق). فطلب منه الطبيب أن يذهب معه إلى رجل الفولة ليجري له عملية. وفعلاً سافر الأعرابي مع الطبيب إلى مستشفى رجل الفولة.

مكث الأعرابي فترة أسبوع قصد الطبيب منها أن يتغذي هذا الأعرابي وتتحسن أحواله تمهيداً لإجراء العملية. إلا أن الأعرابي سئم البقاء في المستشفى وطلب من الطبيب إما أن يجري له العملية أو أنه سيترك المستشفى. فحاول الطبيب ملاطفته ولكن يبدو أن الأعرابي أزمع السفر وترك المستشفى. وبالفعل فقد غادر المستشفى إلى المجلد ثم إلى البادية.

وفي يوم الخميس (يوم السوق) ذهب البدو إلى السوق وتركوه في الفريق. فقرر البدوي إجراء عملية الفتاق وحده. فأتى بالأمواس العادية وخرق (جمع خرقة) وإبرة وسبيب (شعر ذيل) الخيل. بدأ بأن جرح نفسه في مكان الفتاق ثم جمع المنطقة المفتوقة وبدأ في خياطتها وعندها أغمي عليه.

حضر البدو ووجدوه على تلك الحالة فأكملوا الخياطة وصبوا على الجرح بعض السمن الساخن. طاب المريض بعد مدة وجاء إلى مجلس الناظر بابو نمر وصادف أن جاء الطبيب من مستشفى رجل الفولة فعتب على الأعرابي، كيف يترك المستشفى من دون إذنه. وكيف أحواله الآن.

أجاب الأعرابي بأنه (طاب). فسأله الطبيب: كيف ذلك؟ فأخبره بالعملية التي أجراها لنفسه. صعق الطبيب من هول الخبر ولم يكن يتوقع أن تتم عمليه جراحية بتلك الصورة العجيبة!!!

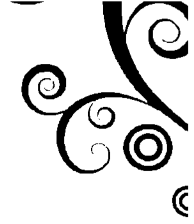


صياد النمور:

كان مختار رجلاً مفتول العضلات. وكان يرتاد المجلد أيام السوق (الخميس) فقط، ويقضي بقية الأيام في الكباو (جمع كبو وهو الدغل أو الغابة الكثيفة الأشجار) المنتشرة حول المجلد حيث يصطاد النمور، ويأتي بجلودها سليمة تماماً. ويتعجب الناس لهذا الصائد غير العادي!!

لقد كان لمختار أسلوب خاص في صيد النمور إذ علمته تجاربه عندما يقصد الغابات الكثيفة أن يضع يديه حول شجرة معينة محاولاً الصعود. وفجأة تسمع صوت النمر هابطاً من الأعلى. فالنمر لا يحب أن يصعد إليه شخص وهو في قمة الشجرة التي يخزن عليها فرائسه لأيام حتى «تتعفن»، حيث يحب تناولها بتلك الصورة.

يتوقف النمر عندما يترك مختار الشجرة ، ثم يصعد (أي النمر) بحذر إلى أعلى الشجرة ولكن في مكان أدنى مما كان عليه. يكرر مختار لعبة الصعود هذه مرة ثانية وثالثة. وفي كل مرة يكون النمر قد دنا أكثر. وفي المرة الأخيرة يلف مختار عضده وذراعه بعمامته ويجهز فراره (فأسه الصغير) وسكينه لذبح النمر وهو يعلم أنه إذا حاول الصعود فإن النمر القريب من رأسه سيقفز عليه. وفي لحظة يحاول الصعود فيقفز عليه النمر من فوقه. وهنا يرفع مختار كلتا يديه ويقبض النمر، ثم يضرب به الأرض ضربة قوية تشل حركته فيذبحه على الفور ويسلخه!!!



رجل زيودية:

تميزت عصبة عيال بقادي (سياد اللوح الماضي) ببسطة في العلم والجسم. وهم من فخذ (الزيود) من أولاد راشد. كانوا حفظة قرآن لا يشق لهم غبار، ورغم ضخامة أجسامهم وبنيتهم القوية، إلا أن الله سبحانه وتعالى وضع فيهم الهدوء والجنوح للسلم وإلا لكان للأمور وجه آخر.

صحا أحدهم مبكراً وقصد زرعه (مزرعته) في صباح يوم مطير، فكان لآثار أقدامه ضغط مع اتساع على الطين بحجم الضاغط عليه.

وصادف خروج ول (ولد) بقادي خروج شخص آخر من ولاد (أولاد) عمران المشهورين بالوسامة والأحجام العادية، فأمعن العمراني النظر في هذه الآثار ولم يدر: هل هي آثار قدم بشر أم شيء آخر!!! فهي لا تشبه آثار الأقدام العادية. واستمر في ذهوله فترة ظن العمراني فيها أن شيئاً غير عادي مَرّ من هناك. وتبادر إلى ذهنه بأنه شيطان أو بلاء من نوع آخر. وهنا رفع العمراني عقيرته بالاستنجاد والاستغاثة قائلاً:

- هوي ناس الفريق، سووا كرامة. البلا (البلاء) شق الزراعة!!!



آدم الزبيرتو (السبيرتو):

عمنا آدم السبيرتو الذي سمي عليه أخونا آدم عبد الكريم حسين (رحمه الله) من ولاد (أولاد) عمران. وكان يتميز بأنه سريع الغضب والاشتعال كالسبيرتو تماماً. وكان كثير الشجار مع (الفلايتة) المتميزين بضخامة الأجسام.

وفي كل شجار يكون تحت الفليتي (من قبيلة الفلايتة) فغضب نفر من ولاد (أولاد) عمران عليه قائلين له:

- آدم خلي الدواس. شنو كل مرة نلقاك تحت الفليتي!!!

فأجاب عمنا آدم السبيرتو قائلاً بفكاهته المعهودة:

- أنا قيّل (استغرقت وقتاً يقارب وقت القيلولة) بالفليتي إلا عفن أباطيه «إبطيه» رماني!!!

ثم أردف قائلاً:

- كلما لقيتوني في دواس دقوا (أضربوا) الزول الفوق؛ لأني دايماً تحت!!!

وللسبيرتو (رحمه الله) موقف آخر حيث (ثقب) النقارة في يوم زواج الفكي جبريل القوني من عمتنا مريم السيل (ريم الخلا) بنت شيخ ولاد عمران متوكل الأبو (الخواجي). فكانت كلماته التي استكثر فيها زواج ريم الخلاء لفقيه:

- فقير (فقيه) شنو البتزوجوه ريم الخلا!!!

ولا سيما أن الفقير (الفقيه) من الفلايتة.

وموقف آخر عندما راح يبحث عن نعاله (حذائه) وسط أحذية الفلايتة الضخام الأقدام في أحد الاجتماعات،

فنظر إليه جدنا العمدة آدم يوسف – عميد آل بقادي - ونادى عليه قائلاً :

- آدم السبيرتو. دور (أبحث) على نعالك في مكان آخر. ثم استطرد قائلاً :

- آدم، وأنت لابس المركوب (الحذاء) رجلك بتدخل في نعال فليتي (أحد أبناء الفلايتة) وما بتملاها!!!



أرذل قبيلتين:

شهدت المنطقة مع إنشاء مصنع الألبان وقدوم القطار والسكة الحديد في البابنوسة تغيراً حضارياً لم تشهده من قبل، فظهر العمال كمجموعة تخرج مع كل صافرة من مصنع اللبن أو ورش البخار والديزل. وكان لخروجهم دفعة واحدة جلبة وضوضاء. ثم إن سلوكياتهم كانت مغايرة لسلوكيات المنطقة؛ فهم يسكرون ويتعاطون التمباك (التبغ) وهما محرمان إسلامياً ومن الكبائر خصوصاً بين البقارة عموماً في ذلك الوقت.
ثم ظهر حي كثرت فيه البغايا فأسمته البقارة (فريق جهنم). وبالإضافة إلى كل ذلك فالعمال يخرجون وهم متسخون بالزيوت والشحوم وروائحهم كريهة.

وبين طبقة العمال ومساعدية (مساعدي سائقي) اللواري قاسم مشترك وهو الاتساخ بالزيوت والشحوم وشعورهم الشعثة الهائجة. لذا فقد قال عنهم البقارة: (أرذل قبيلتين هما قبيلة المساعدية والعمال).
فكان البدو يتحينون الفرص ليبدأوا شجاراً مع (المساعدية). أوقف أحد البدو اللوري (الشاحنة) يوماً ما قائلاً:

- أربط، أربط (أي قف قف). المساعدي وينوه (أين هو).

فظهر المساعدي من فوق التندة (كابينة السائق)، فنظر إليه البدوي وقال:

- أبو قجيجة مرة (امرأة) السواق. مشنى (ما أشنى/ما أقبح) قجيجتك (شعرك الشعث) ومحلى (ما أحلى) يكتك (ملاحك/أدامك. واليكه هي البامية). كن (إذا) السواق طلقك بالله أنا باخدك (أي إذا طلقك السواق أنا بتزوجك)!!!

لأن الراسخ في ثقافة البدو أن الطبخ للنساء فقط!!!



الفلاتة والشعوذة:

الفلاتة (أم برروا) هم قبائل وافدة كغيرها من بلاد النيجر وغرب إفريقيا. ويقال إنهم قبائل من بربر شمال إفريقيا. تمتهن هذه القبيلة الرعي وتمشط شعرها وكانت تلبس – في معظم الأوقات - الأسود من الثياب. ولأبقارها قرون طويلة تميزها عن أبقار الآخرين. ثم إنهم اشتهروا في المنطقة بممارسة السحر، قبل أن يرتحلوا إلى مناطق النيل الأزرق على خط العرض ١٢ نفسه.

وهناك قبائل أخرى يسميها السودانيون خطأ (فلاتة) ولكنها قبائل متعددة الأعراق من غرب إفريقيا. والغريب أن هذه القبائل تفد إلى السودان وتمارس السحر. فكنا في ذلك الجزء من الوطن – غرب السودان – أقرب الناس إليهم حين يفدون ونشاهد كثيرا من أوجه السحر التي يمارسونها.

ومن أشكال سحرهم أن يضع أحدهم عرقاً (من عروق الشجر) بجانب رقبة الخروف ثم يبدأ ذبحه بسكين حادة. لكنها لا تذبحه. وعندما يبعد العرق تذبح السكين الخروف!!! وكانت لعروض محمد (أنقربا) إثارة. ولهم حجبات (رقيات وتمائم) تحجب (تقي) الرجل من الرصاص والأسلحة البيضاء. وبحكم أن البقارة (رعاة البقر) يحبون الجندية فكانوا يقصدونهم لشراء هذه الحجبات بأي ثمن!!!

كان لقبيلة الفلاتة أم برروا في أوائل الخمسينيات معارك كثيرة مع قبائل الدينكا في بحر العرب وفي المنطقة عموماً. وغالباً ما كانت تنشب المعركة بسبب اعتداء بعض سفهاء الدينكا على غنم الفلاتة المتميزة الشكل (نصفها أبيض ونصفها الآخر أسود). حتى أن ناظر العرب كان ينادينا بغنم أم برروا للبسنا المناطلين السوداء والقمصان البيضاء.

يكمن الدينكاوي وسط الحشائش في طريق غنم الفلاتة أم برروا فيذبح منها عدداً. ولاشتهارهم بالسحر فقد كان الراعي من الأمبررو يسير – على غير العادة – في مقدمة الغنم وهي تتبعه. وعندما يتجاوز الفلاتي تلك البقعة يعرف – ولا أحد يعرف كيف – أن هناك نقصاً في غنمه. فيخرج السهم من كنانته ويضعه في قوسه ثم يطلقه إلى أعلى في الهواء قائلاً: (أركبي) أي انغرز. والعجيب أنه يصل إلى الدينكاوي فيصيبه. ولكن الدينكاوي بدوره يكون محضراً بعض العرديب (التمر هندي) في بخسه (يقطينة جافة مجوفة) فيبدأ الشرب من نقيع العرديب ليفسد سم السهم. وتبدأ المعارك بأسهم أم برروا المسمومة وحراب الدينكا!!!

ومن الأساطير المتداولة في المنطقة أن أحد أبناء الدينكا سرق خروفاً من قطيع فلاتي ووضعه على كتفه وهرب به. لكن الدينكاوي وقع في شر أعماله. فعندما أراد أن يضع الخروف على الأرض لم يستطع إنزاله من كاهله. وظل الخروف يتبول على الدينكاوي ويبعر لأكثر من يومين حتى عثر على الفلاتي واسترضاه لينزله من كاهله على ألا يعود لمثلها.

ولمعرفة الكاذب من الصادق، يضع الفلاتي فروة خروف مدبوغة على الأرض ويجلس عليها المتخاصمان، فتعلق الفروة بالكاذب الذي لا يستطيع نزعها عن مؤخرته مهما فعل!!!



سباق غير متكافئ:

يحاول الورل سرقة بيض دجاجة الوادي ، تلك الدجاجة المرقطة بنقاط زرقاء. فيدخل رأسه تحتها وهي قابعة على بيضها. فتجاهد الدجاجة بكل قوتها لمنعه وحينها يعض على إحدى رجليها ويذهب بها بعيداً وسط ضربات أجنحتها في العشب. ثم يبدأ السباق معها عائداً إلى بيضها. فتسبقه طائرة إلى بيضها وعندما يصل يجدها متربعة عليه، فيأخذ برجلها ثانية ويكرر الفعلة نفسها لمرات ومرات حتى تتعب الدجاجة من هذه المشاوير. فبعد أن كانت تطير وتسبقه إلى بيضها، تبدأ في مسابقته أرضاً. ومع مرور الوقت يسبقها فيحظى بالجائزة الكبرى ويشرب محتويات بيضها!!!

يرصد الرعاة في الوادي هذه المنافسة المحمومة حتى تصل الدجاجة والورل إلى مرحلة الإعياء التام فينقضون عليهما ويفوزون بالجائزة الأكبر: الدجاجة والورل!!!



أبو الرشيدة

أ- ثعبان القنطور:

أبو الرشيدة هو عمنا عبد الكريم حسين (أبو الرشيدة) المشهور بشجاعته وقوة بنيته الجسمانية التي أورثها أبناءه وهو الأخ غير الشقيق للفكي جبريل القوني – رحمهما الله رحمة واسعة.

يحكى أنه كان على ظهر حصانه وفي نهاية مرحلة من مراحل سير العرب من البحر، حيث كانوا يحددون للمسافات مراحل. تبدأ المرحلة من الصباح ولا تتوقف الظعينة إلا عند قرب غروب الشمس حيث يضعون متاعهم ويبيتون الليلة ثم يتابعون المسير في صباح اليوم التالي.

كانت عرب البقارة ترسل الظعائن (النساء والأطفال) مع بعض الشباب لحراستها. ويتقدم المسار (والمسار عز العرب) شباب آخرون لحراسة قطعان الماشية حيث يغزّون السير إلى مناطق بعينها متعارف عليها بينهم، ويدخلون الماشية في الزرائب التي يمرون عليها عاماً بعد عام وينتظرون وصول التقلية (الظعائن) وسميت كذلك لثقل حركة الهوادج والنساء والأطفال.

تأخر أبو الرشيدة لأمر ما فسبقته الظعائن حيث وصل إليها قبيل غروب الشمس بقليل. ثم استغرب عدم نزول الظعائن، وسمع هرجا ومرجاً. وعندما استفسر عن الأمر، علم أن ثعباناً ضخماً يسكن قنطورا (بيتا من بيوت النمل التي ترتفع عن التراب بضعة أقدام) منع الناس من النزول. فكلما أرادت ظعينة النزول ينطلق نحوها ذلك الثعبان الضخم الذي حاول الشباب قتله ولكنه كان يعود مسرعا إلى جحره في القنطور. فما كان من أبي

الرشيدة إلا أن طلب منهم أن يدلوه على قنطور الثعبان. ثم اتجه إلى القنطور وأدخل يده عارية في جحر الثعبان. وما هي إلا لحظات حتى قبضه وأخرجه من الجحر، ثم قطع رأسه وألقاه تحت دهشة القوم. ولم تمض ساعات حتى ورمت يد أبي الرشيدة ثم جانبه الأيمن وقضى نحبه على أثرها!!!

ب- البئر المهجور:

حكى لي المرحوم صالح عبد الكريم حسين أن والده (أبو الرشيدة) أنزله في بئر مهجورة تعج بالأفاعي والثعابين وهو في سن السابعة. ومنذ تلك اللحظة الرهيبة وخط الشيب جانب رأسه. وكانت تلك إجابة لاستفساري عن سبب الشيب الذي وخط جانب رأسه!!!

ويستطرد صالح (أزرق كحل الشيخات) قائلاً: إن الضعينة (الظعينة) عطشت في طريقها من بحر العرب إلى المجلد. ووجد أحدهم بئراً مهجورة فأخبر أبا الرشيدة الذي طلب من صالح فوراً أن يجلس داخل الدلو وينزل إلى البئر وأخبره بالمطلوب منه. ولما كانت طلبات أبي الرشيدة أوامر لم يتردد صالح (أم جوترويه – اسم غدير ماء «بوطة») في الامتثال للأوامر رغم الخوف الذي ملأ جوانحه.

يقول صالح بأنه - وهو على الدلو في طريقه إلى قاع البئر - رأي أهوالاً. العديد من الأفاعي والثعابين على عرش البئر (العرش هو ما يعرش به البئر بشكل دائري ليمنع تساقط الجنبات). وعندما وصل إلى القاع كانت قد قامت قيامته. وكان عليه أن يصب الجموم (الماء الذي يتجمع بعد فترة) في الدلو ثم يحركه ليرفعوه إلى أعلى. ويبقى هو بصحبة الأفاعي والثعابين.

ظل صالح على ذلك الحال لأكثر من ساعتين. ثم جاءته الرحمة آذنة له بالخروج من البئر. وجا ء معها الوسام الأبيض على جانب رأسه!!!



المرحوم السيد صالح عبدالكريم حسين



أجبن من نعامة!!

في طريقنا إلى بحر العرب أثناء حملة انتخابات عام ١٩٦٨م التي ترشح فيها ابن خالي الأديب الأريب الاستاذ عبد الرحمن صالح الطاهر - رحمه الله رحمة واسعة - وبالقرب من (التردة) شاهدنا مجموعة من النعام مع صغاره وسط الحشائش والأشجار، فتحرقت وأخي أحمد صالح الطاهر شوقاً لأخذ واحد من صغار النعام الذي نطلق عليه اسم (سقوط). نزلنا من السيارة على عجل وعدونا نحو مجموعة النعام.

وهنا انبرت لنا إحدى النعامات وأوهمتنا في البدء بأنها مكسورة الرجل ولا تستطيع أن تلحق بالمجموعة، فكانت تقع بين كل خطوة وأخرى وتحدث بجناحيها رفرفة على الأرض. فانخدعنا بمظهرها وطمعنا في أخذ تلك النعامة الكبيرة.

تركنا مجموعة النعام وصغاره وعدونا نحو النعامة المكسورة التي قادتنا - غير مدركين - في اتجاه آخر غير اتجاه مجموعة النعام وصغاره.

وبعد أن أيقنت تلك النعامة أن مجموعة النعام مع صغاره قد اختفت عن الأنظار بين الحشائش والأشجار نهضت على قائمتين سليمتين فكانت كالشبح واتجهت نحونا مسرعة بكل ما أوتيت من قوة، فأيقنا بدورنا أنها تريد شراً وأننا إذا توانينا في العدو إلى السيارة فإنها بلا شك قاتلتنا.

تسابقت وأخي أحمد صالح نحو السيارة بكل ما أوتينا من قوة ووصلنا في الوقت المناسب فتلقفنا من كان بالسيارة وأركبونا على عجل فيما وقفت النعامة على بعد خطوات من السيارة فأمعنت فينا النظر وكأنما أسفت

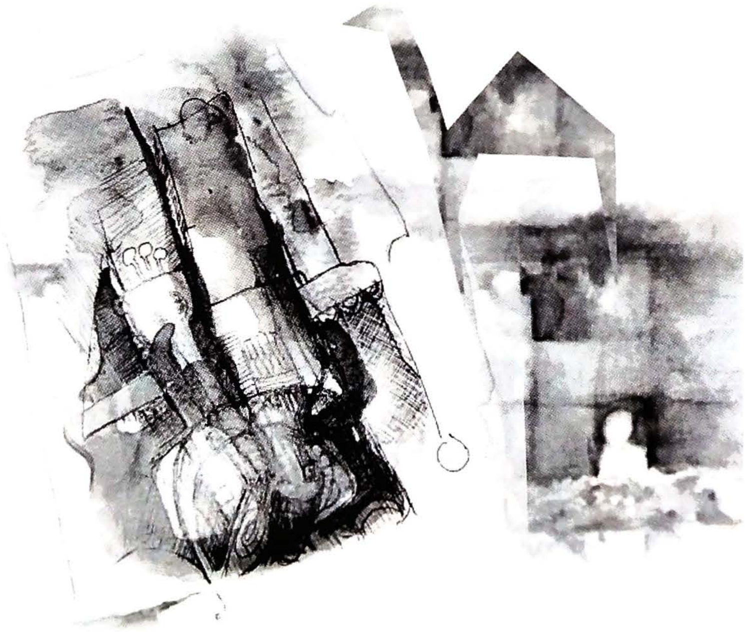
لعدم اللحاق بنا. ثم انصرفت مسرعة لتنضم إلى مجموعة النعام وصغاره.

وقد أخبرنا أحد البدو ممن كانوا معنا على السيارة بأنها لو لحقت بنا لكنا في خبر كان. وعلمنا منه أن تلك المسرحية البارعة التي أدتها لم تكن إلا لإلهائنا عن مجموعة النعام وصغاره حتى يتمكن من الاختباء، فعجبنا وأيقنا خطأ بيت الشعر الذي يقول:

- أسد علي وفي الحروب نعامة   ربداء تجفل من صفير الصافر

وليس صدقاً قول العرب حين تقول: (أجبن من نعامة). فوالله ما كانت تلك النعامة جبانة قط!!!

الفصل الثاني عشر
من طرائف البدو



الفصل الثاني عشر
من طرائف البدو

يا دودي:

دودي هو جد المسيرية الزرق الذي يندهونه (يستغيثون به) عند الشدائد وفي حال تعجبهم. وقد ذهبت أعرابية من المسيرية الزرق يوماً إلى الطبيب تشكو من ألم أصابها، وكان برفقتها والدها. وبعد أن فحصها الطبيب علم أنها تعاني من (قلق) من دون أن ينتبه (الطبيب) لهذه الكلمة التي تعني (الخصيتين) عند عرب البقارة عموماً.

وعندما سأله أبوها:

- البت عندها شنو؟

أجاب الطبيب قائلاً:

- عندها قلق!

هنا ذهل والدها تماماً ووجه كلامه لابنته التي صعقت أيضاً:

- يادودي!!! متين قامن ليكي!!



النقل الميكانيكي:

جاء أعرابي غاضبا إلى الناظر بابو نمر الذي كان في مجلسه مع عرب البقارة وقال:

- الناظر، فلان ده بتن (ثاني) ما يدخل على العيين (النسوان) لأنه بقول كلام فشيخ (فاحش)!!!!

فسأله الناظر قائلاً:

- ماله قال شنو؟

فأجاب الأعرابي قائلاً:

- عمتي فلانة سألته من ولدها الشغال في الخرطوم

واستطرد الناظر قائلاً:

- طيب، وبعدين؟

قال الأعرابي:

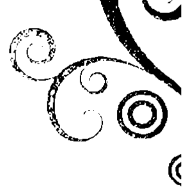
- قال ليها ولدكي الشغال في النقل الميكانيكي؟

قالت ليه (له):

- واي (أي) ولدي الشغال في الداهي القلته ده!! (واستحت أن تنطق كلمة الميكانيكي).

هنا قال الأعرابي بغضب:

- توا (إيكي إيكي) ده كلام بقولوا قدام العيين (النسوان)!!!!



ما عنده لفظ!!

أراد أحد البدو أن يؤكد ولاءه لعمنا الناظر بابو نمر فأتى بجملة أشبه ما تكون بما قاله ذلك الأعرابي الذي دخل على الخليفة العباسي المتوكل فأراد أن يؤكد ولاءه له فأنشد أبياتاً من الشعر يقول فيها للخليفة:

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

وبالطبع استاء الخليفة من وصف ذلك البدوي الذي لا يعرف غير الكلب والتيس. فأمر بأن يستضاف البدوي في القصر مدة من الزمن. ثم أتي به لاحقاً إلى الخليفة فأنشد هذه المرة شعراً مختلفاً يقطر تمدناً:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أما بدوي المسيرية فقد قال للناظر بابو نمر:

- هاي الناضر (الناظر) أت (أنت) الكلب ونحن ضنبه (ذنبه - ذيله)!!

فما أشبه الليلة بالبارحة!!!



من إيدك لإيدي:

دعا أحدهم أعرابياً يوماً للعشاء، فحضر الأعرابي وأكل ما لذ وطاب من الطعام، وحمد الله فأراد أن يثني على مضيفه ويعرب عن مدى امتنانه لهذه الدعوة الكريمة ويبين له كم كان طعامه لذيذاً ومتنوعاً. ولكن يبدو أن الكلمات لم تسعفه فقال:

- فلان. مرتك(زوجتك) دي كن (إذا) طلقتها من إيدك لإيدي (أي من يدك ليدي - يداً بيد)!!!!



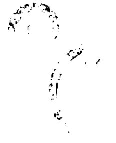
عورة النور:

زارنا يوماً النور جغفير وهو رجل أعور ومن الشخصيات المثيرة للجدل في المنطقة كلها. ويتميز بالجرأة والإقدام والمقولات السياسية غير المسبوقة. وهو رقم لا يمكن أن تتجاوزه من دون أن تقول رأيك فيه. زارنا النور في الحوش فاستقبله جبريل القوني بحفاوة. وبعد أن أجلسه في الديوان، دخل الفكي جبريل إلى حوش النسوان وطلب من عمتنا سعيدة بت حامدين طه بقادي – تلك المرأة الفاضلة – أن تعد طعاماً للنور. فقالت كعادتها وسجيتها السمحة:

- النور جغفير الأعور!!!

ويبدو أن الحديث مع زوجها الفكي جبريل كان عالياً نوعاً ما حيث سمعه النور جغفير فقال فوراً:

- بت حامدين، خلي عورة النور. الفقير (الفقير إلى الله/الفقيه) قال ليكي سوي العيش (الطعام/العصيدة)!!!



الخريف الأضلم:

ضاق العيش بأحد البدو يوماً فقرر ترك ابنه وراءه في الديم (المدينة) يعتاش فيه لحين قدومه من البحر (بحر العرب).

أدخل البدوي ابنه المدرسة الابتدائية ليسكن في الداخلية ويعيش فيها ليخفف عنه مؤنة العيش. وذات يوم سأل ناظر المدرسة ذلك البدوي الصغير عن سبب دخوله المدرسة. وتوقع الناظر أن يسمع كلمات عن التعليم وفائدته؛ كلمات من هذا النوع. ولكن كانت المفاجأة عندما كشف البدوي الصغير صراحة عن الغرض من دخوله المدرسة قائلاً:

- أبوي قال لي، آ... آ... آ...

ضاق المدير ذرعاً بالبدوي الصغير الذي كان يحرك رجله اليمنى إلى الأمام وإلى الخلف وهو ممسك بيد المدير وينظر إلى الأرض وطلب منه أن يجيب عن سؤاله، فقال:

- أبوي قال لي، الخريف الأضلم (الأظلم/من ظلمة المزن وكثرة الأمطار) ده أقعد أكل ليك عيش!!!



أم سلمان أنا جيتكي!

كان أحد أبناء المنطقة يعمل في مدرسة سب قريد - (sub-grade)دون مستوى المدرسة الأولية آنذاك - قبل أن يصبح مديراً لمدرسة أولية. فغضب يوماً من طباخة المدرسة التي كانت تعارضه في معظم قراراته. وقد حذرها مرات عديدة من مغبة معارضتها إياه.

ويبدو أن الغضب اشتد به في ذلك اليوم، فدخل مكتبه وخلع (فسخ) جلابيته وشعق سرواله (جذب أطرافه إلى فوق كمن يستعد للقيام بعمل ما) ثم خرج وهو على تلك الهيئة إلى ساحة المدرسة. وقال مخاطباً أم سلمان الطباخة وكانت هيئته كثور المصارعة الأسباني الذي يبحث الأرض بأظلافه قبل أن يغير على المصارع:

- أم سلمان أنا جيتكي. ما تقولي غريتكي (خدعتكي)!!!

ثم جرى نحوها، وحملها إلى أعلى ثم ألقى بها إلى الأرض بقوة. ويا للهول!!! لم تحرك أم سلمان ساكناً فتكأكأ المدرسون والطلاب حول «أم سلمان» التي كانت غائبة عن الوعي وخشوا أن تكون قد فارقت الحياة!!!

وبعد فترة استعادت أم سلمان وعيها ولكنها كانت تشكو من آلام كثيرة في جسدها!!!!



الفرق بين الرجل والكراع:

ركب أعرابي البص (الحافلة) ويبدو أنه وضع قدمه على قدم شخص بجواره. طلب الشخص من الأعرابي أن يزيح قدمه لكنه قال ذلك بصورة أثارت شكوك الأعرابي إذ فهم منها أنه يستخف به. قال الشخص:

- بالله أرفع كراعك من رجلي.

هنا قال الأعرابي:

- شنو الخلى (ما الذي جعل) حقتك رجل وحقتي كراع !!!

أصر الأعرابي على موقفه طالباً تفسيراً لما يحدث وهو يطأ على قدم الشخص بقوة. وهنا تدخل ركاب الحافلة وافهموه بعد محاولات عديدة أن الشخص لا يقصد استخفافاً، ولكنه قال ذلك من دون أن يدري الفرق بين الرجل والكراع!!!



الجلابي خواف:

للبدو صورة مغلوطة عن الجلابة، إذ يعتقدون أنهم جبناء وأنهم من شدة جبنهم ورقتهم يتعاركون بالمناديل فيقول أحدهم للآخر:

- هسع أفلعك (أفلقك/أشج رأسك) بالمنديل ده!!

وبالطبع فإن الفارق واضح: فالجلابة متمدنون وأكثر علماً بينما البدو أجلاف وفيهم غلظة. لذا عندما لا يميل الجلابي للتعارك فإن البقاري يحسبه جباناً. وهكذا رسخت الصورة المغلوطة في أذهان البدو في تلك المنطقة.

ومن أقوالهم في الاستهزاء بالجلابة:

- أم جلبة حبل القيطان
- الجلابي كن (إذا) لقيته في الدكان يقول ليك (يعني) و(إزكان) - أي إذا كان.
- وكن لقيته وحيده (وحده) بنطيك (يعطيك) وليده
- وكن لقيته جنب القاضي تر (أبعد) منه غادي
- وكن لقيته جنب المدير بدقق فيك مسامير



يالطيف!

جلس أعرابي يوماً في دكان عمنا بشير التجاني (خال الدكتور جلال يوسف الدقير وزير الصناعة في حكومة الإنقاذ). وعندما نهض عمنا بشير قال:

- يا لطيف:

فاستغرب الأعرابي هذه الكلمة. فالبدو معتادون على نديهة (استدعاء) أجدادهم كأن يقول (يا علي) أو (يا دودي) أو (يا أبوشعر) وغيرها عند طلب العون والغوث (وهي من الأمور المحرمة شرعاً). فسأل الأعرابي عمنا بشير التجاني قائلاً:

- يا لطيف ده عاد جدكو (جدكم)؟!!!!

فأجابه عمنا بشير التجاني قائلاً ومستغرباً السؤال:

- يا لطيف ده اسم من أسماء الله الحسنى

فرد عليه الأعرابي باستغراب قائلاً:

- شوف الجلابة كمان. متين الله سميتو يا لطيف!!!



الحاقة:

كان أحد الفقهاء يحفّظ آيات من القرآن الكريم لأحد أعراب (الدبيبات) – جنوب مدينة الأبيض - فبدأ قائلاً:

- الحاقة

فقال الأعرابي من بعده:

- الحاقة

ثم قال الفقيه:

- ما الحاقة

قال الأعرابي من بعده:

- ما الحاقة

قال الفقيه:

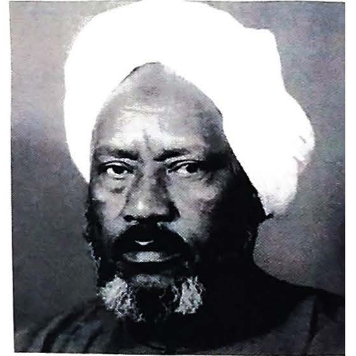
- وما أدراك ما الحاقة

هنا توقف الأعرابي وقد بلغ به الغضب مبلغاً ووجه حديثه للفقيه قائلاً:

- قلت الحاقة، قلنا الحاقة. وقلت ما الحاقة ، قلنا ما الحاقة. تاني تقول وما أدراك ما الحاقة. ألف ليك جاي تجيني بجاي. وألف ليك جاي تجيني بجاي (آتيك من هذه الناحية تأتيني من تلك الناحية). أنت حقرتني ولا شنو؟!!



المؤذن:


المرحوم الشيخ إسماعيل محمد طاهر

كان السيد إسماعيل محمد طاهر - رحمه الله - أحد زعماء أنصار السنة المحمدية في السودان ورئيس الغرفة التجارية بمدينة الأبيض وأحد أعضاء الغرفة التجارية السودانية وأول رئيس لمجلس الأبيض البلدي ورئيس لجنة آباء وأولياء أمور طلاب مدرسة خورطقت الثانوية ومن رواد التعليم الأهلي والنشاط التعاوني والخيري في كردفان (الغرة أم خيراً جوه وبره).

أنشأ السيد إسماعيل محمد طاهر مسجداً في الدبيبات في أوائل الستينيات من القرن العشرين وطلب من أحد الأعراب من قبيلة كنانة أن يكون المؤذن قاء أجر وذكر له محاسن الأذان يوم القيامة وأن المؤذن يبعث مستور العورة وأطول الناس أعناقاً.

ستمع البدوي للشيخ إسماعيل محمد طاهر ثم أجاب قائلاً:
- أنا الجابرني شنو أقيف خمس مرات أعيط قدام الكنانيات (نساء قبيلة كنانة). وبعدين عورتي شني المخالفة ورة العرب أغطيها وكل العرب عريانين!!!



منعم عطاك عيش كليت:

كان الشيخ منعم منصور، ناظر الحمر – رحمه الله رحمة واسعة – من حفظة كتاب الله، تقياً ورعاً يتمعر وجهه إذا دخلت عليه وليس بيدك مسبحة ولا تسبح الله جل وعلاً.

وقبيلة الحمر من القبائل العربية التي ما زالت تحتفظ في قاموسها اللغوي بمفردات عربية قحة قل أن تجد لها مثيلاً في السودان قاطبة. فمثلاً يقولون للسلحفاة (أبو جفنة). والجفنة والجفان لفظة عربية قحة. فقد قال سبحانه وتعالي في سورة سبأ، الآية رقم ١٢: (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكراً، وقليل من عبادي الشكور). كما يطلق المسيرية على مدينة (مومو أو أم طجوك) اسم الأضية (والأضية هي تصغير أضاة وهي بركة الماء). ويقول الحمر (كليت وشربت) كما ينطقها الخليجيون في الكويت وما جاورها.

نزل أحد الأعراب ضيفاً على واحد من قبيلة الحمر فأكرمه صاحب الدار وبعدما شبع قام من المائدة وهو يقول:

- الحمد ليك يا منعم.

غضب الحمري من قول الضيف فقال له:

- منعم عطاك عيش كليت؟!!!

كان الضيف يقصد ربنا المنعم. لكن صاحب الدار ظن أنه يحمد الشيخ الوقور منعم منصور!!!



الكسرة:

ظهرت الكسرة السودانية في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين في منطقة المسيرية. وكان الأعراب لا يعرفونها من قبل. فكانوا ينظرون إليها بريبة ولا يحبون أكلها. فقد كانت الوجبات الرئيسة الثلاثة تتكون من العصيدة فقط. كما ظهرت السلطة تالياً وكانوا يسمونها (الزلطة).

وبعد حين تنوعت المائدة في تلك المنطقة. فظهرت الكسرة والسلطة والكنافة والخشاف والكاسترد في الغداء، وتعددت الملاحات (الأدامات).

جاء أحد البدو إلى الخرطوم في زيارة لولده الذي يعمل في أحد مصانع الخرطوم بحري في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين أيام حكم الجنرال عبود. فاستضافه ولده الذي أكثر من أكل السلطة (الزلطة) في الوجبات، فيما كان والده ينظر إلى السلطة بريبة.

وعندما عاد الوالد إلى المنطقة جاءه نبأ وفاة ابنه فحوقل واسترجع ثم قال:
- والله أنا عارف من أكله للقش (العشب ويقصد به السلطة) داك ما بسلم!!!

في أحد الأعياد وبعد الانتهاء من صلاة العيد التي يؤديها أهل المجلد ويؤمهم فيها الفكي جبريل القوني، إمام مسجد المجلد، المفتي في المسائل الشرعية والعضو في محكمة عمنا الناظر بابو نمر، اعتادت مجموعة من متوسطي الحال أن تذهب مع عمنا إبراهيم الخليفة إلى منزله العامر بحلة الجلابة تحت راية الختمية ووقع ضربات طبل (النوبة) بينما تذهب مجموعة أخرى مع الفكي جبريل القوني.

كان رفاي من ساكني حي الفكي جبريل القوني ولكنه قرر في ذلك اليوم هو وأحد أصدقائه خوض تجربة فريدة بأن يذهبا هذه المرة مع السيد إبراهيم الخليفة ليأكلا الكسرة.

وعندما بدأ رفاي في أكل الكسرة، نبهه صديقه بأن يحذر ويصغر اللقمة وإلا فسوف يختنق (يغص). فالجلابة حرامية (مجرمون) ويضعون اللحم والعضام (العظام) تحت الكسرة. وصدق حدس صديق رفاي. فبعد فترة وجيزة بدأت علامات الاختناق على رفاي. فسدد إليه صديقه ضربة أطارت العظم من حلقه تحت قهقهات المدعوين. قررا بعدها ألا يأكلا الكسرة وعادا إلى قاعدتهما (العصيدة) سالمين وهما يضحكان من تلك التجربة الفريدة!!!

كيك ولاقى كيك:

حضرت الوفاة أحد الأعرابِ، فتحلق حوله أبناؤه وأقاربه بحزن بادٍ عليهم. فأشفق عليه أحد أصدقائه فجلس بجواره يلقنه الشهادة قائلاً:

- أبو فلان قول: «لا إله إلا الله»

كان صديق الأعرابي يمد في نطق (لا إله إلا الله) ما جعل الأعرابي يعتقد بأن صديقه يظن أنه خائف من الموت، لذا لم يردد الشهادة من بعده.

وعندما ساءت حاله خشي عليه أبناؤه أن يموت من دون أن ينطق بالشهادة، فانبرى له أحد أبنائه قائلاً:

- أبوي قول: «لا إله إلا الله»

فنظر إليه والده شزراً وقال:

- «هاي الول (الولد) الموت أنا بخاف منه ولا بدابى له! ما كِيك ولاقى (لقي) كِيك» !!!

أي (أني لا أخاف الموت ولا أتوارى منه. فأنا شجاع والتقيت بشجاع (أي الموت)).

لم يقتنع الولد برد والده وظل يلقنه الشهادة:

- أبوي قول: «لا إله إلا الله»

وأثناء الشد والجذب بين الولد ووالده وخشية الناس من حوله أن يموت من دون أن ينطق بالشهادة، دخلت عليهم إحدى نديداته زمن الصبا فرأت ما به فأشفقت عليه، لكنها حسب معرفتها السابقة إياه علمت أنه لن ينطق بالشهادة فعلقت قائلة:

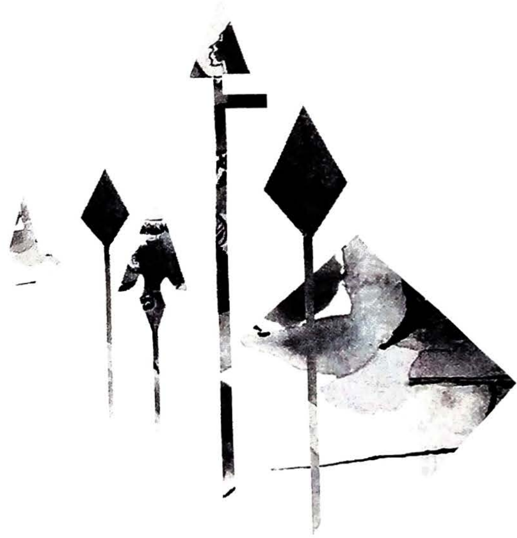
- «أبو فلان ما بشيل ليكو الشهادة. أبو فلان بموت بعظمته!!!»

لم يفهم الناس أي عظمة تعني هذه الأعرابية. أفي عدم النطق بالشهادة عظمة؟! سبحان الله ما هذا

الاستكبار!!!!

هنا تجاوب معها الأعرابي مستحسناً قولها، ورفع يده يبشرها مؤيداً. لكن المنية لم تمهله فسقطت يده وفارق الحياة (بعظمته) من دون أن ينطق بالشهادة!!!!

الفصل الثالث عشر
حيل لصيد الوحوش



الفصل الثالث عشر
حيل لصيد الوحوش

الحفرة:

من حيل صيد الوحوش رسم دائرة كبيرة وأخرى أصغر منها بداخلها. ثم يحفر ما بين الدائرتين عميقاً ويترك الجزء الذي في وسطهما لتربط عليه معزة أو سخل أو شاة ويموه على الحفرة بالقش والأغصان الهشة فيبدو الطعم (المعزة أو السخل أو الشاة) من بعيد خصوصاً في الليالي المقمرة وكأنه حيوان تائه يرعى في الليل. تغري هذه الحيلة كثيراً من الضباع والنمور وأحياناً حتى الأسود الجائعة بافتراس هذا الصيد الثمين.

يهجم الوحش على (الطعم) وقبل أن يصله يكون قد استقر داخل الحفرة العميقة. وهكذا تكون الحفرة ممتلئة أحياناً بالعديد من الحيوانات المفترسة التي يجهز عليها أهل الفريق في الصباح واحداً واحداً.

بزغ الفجر واستعجل أحد الشبان الوصول إلى الحفرة وهو يركض مسرعاً غير منتبه حتى سقط داخل الحفرة مع بقية الحيوانات المفترسة، فما كان منه إلا أن بدأ يدور في الحفرة طالباً النجدة. ولما ضاق ذرعاً بهذه الوحوش وأصوات البدو من حوله يمنعون من يحاول طعن الحيوانات داخل الحفرة خشية أن يطعن ذلك الشاب، بدأ في مواجهتها ورميها واحد تلو الآخر للبدو الذين تجمهروا حول الحفرة وهم يصيحون. وهكذا أفرغ الحفرة تماما من جميع الحيوانات وسط صياح البدو عند كل رمية فرقاً من الحيوانات المتوحشة.

وبعد أن أنجز الشاب مهمة إفراغ الحفرة من الحيوانات المتوحشة، خرج من الحفرة وسط قهقهات البدو.



التكل:

عمنا أزرق زايد – رحمه الله - من جنود الحرب العالمية الثانية الذين تقاعدوا بعد الحرب. طلبه البدو في (بقرة) و(كجيرة أم بردي) للقضاء على أسد نكد عليهم عيشهم بقتله البهائم والناس.

كان عمنا أزرق زائد مغرماً بالجندية كشأن ذلك الجيل من المحاربين، يقضي العصريات (أوقات العصر) في تنظيف بنادقه وتجهيزها. ويبدو أنه كان يستمتع بتلك المهمة استمتاعاً كبيراً.

غادر أزرق زايد إلى (بقرة) بالقرب من (بابنوسة). وهناك اتفق مع البدو على بناء (تكل). والتكل هو حفرة تحفر بالقرب من مورد الماء وتغطى بسدادة قوية وثقيلة منسوجة بالأغصان ولحاء الأشجار.

تم حفر (التكل) وغادر عمنا أزرق زايد بعد صلاة العشاء للدخول في (التكل). فأصر أحد الأعراب على الذهاب معه فرفض العم أزرق زايد هذه الفكرة. ويبدو أنه تفرس في ذلك البدوي وعجمه فعرف أنه لا يطيق هذه التجربة لكن البدوي أصرّ على أن يصحب العم أزرق زايد فرضي العم أزرق على مضض.

ذهب العم أزرق زايد وبصحبته ذلك البدوي إلى التكل ونزلا فيه. وانتظرا الهزيع الأخير من الليل حين يأتي الأسد للشرب. فلكل حيوان موعد يشرب فيه. فصغار الحيوانات من الغزلان والأرانب والطيور والضباع تأتي مبكراً وتخرج. ثم يأتي الزراف والجاموس والثيتل في منتصف الليل. أما آخر الليل فكان للأسد واللبؤة والأشبال.

وكالعادة أراد الأسد معرفة هل يوجد في الغدير إنسان كامن أم لا، فذهب يميناً ويساراً أمام الغدير قبل أن

ينزل الأشبال للشرب. ويبدو أنه شم رائحة العم أزرق وصاحبه فاختفى فجأة ولفترة طويلة ثم عاد متسللاً بخطى وئيدة حتى كشفته أوراق الأشجار اليابسة عندما ضغط عليها. وهنا طلب العم أزرق من البدوي الذي بدأ يضطرب وتصطك أسنانه أن يلزم الهدوء وإلا افترسهما الأسد فزاد ذلك القول من اضطراب البدوي فازداد اصطكاك أسنانه.

اضطر العم أزرق لضغط البدوي على جدار (التكل) لأنه أيقن إنهما إن استمرا على ذلك الحال فسيهتدي الأسد إلى مكانهما. وأخرج بندقيته «أم عشرة» وصوبها إلى الأسد الذي كان على وشك أن يهجم على (التكل) فأصابه إصابة مباشرة حَدّت من اندفاعه ثم ألحقه بأخرى فتت من عضده وثالثة أجبرته على التوقف. ثم رابعة ليتأكد من موته تماماً.

سمع البدو في (بقرة) صوت الطلقات النارية المدوية في ذلك الليل البهيم. فهبوا كعادتهم وأوقدوا النيران والمشاعل وبدأوا في ضرب الرمل واستنباء الغيب. فقال بعضهم إن الأسد قد مات، وقال آخرون بغير ذلك. حتى أصبح الصباح وخرج البدوي الذي كان بصحبة العم أزرق زايد يعدو ركضاً للفريق قائلاً:

- أزرق زايد كتل (قتل).

ويبدو أن الخوف قد أخذ منه مأخذاً وأفقده صوابه. فقبض البدو على ذلك البدوي وعانوا الأمرين في تهدئته.

وبعد قليل ظهر على الأفق عمنا أزرق زايد يتهادى وهو يتوشح بندقيته «أم عشرة». وعندما وصل الفريق ارتسمت على محياه بسمة النصر. فرح الأعراب وشقت زغاريد البدويات عنان السماء وراح بعض البدو يضربون على النقارة (الطبل) فرحاً. وأقبل آخرون على ذبح الشياه. وانجلى ذلك الهم الكبير من نفوس بدو (بقرة)!!

٥٢

الدرنقاس:

«الدرنقاس» هو حفرة كبيرة عميقة بها عيدان مبرية كالأسهم ونصال الحراب موجهة لأعلى. وفوق هذا الدرنقاس توضع أخشاب هشة وأعشاب للتمويه. يحفر الدرنقاس عادة في مسارات الفيلة. فيسقط أحدها في هذه الحفرة الكبيرة ويجهز عليه الصائدون.

هذا الدرنقاس من حيل الأفارقة في صيدهم الفيل. ولأن صيد قرجة (الفيل) بخلاف الحراب يعدُّ عاراً فقد تجنب البدو اصطياده بتلك الصورة. والصورة المخالفة الوحيدة والمشروعة عند البدو هي صيده بالسلاح الناري في حالات الاتجار بعاجه.



الدرنـقل:

هو أشبه بسرير البدو المسمى « الدرنقل». يوضع الدرنقل (السرير) في أعلى الشجرة الكبيرة التي تربط تحتها الميتة (النافقة) التي تسبب الأسد في قتلها من الخيل أو البقر وغيرهما. ويصعد رجل إلى أعلى الشجرة منتظراً عودة الأسد في الهزيع الأخير من الليل لأكلها.

وخلال انتظار الرجل الأسد تأتي السباع الصغيرة وتتغذى على الميتة فيطردها بشتى الطرق. ولملك الغابة أساليبه في كشف من بالشجرة. فيذهب شمالاً وجنوباً مع هبوب الريح ليشم رائحة الرجل الكامن فوق الشجرة. فإذا شم رائحته، يبدأ بالعدو في كل الاتجاهات وبالزئير المفزع الذي يسقط بعض الجبناء من الشجرة فيكون أحدهم فريسة سهلة له.

وإذا لم يشم رائحة الرجل، فإنه يجثم على البهيمة الميتة ويدخل رأسه في بطنها. ويبدأ الأكل وقد أرخى جسمه تماماً. ينتظر الصائد هذه الفرصة الذهبية التي يسترخي فيها ملك الغابة. فيرسل حربته الكبيرة النصل فتهوى بفعل الجاذبية من فوق الشجرة إلى جسم الأسد فتمزقه بقوة حتى تغرز في الأرض.

يزمجر الأسد ويزأر من الألم لساعات ثم يخبو صوته تدريجياً وعندها يكون قد مات. وفي أثناء الزمجرة والزئير تكسر الأبقار زرائبها وتلحق بالعجول وهي تبول وتعدو الكلاب إلى داخل بيوت الشعر وترجف ركب كثير من الرجال فلا يستطيعون الوقوف فيجلسون على الأرض. يصيب هذا الهرج والمرج الفرقان كلما حدثت حادثة كهذه.

ويضيء البدو المشاعل والنيران الكبيرة تحسباً لأي هجوم مباغت من الأسد الجريح أو اللبؤة. ويبدأ الرمالون (الدجالون والمشعوذون) في ضرب الرمل واستنباء الغيب. هل قتله الصائد أم لا؟ وهل وهل؟ ويظل البدو على تلك الحالة الطارئة حتى يبزغ الفجر وينقطع زئير الأسد.

وعند شروق الشمس، تذهب مجموعة لمعرفة الخبر. والعجيب أن الأسد يموت جاثياً والرمح فوقه كالسارية. فيتطلع البدو للرمح وسط الأعشاب الطويلة. فإذا رأوه تحسبوا لذلك، فقد يكون الأسد في النزع الأخير فيقتل منهم.

تقترب المجموعة من الأسد بحذر شديد جداً. فإذا تأكد مقتله نزعوا الحربة وعادوا إلى الفريق فرحين ومهنئين ذلك البطل الذي أراحهم من ذلك الوحش. وتبدأ الولائم والشكر للبطل وتكثر الحكامات المدح له فترتفع أسهمه في القبيلة.



أم كجامة:

أم كجامة هي شرك حديدي لصيد الحيوانات. تعرف تلك الآلة بأنها نصفان دائريان يفتحان من الوسط بقوة ويثبتان كذلك حتى يطأ الحيوان عليها فتطبق الدائرتان المسننتان على ساقه أو قدمه فلا يستطيع الخروج منها؛ لأن هذا الشرك مربوط إلى شجرة أو وتد بسلسلة حديدية قوية.

في (ضيلم) من ضواحي (المجلد) نصب أحد الأشخاص (أم كجامة) فوطأ عليها ضبع كبير (بلتو) ولم يستطع الخروج منها. ومعروف أن هذا النوع من الضباع إذا أعيته الحيل من الخروج من أم كجامة يعمد لقطع ساقه أو قدمه ولا ينتظر الصباح حتى يأتي الصياد فيقتله.

سمع الناس في حلة (ضيلم) عواء الضبع ومجاهدته ومحاولاته العديدة للخروج من أم كجامة. لكنهم لم يكترثوا للأمر، لأنهم سيذهبون إليه في الصباح، إلا ذلك الشخص الذي نصب أم كجامة فقد استعجل الخروج في الليل وأخذ بندقيته المصنوعة محلياً (دق أبو ضرطة) ثم عدا إلى حيث الضبع. صوبها فأخطأه، وأطلق ثانية فأخطأه، وثالثة. وكلما انقشع الدخان بدا الضبع أكثر شراسة. وعندما نفدت طلقاته كان الضبع قد بلغ قمة ثورته وأسنانه تلمع في ضوء القمر وقد أوشك أن يقطع رجله ويتركها في أم كجامة.

خشي الرجل أن يخرج الضبع من أم كجامة وحينها لا يعلم العواقب إلا الله. أصاب الرجل الذعر فصاح مناديا أهل الحلة بشكل هستيري أن يهبوا لنجدته. فركضوا إليه سراعاً وقد ملأ الجو دخان طلقات بندقيته. فقتلوا الضبع وعادوا إلى الحلة. ولكنهم ظلوا يضحكون على صاحبهم الذي رفع عقيرته بنداء النجدة وسط أمارات الذعر التي كانت بادية عليه.



عصر الفرع:

حيلة عصر الفرع حيلة إفريقية قديمة حيث يتناول الصائد فرعاً مطلاً على الدرب في الأدغال فيثنيه حتى يصل إلى الأرض ثم يثبته. ويضع على نهاية الفرع حلقة (أنشوطة) تغلق عندما يضع الحيوان أو الإنسان قدمه داخل الحلقة فيرتفع الفرع فجأة معلقاً الصيد رأساً على عقب، متدلياً من الشجرة.

استخدم عرب البقارة هذه الحيلة وأجادوها وصارت مثلاً لمن تريد أن تخدعه فيقولون:
- أعصر لأخيك الفرع. أو فلان عصر لفلان الفرع!!



أم كفاتة:

أم كفاتة (الكفاتة) هي حيلة من الحيل الصغيرة لصيد الطيور والأرانب والصبر (جمع صبرة/السنجاب) والورل وغيرها من صغار الصيد. وتعرف أم كفاته بأنها طبق أو شبك من الأعواد المتعارضة مربع أو مستطيل الشكل أو أي شيء من هذا النوع يوضع عليه حمولة من تراب أو حجارة (تقالة) لجعله ثقيلا، ثم يوضع الطبق أو الشبك بشكل مائل باتكاله على عود مستقيم مربوط بحبل يدفن بالتراب حتى لا تراه الطيور. ويذر تحته قليل من الحبوب أو الطعم حسب الصيد المراد اصطياده.

وعند دخول الطائر – مثلاً – تحت الطبق المثقل يسحب الصائد الحبل فيختل التوازن وتسقط ام كفاتة على الطائر.

الفصل الرابع عشر
خورطقت الثانوية



الفصل الرابع عشر
خورطقت الثانوية

مقدمة:

أكملنا الامتحانات النهائية لدخول الثانوي من رجل الفولة الأميرية الوسطى. وكانت المدارس المتاحة هي: خورطقت الثانوية والأبيض الثانوية، والفاشر الثانوية التي فتحت حديثا في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، ثم معهد التربية العتيد بالدلنج. وتفرق جمعنا إلى مناطقهم الريفية إلا من قلة قصدت الأبيض والنهود بوصفها مدناً كبيرة.

كنا ننتظر إذاعة النتائج على أحر من الجمر. فقد كانت إذاعة النتائج عندنا في (الحوش) بالمجلد بعيداً. فقد اعتاد أهلنا داخل الحوش أن يتجمعوا كل عام في حفل كبير ليستمعوا للذين نجحوا في الامتحانات النهائية سواء كانت من المتوسط للثانوي أو الشهادة السودانية.

في تلك الأيام يكون الحوش خلية نحل، فيؤتى بالخرفان لذبحها في هذه المناسبة. وتنهمك النساء في نظافة الحوش وفرش السباتة (الحصائر) للكبار والصغار والنساء والبنات. وتضاء الرتاين. وتنصب هذه الرتاين على الجهات الأربع. ويحلو السمر إلا للذين ليسوا متأكدين من نجاحهم. وتكون الطامة الكبرى إذا فشل – لا قدر الله – الشخص الممتحن.

كنا نخشى يوم الإذاعة كثيراً ويتلف أعصابنا. وأذكر أنني حضرت يوم إذاعة النتائج النهائية للشهادة الثانوية وأنا في (مرتجلو) بجبل مرة في غرب السودان مع أخي القوني (رحمه الله) وحسين. إذ كنا في زيارة لبعض إخوتنا في نيالاً حيث كان أحمد القوني (رحمه الله) يعمل في بداية حياته ضابط غابات في نيالا، فهيأ لنا فرصة الذهاب إلى جبل مرة بسيارة لاندروفر، وكان أخوانا عثمان (رحمه الله) ومحمد النذير يعملان بالتجارة في نيالاً.

حمدنا الله على النجاح ودخول مدرسة خورطقت الثانوية، بضواحي مدينة الأبيض. لقد كنا أكثر الناس فرحاً بهذه المناسبة السعيدة، لأن أخي القوني (رحمه الله) وحسين سبقاني إلى مدرسة خورطقت. قمنا بالتجهيز للمدرسة الثانوية بخياطة أردية الكاكي والقمصان البيضاء نصف الكم والشبط (الصندل) ماركة (كلارك) الإنجليزية الذي كان يكلف ٩٩ قرشاً في أسعار شركة باتا التي كانت تنتهي بتسعة دائماً.



مدينة الأبيض:

الأبيض هي عاصمة كردفان الغراء (الغرة أم خيراً جوه وبره). وقد أطلق عليها عربان البادية اسم (أبو قبة فحل الديوم الما شافه مظلوم). وأسماها من عشقها وهام بها (عروس الرمال).

كانت هذه المدينة مقصداً لكل زوار السودان الكبار على مر العصور. ولا يكاد يزور السودان أحد من كبار الزعماء إلا وكانت الأبيض مضمنة في جدول زيارته.

فقد زارها بعد الاستقلال الرئيس جمال عبد الناصر، رئيس جمهورية مصر العربية؛ والرئيس تيتو، رئيس يوغسلافيا السابقة، حيث احتفى به أهل الأبيض وخلدوا زيارته بميدان تيتو القريب من المطار. وكذلك زارها الرئيس برجنجيف، رئيس الاتحاد السوفيتي سابقاً؛ والملكة أليزابث، ملكة بريطانيا؛ وزارتها فرق الأكروبات الصينية أكثرمن مرة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، والقائمة تطول.

تبوأت الأبيض مركزاً مرموقاً يزهو ويخبو حسب الأحداث السياسية. وهي واسطة عقد السودان. وإذا نظر أحدكم في خارطة السودان فسيجد الأبيض - دون غيرها من المدن - في قلب السودان. لذا فقد جمعت بين أحضانها كل أبناء السودان من شماله وجنوبه وشرقه وغربه وحنت عليهم مثل أم درمان تماماً.

فهاتان المدينتان تستحقان بالتأكيد أن يطلق عليهما صفة المدينتين التوأم. فقد أوجدتا لغة خاصة بهما وأسقطتا اللهجات والفوارق الأخرى التي تفرق بين الناس وتمدنتا لدرجة أن قاصدهما لا يجد بداً من الإقامة الطيبة فيهما ولن يجد ما يعكر صفوه أبداً. لذا فحب الأبيض وحب أم درمان باق في أفئدة كل ساكنيها ما بقي

فيهم عرق ينبض. وهام الشعراء بهما فكان جل شعر الفخر والحب والوفاء فيهما.

في التركية السابقة كانت المدينة الأولي في إقليم كردفان – أكبر أقاليم السودان. وكان بها الدفتردار صهر إسماعيل باشا الذي قل أدبه على المك نمر فلم يفلت من العقاب فشيعه الجعليون بنار إلى النار. وقد انتقم له الدفتردار بمذابحه الانتقامية الرهيبة حيث سير جيشاً كاسحاً من كردفان عبر الصحراء إلى أرض الجعليين فقتل الآلاف من الناس وأسر الآلاف وبعث بهم إلى مصر واضطر المك نمر للالتجاء إلى المتمة الحبشية.

وفي المهدية كانت منطلق المهدي لتحرير السودان بجيوش الأنصار. وقد بايعه شيخها الصالح إسماعيل الولي (قنديل كردفان) وهو داخل الأبيض وتحت إمرة المستعمر التركي. وعندما فتح المهدي الأبيض قام أولاً بزيارة الشيخ الصالح وشكره على موقفه المشرف وحرصه على تثبيت دعائم الدين وكان شارع المهدي أمام قبة الشيخ الصالح برهاناً على ذلك.

حفظ الأنصار هذا الود والوفاء، فكانت العلاقة الوطيدة بين السادة الإسماعيلية أحفاد الشيخ الصالح وزعامات الأنصار إلى اليوم. ولا يدخل الأبيض زعيم من زعماء الأنصار قبل أن يمر أولاً على آل الشيخ الصالح (قنديل كردفان).

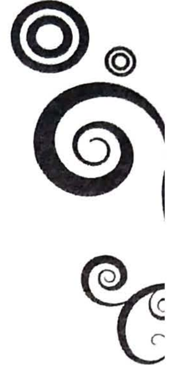
فقد كانت زعامات الأنصار بحي ود نوباوي في أم درمان تمر على حي السيد المكي ابن الشيخ الصالح وجد السيد الزعيم إسماعيل الأزهري – وهي في طريقها لأداء صلاة العيد في ميدان الخليفة عبد الله وسط أم درمان فتصحب معها جماهير حي الشيخ المكي و تستأنس بهم حتى ميدان صلاتهم قبالة منزل الزعيم الأزهري ثم تواصل سيرها إلى ميدان الخليفة.

وفي التركية الأخيرة كانت الأبيض تتبوأ مركزاً مرموقاً أيضاً. فقد قام المستعمر بافتتاح محطة السكة الحديد بها عام ١٩١٠م وكانت علامة فارقة بين النقل بالدواب والنقل الحديث. وظلت كذلك حتى الاستقلال حيث أهدت السودان السيد إسماعيل الأزهري - حفيد شيخها الصالح إسماعيل الولي - الذي رفع علم الاستقلال خفاقاً على ربا السودان. وأهدت هذه المدينة (العسجد) السودان أيضاً الرئيس الورع السيد سوار الدهب الذي حقن الله به دماء السودانيين أيام حكم مايو. فأيادي الأبيض بيضاء على السودان كله (ومكتول هواك يا كردفان).

دخلنا الأبيض (عروس الرمال) أو (أبو قبة فحل الديوم) لأول مرة.وكانت المرة الأولى التي نشاهد فيها مدينة كبيرة بهذا الحجم. ثم تابعنا مسيرنا إلى مدرسة خورطقت الثانوية التي تبعد بضع كيلومترات تقريباً شرق الأبيض.

وكانت المفاجأة الأخرى هي تقنية الكهرباء. فنحن في المجلد ورجل الفولة لم نشاهد الكهرباء ولا نعرفها. فقد كانت الإضاءة بالفوانيس أو المسارج (جمع مسرجة/سراج) والرتاين. أما الآن فقد ودعنا هذه الأنماط من الإضاءة المتخلفة المصحوبة بالسخم والكربون، وأصبحت الإضاءة مجرد ضغط على زر والحمد لله.

لا يعرف نعمة الكهرباء إلا من لم يألفها من قبل. ولا يمكنكم أن تتصوروا كم كانت فرحتنا بهذه التقنية الجديدة التي وفرت علينا مجهوداً كبيراً!!



الداخليات:



تم توزيعنا على الداخليات التي كانت أكثر رفاهية من داخلياتنا في مدرسة رجل الفولة الأميرية الوسطى وأكبر حجماً، رغم أن المخطط لا يختلف كثيراً. فبرندات (النملية) كما هي، والأزهار المشتولة أمام الداخلية كذلك والبناء من الحجر أيضاً.

تضم المدرسة مسجداً كبيراً وبقالة (كنتين) عمنا علي ومستوصفاً ونادياً للطلاب وعدداً من الباصات (الحافلات) بقيادة عمنا عربان وعمنا عوض لنقل الطلاب في نهاية الأسبوع إلى الأبيض. كما كانت تنقل الطلاب الخارجيين الذين يقطنون الأبيض.



كانت الداخليات: تكتوك وزاكي الدين والولي وأبو عنجة وود التوم ودينار ودوليب وود زايد وأبو سن؛ وداخلية ود ضيف الله (لأبناء جبل أولياء الذين قدموا حديثا آنذاك إلى خورطقت).

وكانت الداخلية الواحدة تتكون من عنبرين كبيرين وعنبر صغير في كل ضلع من الضلعين المتوازيين المتواجهين. ويرتبط الضلعان في جانب عند الحمامات والمغاسل. فالداخلية هي مستطيل فاقد لأحد الضلعين الصغيرين فهي أشبه بعطفة اليو (يوتيرن U-turn) تماماً إلا أن ما يوصل بين الضلعين مستقيم وليس مقوسا.

وعند نهاية أحد ضلعي الحرف اللاتيني يو (U) من الجهة اليسرى تكون غرفة الأستاذ المشرف. التيتر (tutor) على الطلاب ومن الجهة اليمنى تكون غرفة رئيس ونائب رئيس الداخلية من الطلاب أو العكس. ويرفع رئيس الداخلية التمام (قائمة الحضور والغياب) للأستاذ المشرف كل ليلة عقب إطفاء الإضاءة حين يأوي الطلاب إلى فرشهم للنوم. وملحق بكل سرير خزانة ملابس (دولاب) صغيرة بجواره.

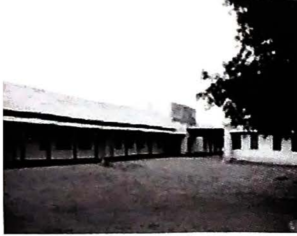
الجدير بالذكر أني كنت الرئيس الأول لداخلية تكتوك مع زميلي وصديقي اللخمي عبد المنعم (الآن الدكتور اللخمي) كرئيس ثان. كما كان الأستاذ بشير كوكو حميده (الآن الدكتور بشير كوكو حميده) هو المسئول عن الداخلية، وكان الشاب الألمعي والأنيق الأستاذ بابكر عبد الله (الآن الدكتور بابكر عبد الله) هو المشرف على الداخلية والذي كان يسكن معنا.

كنا نتسامر في الليل بعد إطفاء المصابيح الكهربائية من كل الداخليات عند الساعة العاشرة مساء فيأخذنا الحنين إلى مناطقنا التي أتينا منها. ويبدأ أخونا جعفر القادم من نوري في الشمال بعد أن قطع كل تلك المسافة من نوري إلى الأبيض، في سرد حكايات عن منطقتهم بحنان غامر ونحن نستمع وكأن على رؤوسنا الطير. وفي الليلة التالية يبدأ أخونا عبد الوهاب جبريل القادم من خماس في دار حمر سرد حكايات عن خماس.. ويبدأ جاروط الليلة التي بعدها في سرد حكايات عن منطقته. ثم إبراهيم محجوب دقق عن الأبيض عاصمة كردفان وهكذا دواليك.

وهكذا أتيحت لنا فرصة التعرف على مناطق السودان المتعددة ولهجاتها وسحنات أهلها. ونشأت صداقات وطيدة في ذلك العمر الصغير. وتغيرت أنماط تفكيرنا والصور والقوالب المسبقة عن بعض الناس والقبائل التي أتينا بها من مناطقنا مع مرور الزمن. فلو كنت تحتقر قبيلة أو شخصاً ما يفاجئك بتميزه في ناحية من نواحي الحياة العديدة في خورطقت الثانوية فتضطر إلى تغيير الصورة النمطية التي كانت لديك عنه وعن قبيلته وتصل إلى النهاية الطبيعية القائلة بأن الذكاء والجمال وكل المواهب الأخرى ليست حكراً على قوم دون قوم.



الفصول والمدرسون:



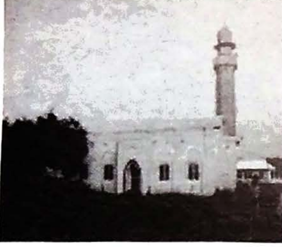
مدرسة خورطقت الثانوية هي مدرسة ذات ستة أنهر (أي ستة فصول في كل سنة دراسية). ويقبل في كل نهر منها ٢٤٠ طالباً: أي ٤٠ طالباً لكل فصل. وبذا يكون عدد طلابها ٩٦٠ طالباً.

يجتمع هذا العدد الكبير في طابور الصباح لتلقي التعليمات والإرشادات من ناظر المدرسة قبل الدخول إلى الفصول. ويعقد اجتماع (الأسمبلي) كل يوم سبت للطلاب مع كل هيئة التدريس لإبداء الملاحظات والتفاكر. وهو تقليد عظيم دأبت عليه تلك المدارس النموذجية الثلاث: خورطقت وحنتوب ووادي سيدنا.



كما دأبت إدارة المدرسة أن تمنح في نهاية كل عام دراسي للسنة الثالثة التي في طريقها إلى السنة الرابعة والتخرج (نجمة خورطقت) للطلبة المثاليين في كل دفعة (تتكون الدفعة من ٢٤٠ طالباً) من حيث التحصيل العلمي والنشاط الرياضي والاجتماعي. وفي دفعتنا كانت نجمة خورطقت الأولى من نصيبي والثانية من نصيب عاصم بابو نمر والثالثة من نصيب إسماعيل عيسى شايب والرابعة من نصيب خالد منعم منصور.

تم توزيعنا على الفصول عند قدومنا لأول مرة إلى هذه المدرسة العظيمة. وقد فاجأنا أحد زملائنا بأن اسم فصله هو (طيري) ولم نفهم بادئ ذي بدء لماذا سمي ذلك الفصل بهذا الاسم الغريب!!! حتى اكتشفنا فيما



بعد أن زميلنا قرأ اسم الفصل على عجل وكان اسمه (طبري).

سميت الفصول بمشاهير رجال العلم في التاريخ الإسلامي وفي السودان. فهناك فصل ابن رشد وابن سيناء والفارابي وغاليليو والطبري وبدري والنصري وغيرهم. كما اشتملت المدرسة على عدد من المختبرات الراقية ومكتبة حديثة عربية وإنجليزية ضمت أفضل الكتب وأندرها. وزينت ساحة الفصول بالأشجار والأزهار من كل نوع ولون.

أما هيئة التدريس فقد ضمت باقة من كبار رجال التعليم في السودان حيث توالى علينا أثناء دراستنا الناظر أحمد حامد الفكي، والناظر أحمد عبد الله سامي (صاحب ديوان الرمال الظامئة) والناظر عصام حسون.

ومن الأساتذة مجموعة فاضلة من المعلمين الأكفاء في كل العلوم أمثال الاستاذ سمساعة وعبد الرحمن صالح بانقا وبابكر عبد الله (الآن الدكتور بابكر عبد الله) والعمرابي وبشير حسون وشبور وخيري وبشير كوكو حميدة (الدكتور بشير كوكو حميدة) وتاج السر محجوب (الدكتور تاج السر محجوب) وأحمد البشير والغالي جديد وأبو الرجال ومحمد عبد الدائم «وردي» ومحمد علي الطريفي وعلي رخا وعبد الله الشيخ البشير (شيخ شعراء السودان حتى رحيله عام ١٩٩٤م) والأستاذ آغا.

ومن الأساتذه المصريين الأستاذ راغب اسكندر والأستاذ نبيل. وكذلك باقة من الأساتذة البريطانيين (الإنجليز والاسكوتش والآيرش) أمثال المستر يونج وجريفس و رودني أشر (وهذا الأخير رتبت له مجموعة من خريجي خورطقت زيارة لخورطقت بعد ٤٠ عاماً من مغادرته السودان). كما كان هناك من البريطانيين من يلقب نفسه بملك خورطقت(King of Khor Taggat) حيث درج هو وعائلته على الخروج إلى حديقة منزله في حي المدرسين بكامل أناقتهم لشرب الشاي في المساء.

الغريب أن المستعمر تخابث بجعل شعبة اللغة العربية والدين تبدو في عيون الطلاب أقل شأناً من غيرها. فمثلاً في شعبة الإنجليزي كان الأساتذة يبدون في منتهى الأناقة بالزي الأفرنجي في حين يلبس أساتذة اللغة العربية والدين الجلابية أو القفطان، ولا أدري لماذا.. إلا أنهم كانوا يبدون لنا كسالى وضلهم (ظلهم) ميت. لماذا لا ندري!!!! وقيل إن الرواتب الشهرية التي يتقاضاها أساتذة شعبة اللغة الإنجليزية كانت أكبر من رواتب أساتذة اللغة العربية والدين!!!

اعتمد المستعمر هذا الأسلوب القذر حتى في سن مبكر عند الدخول إلى المدرسة المتوسطة. فكان يبعث بالذين

لم يتمكنوا من دخول المدرسة الوسطى إلى المعهد الديني. وبهذا السلوك بدا (لمستعمر) وكأنه يبعث برسالة مفادها أن الفاشلين هم الذين يتجهون إلى المعهد الديني وبذا تم التقليل من قيمة الدين في نظر الشباب!!!

ومن أبرز خريجي خورطقت (الذين عاصرتهم وتوطدت معرفتي ببعضهم في المدرسة وأرجو المعذرة إن غفلت عن ذكر بعضهم) الذين لعبوا أدواراً مهمة في الحياة: الدكتور النابغة سعد عدنان وأخوه الدكتور سعيد عدنان والبروفسير مأمون حميدة والدكتور خالد عبدالله رجب والدكتور محمد زين والدكتور أحمد إبراهيم مختار والأستاذ محمد عبدالله جار النبي والدكتور عاصم بابو نمر والدكتور عبد الله عبد الكريم جبريل والدكتور بشير عمر (وزير المالية الأسبق) والدكتور دفيعة عوض والدكتور مزمل دينار والدكتور اللخمي وعباس برشم وعبدالرحمن شامبي والدكتور أنور سليمان وقيع الله والدكتور فضل الله على فضل الله والدكتور عبد الكريم جبريل القوني والأستاذ فضيلى جماع والأستاذ عبدالرسول النور والدكتور بابو فضل الله محمد دفع الله والدكتور الحاج أبو جبر الحاج أجبر والدكتور عبد الباسط سعيد والأستاذ دلدوم الختيم عسكر والأستاذ القوني جبريل القوني والاستاذ حسين جبريل القوني والدكتور معاذ الأمين الخليفة والدكتور البشري التوم والدكتور بشرى الدومي والدكتور أحمد التجاني المرضى والبروفسير الأصم عبد الحافظ الأصم والاستاذ معاوية الفاتح النور والدكتور محمد عبدالله مالك والمهندس عبد الرحمن عبدالله والمهندس عمر الضو والمهندس إسماعيل الفكي والمهندس محمد عمر خضر والدكتور الأمين آدم محمد زين والأستاذ حسب الرسول كباشي والأستاذ سعيد أبو كمبال وغيرهم من هذا العقد الفريد.

ومن خريجيها الذين تقلدوا مناصب دستورية في حكومة الإنقاذ: الفريق إبراهيم سليمان وزيرالدفاع واللواء معاش إبراهيم نايل إيدام والدكتور مهدي إبراهيم (القيادي في المؤتمر الوطني) وأحمد إبراهيم الطاهر (رئيس المجلس الوطني) والشيخ بيش وعلي تميم فرتاك (وزير التربية والتعليم) والدكتور تاج السر محجوب والدكتور السفير حسن عابدين والدكتور جلال يوسف الدقير (وزير الصناعة) والدكتور بشير آدم رحمة (حاكم ولاية السلام قبل إلغائها) والسفير أحمد التجاني محمد الأمين الدسوقي.

كما أن من أبرز خريجيها أيضاً السيد سوار الدهب – الرئيس الأسبق لجمهورية السودان – والأستاذ كمال حمزة والدكتور بشير إبراهيم مختار والدكتور خليفة عبد الرحيم والدكتور بكري عديل (وزير التربية والتعليم الأسبق) والبروفسير محمد عبدالله الريح والبروفسير محمد هاشم عوض والفاتح بشارة – السفير وحاكم كردفان الأسبق، والشاعر الفذ والسفير محمد المكي إبراهيم – حفيد قنديل كردفان، والأستاذ محمد طه الدقيل و الأستاذ محمد البدوي عبد الساتر؛ والأستاذ عبد الرحمن صالح الطاهر والأستاذ أحمد جبريل القوني. رحم الله من انتقل منهم إلى جوار ربه وأطال في أعمار من بقي منهم.



النشاطات المدرسـية

أ. التدريب العسكري:



المدرسة مكتظة بمناشط حياتية عديدة. فهناك التدريب العسكري (الكاديت) الذي يشرف عليه شاويشية (رؤساء رقباء من عسكر الحرب العالمية الثانية) الأكثر صرامة وانضباطاً في التدريب. فيجب أن يكون الرداء (السروال) العسكري القصير والقميص منشياً (مكوياً بالنشا) حتى تكون خطوط المكوة سيفاً (مستقيمة كالسيف) والأساليب العسكرية الصارمة من قيام راقداً والزحف أرضاً والبلتون (الفصيل) ونمرة كاملة عد. والويل إن أخطأ أحد الطلاب العسكريين في الحساب حيث يبدأ العد من الأول أو يطبق الجزاء العسكري بالركض حول الملعب أو الزحف على نباتات الضريساء الشائكة إلخ...

كانت التعليمات تقضي بالمحافظة على البندقية القديمة (أم عشرة) التي تزن نحو ١٥ رطلاً والعناية بها. وقد سقط بعض الطلاب من طول مدة حملهم لها في أعياد ثورة أكتوبر ونحن وقوف منذ الصباح الباكر في ميدان الحرية المجاور لسينما عروس الرمال بمدينة الأبيض لنقوم بالطواف حول المدينة بعد انتهاء الحفل مع عسكر القيادة الوسطى وسط زغاريد النساء وزفة الأطفال والنظارة.

الجدير بالذكر كان العم علي جبريل - العاشق للجندية- في القيادة الوسطى كان هو الأول في كل مسابقات الرماية في السودان. فقد كان يلقب بالبرنجي (أي الأول) حيث لا تخطئ طلقاته الهدف أبداً - رحمه الله . فقد

كان مثالاً للجندي المنضبط وفخراً للسودان، يمارس الجندية بحب عميق ورجولة.

وفي آخر العام كانت ترتب لنا زيارة لمعسكر (أم جلباق) في شمال كردفان للتدريب مع المستجدين من عسكر القيادة الوسطى. وحتى ذلك الوقت - في منتصف الستينيات من القرن العشرين - كنا نرتدي القشلين وليس شُرابات (جوارب). والقشلين هو (شريط من الصوف يلف حول الساق). وفي أم جلباق بقينا أياماً بالأحذية العسكرية والقشلين.

وبعد معسكر (أم جلباق) حظينا بتوصيات للكلية الحربية تغني عن الوساطة التي كانت سائدة آنذاك. وقد ساعدت هذه التوصيات في قبول عدد من زملائنا بالكلية الحربية (عرين الرجال).

كانت هناك مجموعة من الشباب ممن عشقوا الجندية وضعهم الشاويشية على إدارتنا.وكان أبرزهم أحمد عبد القادر (اللواء معاش أحمد عبد القادر) وإبراهيم نايل إيدام (الآن اللواء معاش إبراهيم نايل إيدام) الذي دخل الكلية الحربية بجدارة وكان من أميز الطلاب العسكريين الذين مروا عليها.

ب. الموسيقى:

وهناك الموسيقى بنوعيها: الوترية والنحاسية، وقد خصص أساتذة لهذا المنشط ينتظرون الطلاب في فترة ممارسة النشاطات في العصر. وعلى من يسجل في أي قسم من المناشط أن يلتزم بالدراسة حتى يكمل الدورة وإلا فإنه أو سيعرض نفسه للعقاب إن لم يكن العذر مقنعاً.



فتسمع أصوات الكمان والعود والكلارنيت والترومبيت والسكسفون والأبواق الكبيرة والصغيرة والطبول الكبيرة والصغيرة أيضاً طوال فترة العصر. وقد برع عدد من الطلاب في هذا النشاط بحكم مواهبهم الفنية الرائعة. وكانوا يظهرون مواهبهم في ليالي الداخليات على مسرح المدرسة بالغناء والعزف الجميل. والتحق عدد منهم بأوركسترا الإذاعة والتلفزيون ومجالات الموسيقى الأخرى.

زارنا في أوائل الستينيات من القرن العشرين الفنان الكبير شرحبيل أحمد الذي ترك بصمته في المدرسة. فكنت تستمع إلى الطلاب آنذاك يرددون أغنيته المشهورة (ياللابس البمبي) في كل ناحية من خورطقت وهم يرقصون (التويست) بالجنبات.

ج. الفنون الجميلة:

ظلت كلية الفنون الجميلة، هذه الكلية الجميلة الراقية، ترفد المجتمع السوداني بخيرة الفنانين على المستوى المحلي والعالمي. وقد برع في هذا المجال أساتذة كبار مثل: إبراهيم الصلحي وشبرين وكمالا إبراهيم إسحاق ورباح حسين جمعان ومالك الزاكي وصالح الزاكي وتاج السر والعريفي إلى آخر العقد الفريد الرائع. وقد أنشأ هؤلاء الأفذاذ في منتصف القرن العشرين مدرسة الخرطوم العالمية للفنون، وذاع صيتهم بعد أن لونوا حياة الناس بالجمال والرقي والحضارة.

وقد برعت ثلة من الطلاب في هذا المجال الإنساني في خورطقت كما برعت في كثير من فروع الفنون من موسيقى ونحت ورسم وخلافه وكان عبده عثمان (الآن الدكتور عبده عثمان) واحداً منهم وانتهى به المطاف رئيساً للتشكيليين السودانيين ورئيساً لشعبة النحت بكلية الفنون الجميلة التي تم إنصافها بعد مدة طويلة. فقد حررت أخيراً من إلحاقها بالمعهد الفني، وأصبحت كلية من كليات جامعة السودان (المعهد الفني سابقاً) رغم أنها كانت من ضمن شعب كلية الآداب بجامعة الخرطوم في بداياتها الأولى. وهذه الكلية هي الوحيدة التي إن لم تكن موهوباً فلن تدخلها وإن دخلتها فلن تنجح فيها مطلقاً !!!

الرائع والجميل في عبده عثمان وزميله إبراهيم نايل إيدام أنهما كانا يعرفان طريقهما جيدا. وكان لكل واحد منهما هدف بارز ومحدد منذ اللحظة الأولى في خورطقت الثانوية. كما كانت رؤيتهما واضحة تماماً. فعبده عثمان كان نحاتاً ويحب الفنون بأنواعها رسماً وعزفاً وحتى كرة القدم كان يلعبها برشاقة وجمال وفن واضح. وإبراهيم نايل إيدام كان عاشقاً للجندية عشقاً لا يضاهى.

ومما يتوجب علينا ذكره بكل شفافية أن أساتذة الفنون والموسيقى قد ساعدوا مخلصين على صقل مواهب الطلاب، فبرزت كأجمل ما تكون المواهب. وكانت نخبة أساتذة الفنون تتكون من أستاذة أجلاء على رأسهم العريفي ومالك الزاكي.

وهناك مجموعة من التماثيل تقف شاهدة على منفذيها في المدرسة أنها أعمال خالدة لأساتذة كبار مثل: مالك الزاكي وغيره ورسومات جدارية من الأستاذ العريفي في قاعة الطعام وروائع من الأعمال الفخارية. وقد أضفى أساتذة الفنون رونقاً وإبداعاً وجمالاً ونكهة خصوصاً لمدرسة خورطقت الثانوية.

كما نحت الطالب الفنان الموهوب محمد عبد الله الريح (البروفسير محمد عبد الله الريح) تمثال البدوية التي كانت تعبئ القربة بالماء وقد بدأت ثيابها في الانحسار عن جسدها أثناء تعبئة القربة، وكان هذا التمثال من الروعة بمكان. وكان الطلاب وهم في تلك السن المبكرة يطوفون حوله يتحسسونه ويتأملون تلك الغادة الجميلة.

وقد خشيت إدارة المدرسة من طواف الطلاب حول ذلك التمثال وتحسبت لذلك بوضع سياج من السلك حوله حتى لا يقترب الطلاب منه كثيراً !!!

هذا وقد ساعدت المدارس النموذجية الثلاث: خورطقت ووادي سيدنا وحنتوب، في نهضة السودان عامة في كل المناحي. وإلى عهد قريب كان جل السياسيين والحكام وأهل الحل والعقد في السودان من هذه المدارس الثلاث. هذا بالإضافة إلى أنها ساعدت كثيراً في إزالة العصبية القبلية وعمقت روح المواطنة ومعرفة الأقاليم المتعددة واللهجات بين طلابها وأخرجتهم للحياة ناضجين تماماً ومسؤولين في معظم نواحي الحياة.

وهي مدارس قل أن تجد لها مثيلاً في الوطن العربي أو العالم الثالث أو حتى العالم الأول من حيث الرعاية وتحفيز ملكات الطلاب وجلائها في سن مبكرة.

د. التصوير الفوتوغرافي:

وهي شعبة مهمة من شعب المناشط المدرسية. وقد استفاد الذين حضروا دوراتها من اكتساب مهنة مهمة في الحياة وفتحوا استوديوهات تصوير فوتوغرافي أصبحت وسائلهم لكسب العيش.

هـ. النشاط المسرحي:

نظم هذا النشاط المدرسي بحيث يكون لكل داخلية ليلة من ليالي الخميس تعرض فيها فنونها المسرحية والغنائية والفكاهية على مسرح المدرسة. وقد حرصت بعض الأسر من مدينة الأبيض على حضور تلك الليالي المسرحية في أمسيات الخميس.

وقد نتج عن التنافس بين الداخليات ظهور كوادر مسرحية وغنائية وفكاهية امتهنت هذه المجالات من الفنون في حياتها لاحقاً.

و. النشاط السياسي:

يتكون اتحاد طلاب خورطقت الثانوية من عدد من الاتجاهات السياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. ففي بداية كل عام دراسي تجتهد ألوان الطيف السياسي في تجنيد أكبر عدد من الطلاب الجدد.

كما كنا نشارك في المظاهرات السياسية في الأبيض؛ فقد كانت فترة الستينيات من القرن العشرين فترة تحرير في أفريقيا، فكان هناك جومو كنياتا (الرمح الملتهب) ولوممبا وعبد الناصر ونكروما وغيرهم من الزعماء

الأفارقة. وكان شعر الفيتوري يؤجج نشاطات التحرير ويلعب دورا مهما في حماسة الثوار.

وكانت مدرسة الأبيض الثانوية للبنات تخرج معنا في كثير من هذه المظاهرات السياسية. فنضع الطالبات في وسط مجموعتنا الطلابية ونحن في طريقنا من خورطقت إلى داخل مدينة الأبيض. وكنا بعد انتهاء المظاهرة نحرص كثيراً على إعادتهن لمدرستهن.

وكان لا يكاد يمرّ عام من دون إضراب ينظم في المدرسة. ويدعى لهذه الإضرابات ليلاً حيث نتسلل خلسة من أسرّتنا إلى الوديان القريبة في صمت وهدوء تام لنجتمع ونقرر الإضراب صباحاً. وفي بعض الأحيان يعلم الأستاذ المشرف على الداخلية والذي يقيم معنا في ناحية من نواحي الداخلية بالأمر فيبلغ ناظر المدرسة الذي يصلنا في مكان الاجتماع ويفلح أحياناً في فض الاجتماع.

وكان نادي الطلاب المزود براديو (فيليبس) كبير هو ملتقى النشاطات السياسية والترفيهية في الستينيات من القرن العشرين. حيث لم يكن هناك تلفزيون.

ز. الصحافة:

كانت نشرة (لهيب) التي تنتقد الأساتذة وإدارة المدرسة فتفقدهم صوابهم تعلق ليلاً ولا يعلم أحد محررها. وتنتقل من دفعة إلى أخرى رغم حرص إدارة المدرسة على معرفة المحررين إلا أن كل محاولاتهم باءت بالفشل. وكانت الإدارة تحرض الخفراء أحياناً على رصد من يعلقها فيعمد أولئك الشياطين إلى الاختباء حتى الساعات الأولى من الفجر حين يتعب الخفراء من العس الليلي فيلصقونها على ظهورهم وهم نيام!!!

وكذلك كانت هناك جريدة (سلامات) التي أنشأها محمد عبد الله الريح - البروفسير محمد عبد الله الريح (حساس محمد حساس) والذي انتقل بها فيما بعد إلى جامعة الخرطوم.

وتشارك المدرسة في منافسات أدبية مع مدرسة الكمبوني وغيرها من مدارس الأبيض. كما كنا نسجل زيارات للسينما (سينما عروس الرمال أو سينما كردفان) عندما يعرض فيلم له علاقة بالمقرر الإنجليزي مثل (ماكبث) و(كنج لير) وغيرهما من روائع شكسبير والأدب الإنجليزي. وكان المجلس الثقافي البريطاني يزود المدرسة ببعض الأفلام.

ح. النشاط الرياضي:

يوجد بمدرسة خورطقت الثانوية ثمانية ميادين كرة قدم وعدد كبير من ميادين كرة السلة والطائرة والعديد من طاولات كرة تنس الطاولة حيث تحتوي الداخليات كل تلك الأنشطة.

وتتنافس الداخليات فيما بينها في مباريات كرة القدم وأحياناً مع فرق الأبيض أو الفرق الزائرة. وقد خَرّجت خورطقت العديد من اللاعبين المهرة الذين انضموا لأندية العاصمة: الهلال والمريخ والموردة والنيل وغيرها ولأندية الأبيض وللفريق القومي السوداني (حالياً المنتخب الوطني السوداني).

وفي خور طقت تلقى بعض الطلاب تمارين على الملاكمة والمصارعة الرومانية من الأستاذ محمد علي الطريفي، في حين كان سباق الضاحية من الأبيض إلى خورطقت من أميز النشاطات الرياضية. حيث كان الأخ المناضل الجسور المرحوم عباس برشم – رحمه الله - والأخ علي زكريا يأتيان في الصدارة دائماً.



ليالي رمضان:

اعتاد الطلاب أن يوقظوا الصائمين بضرب النوبة (طبل كبير كان من ضمن طبول التدريب العسكري). وكانوا يدخلون أحياناً إلى ردهات مساكن الأساتذة المشرفين في الداخليات ويتعمدون ضرب الطبل بصورة مزعجة جداً وهم ينشدون أهازيج عادة ما يكون لها علاقة بذلك الأستاذ، فيخرج الأستاذ غاضباً فيتفرق الطلبة.

فمثلاً كانوا يدخلون إلى سكن الأستاذ العمرابي وينشدون:

- تاني دور قوم السحور، (وتاني دور هو الأستاذ العمرابي الطويل)

أو يذهبون للأستاذ خيري الحلفاوي وينشدون:

- خيري الشين نايم لمتين.

فيخرج الأستاذ خيري ويسب الطلاب الذين يكونون قد تفرقوا قبل خروجه.



الخروج من دون إذن:

ومن الذكريات التي لا تنسى أننا كنا نهرب أحياناً إلى الأبيض من دون إذن مسبق من المسؤولين فندخل السينما (سينما عروس الرمال أو سينما كردفان) ثم نقصد بعد ذلك المطاعم (ود مجالس) أو (مايسترو الفول) الذي لا يعلى عليه ونتزود بالباسطة (ونقصد بها نوعاً محدداً من الحلوى رغم أن تسمية الباسطة «Pasta» تعني نوعاً من المكرونة) من مقهى جروبي الشهير (المسمى على مقهى جروبي في القاهرة) ثم نرجع إلى المدرسة مشياً.

الجدير بالذكر أن الأبيض كانت مرتبطة ارتباطاً قوياً بمصر، وربما يعود ذلك لكبر الجالية المصرية فيها؛ فالأبيض وبورتسودان كانتا المدينتين الوحيدتين من مدن السودان اللتين بهما قنصلية مصرية بالإضافة إلى السفارة المصرية في الخرطوم.
لذا فقد كانت أحدث الأفلام المصرية تصل إلى الأبيض سريعاً. وعندما ظهرت مصر الجديدة كانت هناك الأبيض الجديدة بدل الحي البريطاني.

كما كانت هناك جالية شامية (سورية ولبنانية) كبيرة وأخرى هندية. وجاليات يونانية بقيادة كرياكو ونيكولا أبو ديك. يدل على ذلك وجود أربع كنائس في مدينة الأبيض، تعدّ إحداها من أكبر كنائس إفريقيا وقد بناها الأب كمبوني الذي سميت عليه مدارس الكمبوني في الأبيض والتي ظهرت لاحقاً في الخرطوم.

وكانت أخطر نقطة في مشوار العودة من الأبيض هي ما يلي مدرسة الأبيض الثانوية للبنات بصفتها آخر مظهر للعمران في مدينة الأبيض آنذاك. فهناك الغابة حيث يتربص بها الحرامية الذين يسلبوننا نقودنا القليلة أو

يضربوننا.

هذا وقد ضرب مواطنو الأبيض طوال المراحل أروع الأمثلة في تقديرهم لطلاب خورطقت الثانوية فكانوا عندما يعرفون أننا من مدرسة خورطقت الثانوية يأخذوننا بسياراتهم إلى المدرسة حفاظاً علينا. لقد أكرمونا إكراماً لا مثيل له فلهم من كل الخريجين الشكر والامتنان.

وكنا أحياناً نصادف أساتذتنا في الأبيض، إما في السينما أو في شوارع الأبيض فنعلم من نظراتهم ما إذا كانت العقوبة بانتظارنا في المدرسة في اليوم التالي أم لا. كما كان لبس البنطلون في المدرسة ممنوعاً منعاً باتاً حرصاً على المساواة المعنوية للطلبة. وإذا حدثت هذه المخالفة فسيعاقب الطالب ومن ثم يوقع على إقرار بعدم تكرار هذه المخالفة بينما يصادر البنطلون ولا يعطى للطالب إلا في نهاية العام الدراسي.

وكذلك كنا نخرج أحياناً إلى (حلة الدونكي) القريبة من خورطقت الثانوية، ما يعدُّ مخالفة أيضاً. وأحياناً نخرج لركوب البصات (الحافلات) من حلة الدونكي إلى الأبيض. وكنت أذهب وصديقي عاصم بابو نمر إلى حلة الدونكي في أيام العطلات للغداء مع المربي الكبير التجاني محمد زين - رحمه الله – صهر الناظر بابو نمر ومدير مدرستها الأولية آنذاك. وهو أحد أركان عائلة محمد زين الرائدة في التعليم والزعامة في قبيلة المعاليا في التبون.

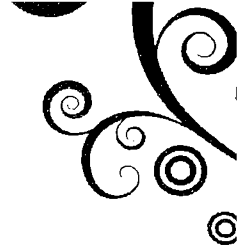


عصابة المدرسة:

اعتادت مجموعة من الطلاب زيارة حلة الدونكي بغرض شرب المسكر ومآرب أخرى فعلمت مجموعة من الإسلاميين بالخبر فانبرى أحدهم لتكوين عصابة تربض لهؤلاء السكارى عند عودتهم بين المدرسة وحلة الدونكي، حيث تقوم هذه العصابة بضربهم وقلبهم رأساً على عقب لتفريغ الخمور التي شربوها. ولقد أدت تلك الحركة لدخول المسكر في رئات بعض الطلاب ولولا مستوصف المدرسة لأصبحوا في خبر كان.

علم الناظر بهذه الحادثة فعاقب العصابة. كما أمر اتحاد الطلاب بمقاطعتهم حيث كانت عقوبة المقاطعة تشمل المتخاذلين عن الإضرابات أيضاً. والعجيب أن بعض أعضاء العصابة الذين يدعون إلى الفضيلة انحرف عند دخوله جامعة الخرطوم وأصبح ممن يتعاطى المسكر وكما قال شاعر الحقيبة: (من تعاطى المكروه عمداً غير شك يتعاطى الحرام).

ومن الطرائف أن أحد الخفراء كان يشجع الطلاب على زيارة حلة الدونكي وممارسة الرذيلة قائلاً:
- «شباب زيكم يأكل فجر وعشية وينوم بس. أنا لو منكم كان حلة الدونكي دي مليتها عيال!!!»



الرحلات:

كان خزان مياه (ود البقا) ومدينة الرهد أو البشيري وأحياناً بارا أو الجفيل مقاصد للرحلات الطلابية أثناء العام الدراسي. فمثلاً كانت بعض الفصول أو الجمعيات تنظم رحلات إلى هذه الأماكن بقصد الترويح والنزهة في آخر الأسبوع ما يوثق عرى الصداقة والأخوة بين الطلاب ويزيد من معرفتهم. يصحب الطلاب في هذه الرحلات المدرسون والطباخون وبعض عمال المدرسة ويستأجرون شاحنات لهذا الغرض.

كما كانت المدرسة تنظم رحلات سنوية – آخر العام الدراسي – لمختلف أقاليم السودان ليشترك فيها إلى جانب الطلاب الأساتذة والطباخون حتى يتسنى للطلاب معرفة وطنهم. وقد أفاد الطلاب كثيراً من تلك الرحلات.



زلزال جبل دامبير:

في أوائل عام ١٩٦٧م دهش الناس لنباح الكلاب ونهيق الحمير وصياح الديكة في (حلة العمال) بمدرسة خورطقت الثانوية. وفجأة وقبل أن يفيق الناس من الدهشة كانت الأرض قد اهتزت بشدة.

كنا في الحصة الأولى حصة الرياضيات» عندما أحسسنا بارتجاف الأدراج (مكاتب الطلاب) ارتجافاً خفيفاً ثم قوي فجأة. فتوقف الأستاذ وقال: (زلزال!!!)

لم يكد الأستاذ يكمل الجملة إلا وكان الفصل كله منطلقاً نحو الباب فأوقع الطلبة الذين يجلسون في الصف الأول درجاً (مكتباً) على الباب. وقد تسبب ذاك (الدرج) في جرح معظم طلاب الفصل بشكل مشابه حتى أنك عندما تنظر إلى سيقان الطلاب الملفوفة بالأربطة والضمادات تحسبها تقليعة جديدة من تقليعات الموضة.

ولشدة ما أصاب الطلاب من هول وفزع نتيجة لذلك الزلزال أصبح أحدهم عندما يعدو في (برندة) الداخلية تشاهد الطلاب الآخرين يركضون أو يتقافزون من النوافذ إلى خارج الداخلية هلعاً من الصوت الذي يحدثه وقع أقدامه الشبيه بالهزة الأرضية. لقد عشنا أياماً عصيبة!!!

لقد أحدث ذلك الزلزال في مدينة الأبيض شروخاً في المباني وخسائر في الممتلكات. ولم يعرف السودان أين مركزه حتى وافانا مرصد المحلة الكبرى في مصر بخط الطول والعرض لمركزه فعرفنا أنه جبل (دامبير) القريب من مدينة الرهد.

أحدث الزلزال المذكور شروخاً كبيرة في باطن الأرض في ناحية جبل دامبير. وقال الأهالي إن الحيوانات المفترسة والأفاعي والناس كانوا جميعاً من شدة الهول يقفون متجاورين في اللحظات الأولى للزلزال غير آبهين بعضهم لبعض حتى انتبهوا بعد فترة فتفرقوا!!



خاتمة:

هذه مجرد لمحات قليلة عن مدرسة خورطقت الثانوية العظيمة وأستميحكم العذر إن لم أسهب أكثر في إبراز محاسن درة عروس الرمال وجوهرة السودان.

ولكن يبدو أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن. فقد عمد بعض خريجي هذه المدارس النموذجية الثلاث: خورطقت وحنتوب ووادي سيدنا ممن تسنموا مراكز كبيرة في حكومتي مايو والإنقاذ إلى إغلاق هذه المدارس التي أسهمت في رقي السودان وساعدت على صياغة الهوية السودانية. لماذا؟ لا أحد يدري لماذا أصدرت قرارات الغائها!!!.

كان بعض خريجي خورطقت الثانوية أمثال كمال حمزة الذي يذكره كل خريجي خورطقت بالخير يتعهدونها بالهدايا والتأثيث ولم تغب عن بالهم مطلقاً، فله كل الشكر والتقدير وجزاه الله خيراً على ما قدم. كما كان بعض الطيارين الذين يعملون في الخطوط الجوية السودانية أو القوات الجوية السودانية يطوفون بالمدرسة تحية لها في رحلاتهم إلى الغرب قبل أن يهبطوا في مطار الأبيض.

وتسابق إليها خريجوها في ذكرى يوبيلها الذهبي من كل أصقاع الدنيا وعاشوا لحظات سعيدة تحت ظلال طقت الفيحاء الوارفة. و«أبداً ما هنت يا خورطقت يوماً علينا».

الفصل الخامس عشر
نبذه عن قبيلة المسيرية



الفصل الخامس عشر
نبذه عن قبيلة المسيرية

خلفية تاريخية:

يعدّ مخطوط الفكي النور موسى المؤرخ عام ١١١٠هـ (١٧٠٠م) أقدم أثر لاستقرار المسيرية في تلك المنطقة. يقول هندرسون في كتابه (مذكرات هجرة المسيرية إلى جنوب غرب كردفان - المجلد ٢٢) إن النور موسى هو أقدم شخص يؤرخ لهجرة المسيرية من مملكة وداي بين دارفور والكفرة إلى وطنهم الجديد.

وذكر التونسي ، الرحالة والمؤرخ ، الذي زار المنطقة في القرن الثامن عشر الميلادي، تحالف المسيرية مع السلطان هاشم سلطان المسبعات في كردفان لصد عدوان السلطان تيراب سلطان دارفور عام ١٧٨٥م. وأنه بعد مقتل السلطان تيراب انضم إلى مغتصب العرش عبد الرحمن الرشيد في عودته إلى دارفور عدد من شيوخ وأفراد قبيلتي المسيرية والرزيقات بلغوا عدة آلاف.

قبيلة المسيرية هي واحدة من بطون جهينة الثلاثة الكبار الموجودة في غرب السودان: عطية وحيماد وراشد الولاد - الذين ضمتهم الأهزوجة التي أصبحت شفرة متعارفة بينهم (الساير عطية والمقيم حيماد والنقارة البدقق «أوالدخان البتلتل داك» راشد الولاد) - المنحدرون من جهينة فأحمد الأجذب وشاكر والجنيد.

فأولاد راشد هم: زبد وزيود وحميدة وأزيد.

وأولاد عطية هم: معال وعال وعلي الرحال

- فمعال هو والد مسير أبو أحمد (حسن) الأزرق (أبو المسيرية الزرق غانم وعلوان والعنينات) وحامد (حسين) الأحمر (أبو المسيرية الحمر فليت وعجار)

- وعال هو أبو أحمد الحازم (أبو الحوازمة)
- وعلي الرحال هو أبو رزيقة (أبو الرزيقات)

وأولاد حيماد هم: حميد وحامد هبان وحسب الله
- وحميد جد ولاد حميد.
- وحامد هبان هو أبو الهبانية.
- وحسب الله هو أبو أحمد التعيش (أبو التعايشة).
- وجمعان العويس هو جد البني هلبة.

وترجع العرب عموماً بنسبها إلى قحطان (العرب العاربة) وعدنان (العرب المستعربة).
وتنقسم قحطان إلى كهلان وحمير. وتنقسم كهلان إلى (جذام، ولخم، وكندة، وطي، ومذحج، وهمدان، والأوس والخزرج)، وتنقسم حمير إلى (قضاعة وبلي وجهينة). فجهينة من قحطان. وهناك أقوال كثيرة في نسب جهينة.

انحدرت جهينة من اليمن إلى الحجاز والعراق ومصر والشام. ففي جيش عمرو بن العاص كانت تعرف بأهل الراية لعددها الضخم في جيش فتح مصر. ولا تزال من أكبر القبائل العربية قاطبة الموجودة داخل الجزيرة العربية وخارجها.

كما أن من حكام مصر الذين أعقبوا عمرو بن العاص عقبة الجهني الذي يوجد ضريحه في حي (ميت عقبة) بالقرب من نادي الزمالك في مصر. وتوجد بمصر حتى الآن قبائل المسيرية (البروفسير عبد الوهاب المسيري العالم بالشؤون الإسرائيلية الذي رحل عام ٢٠٠٩م) والحيانية (الهبانية) وبني هلبة (الهلباوي) وأولاد راشد والرزيقات مثل الماهرية.

كما توجد قبيلة أولاد راشد في ليبيا حتى اليوم. وكذلك الحال في تونس الخضراء التي ترجح الحكايات انحدار كل جهينة غرب السودان منها. وقد كانت أغاني الجدات إلى عهد قريب تتضمن أشعاراً لتونس الخضراء، حتى قال أحدهم: (البلاد العزاهن الله ثلاثة: تونس الخضراء ومكة المكرمة وثالثهن كلكة).



دخول جهينة إلى السودان:

ودخلت جهينة مع غزوات عمرو بن العاص وعبد الله بن السرح الصحابيين الجليلين لشمال السودان وبعد اتفاقية (البقط) مع النوبة . وأبو حمد الذي سميت عليه مدينة (أبو حمد) في شمال السودان هو اسم أحد الجهنيين. وانسابت جهينة مع النيل إلى وسط السودان حيث استوطنت الجزيرة ومنها قبائل الدويحية ورفاعة والعسيلات والحليويين والعوامرة والخوالدة والعركيين وغيرها.

ويقال إن بعضاً من جهينة اتجه غرباً عن طريق وادي المقدم مكوناً قبائل جهينة كردفان والنيل الأبيض.
كما سادت قبيلة جهينة العراق وأسهمت في فتوحات شرق آسيا وجنوب روسيا. ولا تزال بعض القبائل مثل السلامات والحبانية موجودة في العراق .

ويبدو أن قبيلة جهينة الضخمة قد دخلت السودان بعد سقوط دولة الأندلس ١٤٩٢م واندلعت في شمال إفريقيا من تونس وليبيا والجزائر والمغرب وموريتانيا ومالي والسنغال وشمال نيجيريا والكميرون وتشاد وغيرها من بلاد غرب إفريقيا، خصوصاً بعد سقوط دولة المرابطين وأنشأت دولة الفونج الإسلامية في سنار بالسودان التي لها رواق السنارية في الأزهر الشريف.

وقد دخلت قبائل جهينة إلى السودان في شكل مجموعات كبيرة أولاً ثم مجموعات صغيرة بعد ذلك . ويبدو ذلك جلياً في وجود مجموعات كبيرة للمسيرية في تشاد وفي الحدود السودانية/ التشادية وفي أماكن متفرقة من دارفور مثل نتيقة وكاس (قمر الجبل) وبالقرب من نيالا.

ومما سهل دخول قبائل جهينة وجود بطون كبيرة من فروعها الثلاثة والتي كانت تحتفي بمقدمها وتضمها إليها. لذا تجد في كثير من القبائل فروعاً من قبائل أخرى هي في الحقيقة قبائل كبيرة في مناطق أخرى مثل الجبارات والسلامات وأولاد راشد في الفلايتة. وجلاء بعض الأفراد من بعض القبائل لاختلاف مع الزعامة أو لأسباب أخرى ولجوئهم إلى قبيلة أخرى مثل بعض المسيرية الموجودين في الحوازمة والعكس.



المسيرية في الجزيرة المروية:

تواصل هذا المد الجهني في السودان من الغرب إلى الشرق إلى أن عبر الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق إلى البطانة وجنوباً إلى أبو نعامة والرنك وغيرهما حيث يوجد المسيرية وسليم والتعايشة إلخ. أما في الجزيرة فقد زادت كثافة هذه القبائل بعد موقعة كرري الشهيرة حيث لم يتمكن القائد أحمد فضيل الذي كان يقاتل في الحدود الشرقية للسودان من الوصول بجيشه إلى أرض المعركة بعد أن علم بانتهاء معركة كرري وهو داخل الجزيرة فانداح ذلك الجيش في أرض الجزيرة إلى الكرمك وما ورائها.

لذا نجد الآن أسماء مثل سنجة عبد الله والليونة بالقرب من سنجة. وبعد استباحة القائد الإنجليزي كتشنر لإمدرمان وتقتيل الأنصار وبصفة خاصة أمراء المهدية عموماً والتعايشة خصوصاً، خرج الأنصار الذين كان جلهم من قبائل غرب السودان مع أولاد الخليفة عبد الله التعايشي إلى الرماش والدمازين والجبلين ومناطق أخرى وهي الحادثة التي تعرف (بالكسرة).



البلاد التي يرجح قدوم المسيرية منها

ويرجح أن تكون قبائل جهينة عموماً الداخلة من غرب السودان هي من عرب شمال الجزيرة العربية «الشام تحديداً» والعراق. فكلمة (أنطيني) لا توجد إلا عند عرب العراق والأردن وفلسطين وجنوب سورية ثم نزحت عبر مصر وليبيا وتونس مع عرب جهينة حتى دخلت السودان. ومثل كلمة (كليت وشربت) عند أولاد عمنا حمر، فهي توجد في هذه المناطق أيضاً. و(وي أبي يي) عند الفلسطينيات. وكلمة (ولي) عند السوريات وهي مستخدمة عند التعيشيات وكلمة (العجكو) من العجكة والدبكة اللبنانية أي الزحمة وكلمة (فوت جاي) بمعنى تعال وكلمة (البرامكة) وكلمة (بوطه).

ثم الأسماء مثل: (الجبوري) و(جبران) و(عمران) و(حمدان) و(كامل) و(كميل) و(الدويك) و(خاطر) و(خدام) و (عايش) و(عياش) و(الحبيب) و(الربيع) و(ماهر) و(مرعي) و(جبريل) و(حمدي) و(الزامل) و(الرزيقات) و(عريقات) و(الجبارات) و(السلامات) و(أم عقاد) و(بشارة) و(بشار) و(عجالة) و(مرشودة) و(حمدة) و(اللبينة) ومنها(لبنى) و(شميلة) و(كاظم) و(مسعود) و(أديب) في العراق وفلسطين ولبنان وسورية وفي مصر أيضاً.

كما تميزت هذه القبائل بالإمالة المعروفة عموماً في الشام (العربيية) بدل (العربية) و(العجايرة) و(الفلايتة) و(المزاغنة) و(دار أم شيبة) و(شقفة وشقيفة).كما أن هناك بطناً من بطون المتانين في الفلايتة يسمى (الشامية). فهذه الألفاظ لا تجدها في وسط الجزيرة العربية ولا في جنوبها.



هجرة قبيلة المسيرية:

دخلت المسيرية بشقيها إلى موطنها الحالي المجلد من مملكة وداي في تشاد بقيادة زعيمها الروحي الشيخ أبو أجبر مؤسس دار المسيرية والذي توفي بجنوب المجلد في منطقة (أبو أجبر) التي عرفت لاحقا باسمه والتي تبعد حوالي ٣٢ كلم عن المجلد في فترة تتقدم على القرن السابع عشر الميلادي بعد هزيمة دينقة – ملك الداجو المشهور بالعدل – والذي تنادت قبائل جهينة وأوقعت به تلك الهزيمة المنكرة (في المعركة الشهيرة بالركبة والتي يراها المرء في فيلم عمر المختار وهي ربط الركبة والإصرار على عدم التقهقر فإما قاتل أو مقتول.) وهناك نوع آخر من الدواس (المعارك) وهو ما يسمى بالمشايلة أي (الكر والفر بالخيل).

فقد كانت القبائل ترسل الطلائع للمجلد الحالية. شك دينقة سلطان الداجو في تلك الطلائع واستجوب العرب التي تغدو وتروح في أنحاء مملكته وحذر الداجو منها. وصدق ظنه حتى غزته القبائل ورمته عن قوس واحدة. ومدينة (الميرم) القريبة من المجلد مسماة على بنت السلطان دينقة.

فقد تجمعت قبائل التعايشة والرزيقات والمسيرية والحوازمة وأولاد حميد وغيرها من القبائل الجهنية وانتصرت عليه. وعاشت فترة مجتمعة في المجلد (غريقة) أو (دينقة أم الديار). ويقال إن أول من حكم المجلد من الحوازمة.

اختلفت العرب كعادتها فيما بينها وقامت بإجلاء الحوازمة إلى مناطقها الحالية وأولاد حميد واللخم إلى أبي جبيهة عن المجلد ثم تفرق التعايشة والرزيقات بعد أن رأوا نذر الشر بين القبائل واستقرت المسيرية بشقيها الحمر والزرق (وهما من سلالة توأم حسن الأزرق «أو أحمد» وحسين الأحمر «أو حامد» (كما يقال) في

المجلد حتى اختلفت القبيلة الواحدة في حادثة البنت المسماة (التبينة) الشهيرة وما تلاها من جلاء المسيرية الزرق.

وفي معركة دينقة الشهيرة كان قادة المسيرية هم علي أبوقرون وحمدان أبو هزلة وغيرهما من القادة العظام. ويجب أن نشير إلى أن معظم هذا الذي نسرده هو تاريخ شفهي متواتر وليس مكتوباً.



الهيكل الإداري للمسيرية:

ولما استقر المقام بالمسيرية الحمر في المجلد التي سموها كذلك لاستواء أرضها وجلدها وهي أرض عتامير (قيزان أو تلال رملية) تحفها وتتوسطها مناطق طينية، انقسم المسيرية إلى فلايتة (خمس عموديات: أولاد سرور والمتانين والزيود والجبارات والسلامات) وعجايرة (خمس عموديات: أولاد كامل (الكلابنة)؛ والمزاغنة (والمزاغنة موجودة الآن في تونس الخضراء وهي من مؤسسي مدينة تونس) ؛ وأولاد عمران والفيارين والفضلية).

العجايرة بنظارة نمر على الجلة والفلايتة بنظارة الحاج أجبر حتى الحرب العالمية الثانية حيث صار بابو نمر ناظراً لعموم المسيرية وعلى نمر ناظراً للعجايرة وسرير الحاج أجبر ناظراً للفلايتة والتي تم نقل مركزها لاحقاً من قوز الجبارات في المجلد إلى رجل الفولة وإنشاء الفولة كمقر لمجلس ريفي المسيرية عامة بعد احتجاج المسيرية الزرق على بعد المجلد كمركز للمجلس.

وهكذا نشأت الفولة التي أحتلت مركزاً وسطاً بين المجلد و لقاوة - مقر نظار المسيرية الزرق: الجبوري ومحمد دفع الله وعزالدين. واستمرت الإدارة الأهلية على هذا النمط حتى تمت إزالتها في عهد النميري في السبعينيات من القرن العشرين ؛ ثم تحولت إلى إمارات في عهد حكومة الإنقاذ.


المرحوم الناظر سرير الحاج أجبر
(ناظر الفلايتة)

وقد تعاقبت العائلات التالية على حكم قبيلة المسيرية الحُمر:

١. آل الدقم
٢. آل عزوزة
٣. آل على مسار (ناظر المسيرية في التركية)

٤. آل على الجلة: الناظر علي الجلة (١٩٠٥-١٩١٨)
- الناظر نمر علي الجلة (١٩١٨-١٩٢٤)
- الناظر مكي علي الجلة
- الناظر بابو نمر علي الجلة: تولى النظارة عام ١٩٢٤ وهو في سن ١٤ وكان الوصي عليه الشيخ جبَر علي مسار. وفي عام ١٩٤٢ أصبح ناظر عموم المسيرية وأصبح شقيقه الناظر علي نمر ناظراً للعجايرة بدلا عنه حتى عام ١٩٧٠حيث حلت الإدارة الأهلية في عهد حكومة نميري.
- الناظر علي نمر علي الجلة: بعد إعادة الإدارة الأهلية ١٩٨٥ استمر ناظراً للعجايرة حتى عام ١٩٩٥ حيث أصبح أميراً على العجايرة في عهد حكومة الإنقاذ وعين مختار بابو نمر وكيلاً للأمارة.
- الأمير مختار بابو نمر: تولى أمارة العجايرة عام ١٩٩٥ إلى الآن (أطال الله في عمره)

وينقسم المسيرية الزرق إلى:
١. علاونة: أربعة خشوم بيوت (أفخاذ) كالتالي: ١) الغزايا ٢) أم سليم ٣) الدرع ٤) أولاد هيبان
٢. غانم (الزرق) : أربعة خشوم بيوت كالتالي: ١) الغانمي ٢) السعيدي ٣) الدريهمي ٤) الخلبوسي
٣. العنينات: أربعة خشوم بيوت كالتالي: ١) أولاد هلجيجة ٢) أولاد كضبة ٢) أولاد نصار ٤) الشكرية.

كما تعاقبت النظارات التالية على حكم قبيلة المسيرية (الزرق) منذ دخولهم السودان:

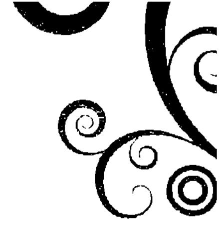

الأمير مختار بابو نمر

١. الناظر أبو أجبر الكبوولد المرمري (سليمي)
٢. الناظر حمدان أبو هزلة (عنيني)
٣. الناظر خليل دليب (هيباني)
٤. الناظر محمد صالح حمودة زقلة (زرقاي (دريهمي))
٥. الناظر زكريا أبو خديجة (سريري)
٦. الناظر فضل الله زكريا أبو خديجة (سريري) ١٩٠٢-١٩٠٨
٧. الناظر محمد الجبوري (سليمي) ١٩٠٨-١٩١٥
٨. الناظر محمد دفع الله (زرقاي) ١٩١٥-١٩٣٣
٩. الناظر حميدة خميس (غزاي) ١٩٣٤-١٩٤٣
١٠.الناظر عز الدين حميدة (غزاي) ١٩٤٣-١٩٦٩ إلى أن حل الرئيس نميري الإدارة الأهلية عام ١٩٧٠


المرحوم الناظر عز الدين حميدة


المرحوم الناظر محمد دفع الله

ثم عادت الإدارة الأهلية بعد الانتفاضة ١٩٨٥:
١. الناظر حماد محمد دفع الله ١٩٨٥-١٩٨٦
٢. الناظر الحريكة عز الدين ١٩٨٦-١٩٩٠



حدود المسيرية:

انداح المسيرية جنوباً إلى بحر العرب (كير) كما تسميه الدينكا نقوك. وكان يعد الفاصل الطبيعي بين بحر الغزال وكردفان من الجنوب. وتعدّ بانتيو هي الحدود بين بحر الغزال وكردفان وأعالي النيل. ويحد المسيرية من جهة الغرب أبناء عمومتهم الرزيقات والمعاليا. ومن الشمال أبناء عمومتهم الآخرون الحمر في الأضية التي كانت بها حامية عسكرية تركية ثم إنجليزية. ومن جهة الشرق النوبة.

كان المسيرية في بادئ الأمر أبالة (جمالة) أي يرعون الإبل وتدل على ذلك أهزوجة (بقارة حاربونا شدوا جمالهم جونا). لكن طبيعة المنطقة بأمطارها الغزيرة والذباب الشرس والهوام الأخرى في بحر العرب، والتي كانت ترهق الجمال بالإضافة إلى الطين الذي كثيراً ما كان يزلق الإبل فيتسبب في كسورها والغابات الكثيفة التي كانت تعيق حركة الجمال الذلولة التي بها الظعائن (الهوادج)، جعلت المسيرية تعيد النظر في سعاية الإبل وتمعن النظر في ما حولها. فرأت القبائل الزنجية الوطنية (ومنها الدينكا والشات وقرمة والنوبة) في تلك المناطق فرصدت أساليبها مع الحيوان خصوصاً وهم يربون البقر لقصر قامة البقر ومرورها من تحت الأشجار وأظلافها التي تحميها من الوحل والانزلاق وتحملها لذباب بحر العرب.

وعلى إثر ذلك أنزلت المسيرية الهودج من البعير الذلول وأدبت الثور وسمته (ضلولا) ذلولا بدل الناقة ووضعت عليه الهودج. فالثور قصير يستطيع أن يمر من تحت الأشجار ولا ينزلق ويتحمل هوام بحر العرب. ومن وقتها انقطعت الإبل عن المسيرية وصرنا وكل أبناء عمومتنا الذين يرعون في مناطق مشابهة بقارة.

وللأبقار في حياة المسيرية أهمية كبيرة. فالبقرة هي أحد أفراد العائلة. لها اسم خاص بها ولها شخصيتها

الاعتبارية. وتسمع الاسرة تتحدث عنها وكأنها شخص قائم بذاته. والأبقار هي مصدر الثراء والقيمة الاجتماعية. ومن ليست له أبقار فهو ليس بشيء أبداً. وللمسيرية أشعار كثيرة في الأبقار.

وصار أبناء عمومتنا في شمال دارفور وكردفان أبالة (جمالة) وفي وسط كردفان ودارفور (غنامة) مثل حمر الذين جاءوا بالخروف الحمري من تونس. وهو أكبر خروف في العالم من حيث الحجم وقد تم تهجينه في تونس من خروف بربري وعربي.

ثم أطلقت العرب على البديرية ساكني الأبيض (الحمارة) لأن الذين وفدوا منهم من الشمال من الدبة أو من مصر جلبوا معهم الحمار الريفاوي (ريف مصر) وهو أصلا حمار من منطقة الأحساء السعودية ويسمى الحساوي ويطلق عليه في مصر الحصاوي وهو من أجود أنواع الحمير في العالم.

عملت قبيلة المسيرية في معظم وقتها بالرعي والجندية لطبيعتها الجهادية (ديل صبحوا وديل غربوا وديل جكوا الريش بتن ما جاو) وعلى سبيل المثال لا الحصر من القادة العسكريين من المسيرية وممن عاشوا بديار المسيرية اللواء فضل الله حماد محمد دفع الله، والفريق مهدي بابو نمر رئيس الأركان الأسبق ووزير الصحة في حكومة الإنقاذ، واللواء فضل الله برمة ناصر وزير دولة للدفاع في حكومة الصادق المهدي، واللواء طيار معاش إبراهيم البشرى (البارون) واللواء آدم سعد، واللواء محمد حماد الذي عمل ملحقاً عسكرياً في سفارة السودان بالرياض في المملكة العربية السعودية وغيرهم.

ولم تلتفت المسيرية للزراعة والمهن الأخرى إلا في أوقات قليلة، بل اهتمت بالخيول لرعاية الأبقار وبرعوا في ركوبها والاحتفاء بها حتى اصبحت الفروسية نهجاً مهماً في حياة شباب المسيرية.



المسيرية والمهدية:



شاركت هذه القبيلة الجهادية في حروب المهدية، وكان لها قصب السبق، فهي كما كان يقول الإمام المهدي: (المسيرية أبكار المهدية)، فقد كانت معركة الأضية أو طيرة حميرة (الانقضاض على حامية الأضية التركية)، و(عجاج) على بعد ٨٥ ميلاً جنوب شرق مدينة المجلد، وعلى كتيبة عائدة من واو إلى الأبيض - مع تباشير ظهور المهدية - هي أولى معارك المهدية من دون أن ترى المسيرية المهدي نفسه.

وكان من قادتها في المهدية على سبيل المثال لا الحصر العمدة آدم يوسف وعلي الجلة والجبوري ومحمد دفع الله (كان نائباً لمحمود ود أحمد في معركة النخيلة ورسوله إلى عبدالله ود سعد لحقن دماء المسلمين حيث قال لعبدالله ود سعد «خليفة المهدي بقول ليك الله والله ما تتلف على الجعليات» ولكن جرت الرياح بما لا تشتهي السفن) وغيرهم الكثير من الأبطال الأشاوس.

المحتويات

الفصل الخامس: معالم المجلد الرئيسة